رواية تجبرك على قراءتها حتى النهاية. موضوعها مهم على نطاق عالمي وطريقة سردها مؤثرة بعمق... لا تكف عن إيلامك ومطاردتك New York Times Book Review

أفعال بشرية



هان كانغ

من مؤلفة رواية النباتية الحاصلة على جائزة مان بوكر الدولية لعام 2018

ترجمها عن الكورية محمد نجيب

التنوير

أفعال بشرية

هان كانغ

ترجمها عن الكورية محمد نجيب

دار التنوير 2020

رواية عن الراحلين والباقين والعالقين بين الرحيل والبقاء. قصة يرويها أحياء عن أموات وأموات عن أحياء. مرثية حزينة وشهادة جريئة عن انتفاضة مدينة غوانغجو العام 1980. لا تقع هانغ كانغ في فخ السرد التاريخي المملّ، بل تحكي قصصًا شديدة الخصوصية ولكنها عالمية في إنسانيتها. تواصل كانغ توجيه أسئلتها المميزة لأسلوبها في " النباتية والكتاب الأبيض" عن العنف البشري وعن ثقل الضمير وصعوبة أن تكون إنسانًا، وشقاء أن تكون ناجيًا.



مقدمة المترجم

تُعتبر انتفاضة غوانغجو التي وقعت في الثامن عشر من مايو 1980م حدثًا أساسيًّا في السلسلة الطويلة من الحوادث التي شكلت التاريخ السياسي والإنساني الكوري. بدأت الانتفاضة كتظاهرة طلابية في مدينة غوانغجو جنوب غربي كوريا، ثم سرعان ما تطوّرت لتصبح صراعًا مسلحًا بين المدنيين والسلطة ممثلة في الشرطة والجيش، وقُوبلت الانتفاضة من قبل الحكومة بأشد أفعال العنف وحشية، ورغم نجاح الجيش في قمع الانتفاضة التي دامت لعشرة أيام، وبالتالي فشلها كالكثير من الحركات الطلابية والانتفاضات الشعبية التي انتشرت في أرجاء عدة في العالم في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، إلا أن أسطورتها وتأثيرها ما زالا باقيين وبقوة حتى الآن. بالنسبة إلى الكثيرين من المؤرّخين، فإنَّ انتفاضة غوانغجو هي الحدث الأكثر أهمية الذي شكّل ملامح كوريا الجنوبية السياسية والاجتماعية في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي ودفع باتجاه تبنّي مبادئ الديمقراطية والعدالة.

في مواجهة الأزمة الاقتصادية الطاحنة التي ضربت كوريا الجنوبية في فترة ما بعد انتهاء الحرب الكورية، استولى الجيش على الحكم في العام 1961م مُنهيًا أي إمكانية لوجود ديمقراطية في كوريا. ورغم الحركات الديمقراطية المحدودة المدعومة أحيانًا من الغرب، ظلّت كوريا الجنوبية تحت الحكم العسكري الديكتاتوري لنحو ثلاثين عامًا.

حين سيطر الجيش على الحكم في أوائل الستينات، برز الجنرال تشونغ هي بارك قائدًا عسكريًا. فهو كان ضابطًا في الجيش الياباني في الثلاثينات والأربعينات أثناء الاحتلال الياباني، وكان متأثّرًا جدًّا بعقيدة الجيش الياباني خلال تلك الفترة التي تؤمن بإدارة مركزية قوية للاقتصاد وبقومية متعصِّبة. الشقّ الاقتصادي من هذه العقيدة قد يبدو ماركسيًّا للوهلة الأولى، وهو ما أثار حفيظة الحكومة الأمريكية، لكن الشقّ الثاني المتمثّل في ترسيخ قومية متعصّبة كان يرفض تمامًا الشيوعية العالمية وهيمنة السوفييت، خاصّة مع التقارب بين الأخيرة وكوريا الشمالية التي كانت تسمى « الشمال الشيوعي». وهكذا كان بارك جنرالًا عسكريًّا قوميًّا شموليًّا يؤمن بضرورة تدخّل الدولة في الاقتصاد.

حكم بارك بهذه الطريقة حتى العام 1971م. خلال هذه الفترة تحوّلت كوريا الجنوبية من بلد فقير مزقته الحرب إلى

قوة اقتصادية صناعية كبيرة، وهي الفترة التي شهدت معجزة كوريا الاقتصادية، أو ما يعرف بمعجزة نهر الهان. لكن حين فاز بصعوبة على منافسه السياسي الصاعد بقوة آنذاك كيم داي جونغ في انتخابات العام 1971م، التي شكّك الكثيرون في صحة نتيجتها، قضى بارك مدفوعًا بصدمته من نتيجة الانتخابات، التي كادت تطيح به، على أي مظهر ديمقراطي في البلاد. وفي أكتوبر العام 1972م وُضع دستور جديد يسمح للرئيس بارك بالبقاء في سدة الحكم مدى الحياة تقريبًا، ويسمح له بفرض قيود مجحفة لقمع حقوق الإنسان وحرية الصحافة. على هذا المنوال استمر حكم بارك دكتاتوريًّا قمعيًّا حتى العام 1979م محافظًا على وتيرة النمو الاقتصادي الذي أكسبه تأييدًا من قطاع عريض من الشعب حتى سنوات حكمه الأخيرة.

تسارعت الحوادث في نهاية العام 1979م مع إعلان بارك قانون الطوارئ ردًّا على تظاهرات طلابية اجتاحت مدينتي بوسان وماسان في جنوب البلاد تنديدًا بالدستور. نزل الجيش إلى الشوارع، واعتُقل نحو تسعة وخمسين مدنيًا وقُدموا إلى محاكمات عسكرية سريعة. ثم في مساء السادس والعشرين من أكتوبر اغتيل الرئيس بارك على مائدة عشاء لمناقشة الاحتجاجات الشعبية على قراره عزل قائد المعارضة كيم يونغ سام من المجلس الوطني. أشارت أصابع الاتهام إلى قائد حرسه شاي جي-تشول.

لكن لم يكن اغتيال الرئيس بارك الانفراجة غير المتوقّعة التي تمناها الكوريون في الحياة السياسية، إذ سرعان ما برز إلى الواجهة تشون دو هوان، جنرال عسكري شاب متزمِّت، يؤمن بشدّة بأفكار قومية شمولية، وكان يعتبره بارك بمثابة ابنٍ له. عاشت كوريا الجنوبية فترة من الحرية السياسية بعد اغتيال بارك. اجتاحت التظاهرات الشوارع والجامعات، واكتسبت النقابات العمالية زخمًا كبيرًا، فأمر الجنرال تشون بتمديد قانون الطوارئ في البلاد، مستغلًا التوتر السياسي بين الكوريَّتَين. على أثر ذلك أغلقت الجامعات وجُرِّمت الأنشطة السياسية، واعتُقل الكثيرون من الأشخاص، وازدادت القيود على حرية الصحافة.

في صبيحة الثامن عشر من مايو العام 1980م بدأت شرارة الانتفاضة حين تظاهر الطلاب في مدينة غوانغجو احتجاجًا على قانون الطوارئ الذي توقفت الحياة الجامعية بمقتضاه. عجزت الشرطة عن السيطرة على الاحتجاجات، فأرسل الجيش وحدات من القوات الخاصة المدرَّبة على الاغتيالات لقمع التظاهرات. كان الجنود مزوَّدين بالهراوات والحراب وعبوات الغاز المسيل للدموع والرصاص المطاطي. انضم العمال وأصحاب الحرف والآباء إلى الطلبة في الشوارع. حينها أطلق الجنود الرصاص الحي فقتلوا العشرات وجرحوا المئات.

في العشرين من مايو، نزل نحو عشرة آلاف مدني إلى شوارع غوانغجو من جديد. كان معظم أصحاب المتاجر الضخمة يحتفظون بأسلحة في محالهم فاستولى عليها المتظاهرون بالإضافة إلى الحافلات وسيارات الأجرة وحتى ناقلات الجنود المدرَّعة مشكّلين ميليشيا مسلّحة من المدنيين. اشتبكوا مع الجيش في قتال مسلح حتى اضطرت قواته في اليوم التالي - الحادي والعشرين من مايو- إلى التقهقر والانسحاب خارج المدينة، ولاذ أعضاء الحكومة المركزية بالفرار. وهكذا أصبحت المدينة تحت سيطرة المحتجّين.

كانت الأيام الخمسة التالية غير مسبوقة في تاريخ كوريا حيث شهدت تكاتفًا شعبيًا فريدًا. فقُدِّمت وجبات الطعام بأعداد كبيرة بالمجان. وقامت ميليشيا المدنيين باستخدام السيارات الخاصة والحافلات لتأمين المواصلات في المدينة وللبث الإذاعي في الشوارع ولخلق نظام توزيع جديد للسلع بمنأى عن السلطة والعاصمة. حضر حشدٌ من المواطنين مراسم تأبين جماعية على أرواح مَن قتلوا في الرابع والعشرين من مايو. في الخامس والعشرين من مايو، تجمع نحو خمسين ألف شخص من أجل مسيرة حاشدة تبنت مطالبَ بإطلاق سراح المعتقلين، وعلى رأسهم كيم داي جونغ وبإلغاء قانون الطوارئ.

ولكن في فجر يوم السابع والعشرين من مايو، اجتاح الجيش المدينة، وسحق الانتفاضة في أقل من ساعتين. اعتُقل ألف وسبعمائة وأربعين شخصًا، سُجن منهم سبعمائة وثلاثين تعرَّضوا للتحقيقات والمحاكمات أمام محاكم عسكرية. مات في الحوادث نحو مئتي شخص، لكن الشيء الأكثر رعبًا كان تقارير الطب الشرعي التي أظهرت الوحشية التي قُتل بها المدنيون والتشوّهات التي تعرّضت لها جثثهم بعد موتهم، والمقابر الجماعية التي دُفنت فيها بعض الجثث ولم تكتشف إلا لاحقًا. ربما السبب في ذلك هو بُعد غوانغجو عن العاصمة وبالتالي قلة التغطية الصحافية الأجنبية التي أتاحت للحكومة إخفاء التفاصيل والبيانات الدقيقة لأعداد الضحايا لوقت طويل. انتهت المذبحة ورحل الموتى لكن ظلت -ولا تزال حتى الآن- ظلالها تخيّم على المدينة كغيمة سوداء. ما زالت ذكريات الأيام العشرة عالقة في أذهان المصابين والناجين وأهاليهم. وظلت رائحة الدم والعنف في ذاكرة السكان سواء مَنْ اشتركوا بإرادتهم في التظاهرات، أو من احتموا ببيوتهم غير عابئين بالسياسة.

لم يتم الاعتراف بالمذبحة رسميًا إلا في العام 1997م، ولا تزال محاسبة الجناة مسألة شائكة في كوريا حتى الآن. من حين إلى آخر، تطفو ذكرى مذبحة غوانغجو إلى السطح. وقد تجدَّد الحديث عنها بشكل خاص في السنوات الأخيرة مع

وصول باك غن هي ابنة الرئيس بارك تشونغ هي إلى رئاسة الجمهورية في العام 2013م، مما أثار غضب الكوريين وأعاد فتح الجرح القديم الذي لم يلتئم بعد.

إنها قصة مؤلمة عن الذاكرة، عن الحاضر الذي يكتبه الماضي، عن الذكريات المؤلمة، وعن كوابيس مفزعة. ومع أن الناشر العربي اختار العنوان الإنجليزي «أفعال بشرية» فإن عنوان الرواية بنسختها الكورية «الصبي يأتي 소년이 온다» «الصبي يأتي». فالفعل يأتي 오다 يحمل في حدِّ ذاته، بالإضافة إلى الأفعال العديدة الأخرى المشتقة منه في اللغة الكورية، معاني كثيرة: إتيان، قدوم، صعود، انتفاضة، طفو، ارتفاع، ظهور، تكشف، تجسّد، بروز، نهوض... فإن كانت جثث الموتى قد دُفِنت فالماضي شيء من المستحيل دفنه، وإن دُفِن لا يبقى كذلك طويلًا. الزمن أشبه بموجة معقّدة تتخلّلها قفزات لا تتوقّف بين الماضي والحاضر، وكثيرًا ما يهيمن الأول على الأخير ويطمسه، فثمةحواد لا يمكن للحاضر أو للمستقبل أن يطغى عليها، أو يمحو تأثيرها.

هذه الرواية، متاهة سردية متقنة الصنع، يمكنك أن تدخلها من أي من فصولها، فكل طرقها تؤدّي إلى النهاية نفسها، إلى المركز نفسه، حيث ينتظرك الصبي دونغ هو ليروي لك

حكايته. رواية عن الراحلين والباقين والعالقين بين الرحيل والبقاء. قصّة يرويها أحياء عن أموات وأموات عن أحياء، فثمة حوادث يكاد يتلاشى معها الخيط الرفيع الفاصل بينهم. لكن هان كانغ لا تقع في فخ السرد التاريخي المملّ، أو الكتابة المقيَّدة بزمان أو مكان، فهي تحكي قصصًا إنسانية شديدة الخصوصية في وصفها لحكايات شخوصها، وعالمية في طرحها. في طيّات هذه الرواية، تواصل كانغ توجيه أسئلتها المميِّزة لأسلوبها في روايتَي النباتية والكتاب الأبيض عن العنف البشري، وعن محاولتنا المستمرّة لتبريره من جهة، وسعينا لمقاومته والتنديد به من جهة أخرى، عن ثقل الضمير، الشيء الأكثر رعبًا في العالم، وعن صعوبة أن تكون إنسانًا، وشقاء أن تكون ناجياً.

وفي الخلفية هناك حقيقة أن هان كانغ قد وُلدت في غوانغجو وانطبعت أجواء تلك الفترة في عقل هان الطفلة، وظلّت تكتمها بداخلها حتى تمكّنت من كتابتها في هذه الرواية...

المترجم

الفصل الأول

طائر صغير

(الصَّبِي 1980)

«يبدو أنـها ستمطرُ».

تمتمتَ إلى نفسِك.

ماذا سنفعل إذا هطل المطرُ حقًّا؟

تفتح عينيك قليلًا، وتراقب أشجار « الجنكة» أمام مبنى المقاطعة. هناك، تبدو الرياح بين الأغصان المتمايلة كأنها على وشك أن تتخذ شكلًا مرئيًّا، وتبدو قطرات المطر المعلّقة في الهواء في انتظار السقوط في أية لحظة كجواهر شفافة.

تفتحَ عينيك أكثر فتبدو حدود الأشجار باهتة وضبابية أكثر مما كانت من قبل. ستحتاج إلى استعمال نظّارات طبِّيَّةٍ عمّا قريب، تفكّر. تطفو بذاكرتك صورة وجه أخيك الأوسط بملامحه الجادّة، وهو يضع نظارتيه ذاتي الإطار المربّع

الكستنائي اللون. لكن سرعان ما تخبو الذكرى لتطغى عليها أصوات الصّياح والتّصفيق العالية القادمة من اتجاه النافورة. أخبرك أخوك أن نظارتيه كانتا تنزلقان عن أنفه كثيرًا في الصيف. وفي الشتاء، في كل مرة يمكث فيها داخل حجرته، كان لا يستطيع رؤية أي شيء بسبب تكاثف البخار على عدسيتهما. ربما إذا لم تزدد رؤيتك سوءًا عمّا هي عليه الآن، فلن تضطرّ إلى استعمال النظارتين في نهاية المطاف؟ تسأل نفسك.

«استمع إلى ما سأقوله لك إذا كنت تعرف ما هو الجيّد بالنسبة إليك: عدْ إلى البيت الآن في هذه اللحظة».

تهزّ رأسك محاولًا التخلّص من هذه الذكرى. الغضب الذي ينبض به صوت أخيك. يصلك الصوت الجهوري الواضح للمرأة الشابة الممسكة بالميكروفون عند المنصّة. لا يمكنك أن ترى النافورة من مكان جلوسك على السلالم المؤدّية إلى قاعة الرياضة. عليك أن تدور حول الجانب الأيمن من المبنى إذا أردت أن تحصل على إطلالة بعيدة على مراسم التأبين. عوضًا عن ذلك، تقرر البقاء حيث أنت، وتكتفي بالاستماع.

«سيداتي وسادتي، أخواني وأخواتي، أحبتنا سيصلون إلى هنا اليوم من مركز الصليب الأحمر».

تقود المرأة الحشود المتجمّعة في الميدان في غناء جماعي للنشيد الوطني. سرعان ما يفقد صوتها قوته في مواجهة آلاف الأصوات التي تتراكب فوق بعضها البعض مشكِّلة برجًا شاهقًا من الأصوات التي ترتفع عاليًا في السماء. يصل الإيقاع إلى ذروته قبل أن ينحسر من جديد كبندول ساعة. التمتمة المنخفضة لصوتك بالنشيد الوطني بالكاد مسموعة.

حين سألت هذا الصباح عن عدد الجثث التي ستُنقل اليوم من مركز الصليب الأحمر، كانت إجابة جين سو مقتضبة جدًّا: ثلاثون. بينما يتكرّر الإيقاع المدوّي للنشيد - يعلو ثم يهبط، يعلو ثم يهبط، سيتم إنزال ثلاثين تابوتًا من الشاحنة واحدًا تلو الآخر. ثم ستُوضع في صف مجاور للتوابيت الثمانية والعشرين التي أخرجها جين سو هذا الصباح لتشكّل معًا خطًّا يمتد بطول الطريق بين قاعة الرياضة والنافورة.

قبل مساء الأمس، كان ثمة ستة وعشرون تابوتًا من الثلاثة والثمانين الموجودة هنا، لم يُحملوا إلى الخارج من أجل إجراء مراسم تأبين جماعي لها أمام النافورة. مساء الأمس ارتفع هذا

العدد إلى ثمانية وعشرين حين أتت عائلتان وتعرّفت كلٌ منهما على هوية جثة تعود إليها. بعد التعرّف الإيجابي، وُضِعت الجثتان في تابوتين يصاحب ذلك نسخة مقتضبة ومرتجلة من الطقوس المعتادة. بعد أن دوَّنت اسميهما ورقمي تابوتَيْهما في مفكرتك، أضفتَ بين قوسَين «مراسم التأبين الجماعي»، فقد طلب جين سو منك أن تُعدَّ سجلًا واضحًا بالتوابيت التي مرّت بالفعل في مراسم التأبين كي تتفادوا إخراج تابوتٍ مرتين. أردت أن تخرج وتتفرّج على المراسم هذه المرة فقط، لكن جين سو أخبرك بالبقاء أمام قاعة الرياضة.

«قد يأتي أحدهم باحثًا عن قريب له خلال انعقاد المراسم. لا بدَّ من وجود شخص حاضر عند الباب».

الآخرون الذين تعمل معهم، كلّهم يكبرونك سنًا قد ذهبوا إلى مراسم التأبين. في هذه اللحظة يقوم أهالي الضحايا، وقد ثبّتوا شرائط سوداء على الجانب الأيسر من صدورهم، يسيرون في موكب مهيب وبطيء خلف توابيت ذويهم بعد أن سهروا لعدة ليالٍ لحراستها. يسيرون بخطى متثاقلة كخيالات مآتة محشوّة بالرمل أو القماش. قالت أون سوك إنها ستبقى معك لكنك قلت لها إنك بخير، وأن عليها الذهاب معهم لحضور المراسم، فضحكت كاشفة عن أسنان ناتئة. كلما أرغمت نفسها على

الضحك بعصبية في موقف محرج، كانت أسنانها الناتئة تجعلها تبدو مستهترة بشكل ما.

« سأحضر البداية فقط ثم أعود إليك مباشرة».

تجلس وحدكَ على السلالم المُفضية إلى قاعة الرياضة، وقد وضعت مفكرتك - شيئًا مرتجلًا، عبارة عن مجموعة من الأوراق بين غلاف مصنوع من قطعة من كرتون أسود مثنية عند المنتصف- فوق ركبتك. تتسلل البرودة من السلالم الاسمنتية عبر بنطلون سترتك الرياضية الخفيف. تغلق أزرار سترتك الرياضية كلها، وتُبقِي ذراعيك مطويّتين حول صدرك.

زهورُ الشارون(1) والجبال والأنهار الرائعة تغطي ثلاثة آلاف رِي(2)...

***

تتوقّف عن ترديد كلمات النشيد. ذلك الجزء « الجبال والأنهار الرائعة» يجعلك تفكِّر في المقطع الثاني من كلمة رائعة (هواريو)، « ريو»، إحدى المقاطع التي درستها في صف الرموز الصينية. تشكَ في قدرتك على رسمه الآن إلا

أنك تتذكّر أن هذا الرمز الصيني كان يتضمّن عددًا كبيرًا بشكل غير مألوف من الضربات(3).

تفكر في العبارة. هل تعني «الجبال والأنهار حيث توجد زهور رائعة»، أم «الجبال والأنهار الرائعة كالزهور»؟ في ذهنك تطغى على صورة الحروف المكتوبة ذكرى زهور الخطمى التي كانت تنمو في فناء بيتكم في الصيف حتى تبلغ ارتفاعًا يفوق طولك بسيقانها الطويلة المستقيمة وزهورها المتفتّحة كقصاصات صغيرة من قماش أبيض. تغمض عينيك كي تتمكن من تخيلها بوضوح أكبر. حين تفتح عينيك قليلًا جدًا، تلمح أشجار الجنكة، وهي لا تزال تتمايل في مهب الرياح. لم تسقط قطرة مطر واحدة حتى هذه اللحظة.

***

بلغ النشيد الوطني نهايتَه، لكن كان هنالك تأخير في وصول التوابيت. ربما لأنه يوجد الكثير جدًّا منها. كان صوت النحيب يكاد يُسمع وسط زئير الحشود. اقترحت المرأة الممسكة بالميكروفون أن يغنوا جميعًا أريرانغ(4) لكسب بعض الوقت بينما ينتظرون التوابيت أن تَجهز.

«يا من هجرتَني هنا،

لن تقطعَ عشرة ري حتى قبل أن تؤلمك قدماك...».

حين انحسر صوت الغناء والبكاء الذي رافقه، قالت المرأة: «دعونا نصمت دقيقةً حدادًا على أرواح الراحلين».

تلاشى ضجيج ألوف البشر في لحظة كما لو أن أحدهم قد ضغط على زر «كتم الصوت» مخلِّفًا خلفه صمتًا بدا لك مهيبًا بشكل صادم. تنهض على قدميك لتلقي نظرة على دقيقة الصمت قبل أن تمشي صاعدًا السلالم نحو الأبواب الرئيسية. كان أحد البابين مفتوحًا. أخرجت كمامتك من جيب بنطالك ووضعتها.

لا فائدة من تلك الشموع المشتعلة

خطوت داخل قاعة الرياضة مقاومًا موجة الغثيان التي اجتاحتك بسبب الرائحة النتنة للمكان. كان اليوم في منتصفه لكن بدا وكأنّ المساء قد حلَّ داخل القاعة الخافتة الإضاءة. جُمِّعت التوابيت خلال مراسم التأبين بالفعل في نظام قرب

الباب، بينما ترقد جثث الاثنين وثلاثين شخصًا الذين لم يصل أيّ من أقاربهم بعد لوضعهم داخل توابيتهم، يغطيها قماشٌ أبيض أسفل النافذة الضخمة. إلى جانب رأس كل منها، يرتعش بصمت لهب شمعة موضوعة داخل زجاجة مشروبات فارغة.

تواصلَ السير عميقًا داخل القاعة نحو صفٍ من سبع جثث ترقد هناك على أحد جانبيها. بينما تُغطى الجثث الأخرى حتى عنقها فقط فتبدو كما لو كانت نائمة. كانت تلك الجثث السبع مغطاة بالكامل حتى قمة رأسها. تُكشَف وجوههم من حين إلى آخر فقط حين يأتي أحدهم بحثًا عن فتاة صغيرة أو طفل، فمنظرهم قاسٍ جدًا كي يُرى لأي سبب آخر.

حتى بين تلك الجثث، هناك تباين في درجة الفظاعة، أسوأها هي الجثة في الركن الأبعد من القاعة. حين وقعت عيناك عليها لأول مرة، كان لا يزال من الممكن التعرف عليها، فتاة صغيرة الجسم في أواخر المراهقة أو أوائل العشرينات. لكن الآن انتفخ جسمها المتحلل ليصبح بحجم جسم رجل بالغ. في كل مرة تزيح فيها القماش عن جسدها من أجل شخص أتى ليبحث عن ابنته أو أخته الصغرى، فإنَّ معدل التحلّل الرهيب يصعقك. تمزّق وجهها طعناتٌ مُمتدة من جبهتها حتى عينها اليسرى، ومن وجنتها حتى فكّها، ثم من ثديها الأيسر حتى

أسفل ذراعها. جروح بالغة يبرز اللحم من خلالها. الجانب الأيمن من جمجمتها مهشَّم تمامًا بفعل هراوة على الأرجح حيث يمكن رؤية نسيج الدماغ. كانت تلك الجراح المفتوحة أول ما تعفَّن، ثم تلتها الكدمات الكثيرة المنتشرة على جثتها المنسحقة. أظافر أصابع قدميها المطلية بطلاء أظافر شفّاف كانت في البداية سليمة، خالية من أي جُرح خارجي لكن مع مرور الوقت، تضخمت كدرنات الزنجبيل، واسودَّ لونها. تنّورتها المثنية المزخرفة برسوم قطرات مياه والتي كانت تصل حتى ساقيها، لم تعد الآن تغطي ركبتيها المتورّمتَيْن حتى.

تعود إلى المنضدة بجوار الباب لتجلب بعض الشموع الجديدة من الصندوق، ثم ترجع إلى الجثة عند الزاوية. تضيء فتيل الشمعة الجديدة بالجزء المشتعل المتبقّي من الشمعة القديمة المرتجف بجوارها. بمجرد أن تلتقط الشمعة الجديدة النار، تطفئ الشمعة المحتضرة وتزيلها من داخل الزجاجة وتثبّت الأخرى الجديدة مكانها حَذِرًا من أن تحرق نفسك.

لا تزال أصابعك تُمسِك بعقب الشمعة القديمة الذي لا يزال دافئًا، بينما تنحني إلى أسفل مقاومًا رائحة التعفّن الكريهة. تمعن النظر في داخل لهب الشمعة الجديدة. ترفرف حوافّها الشفافة في حركة ثابتة، تحرق -كما يفترض بها- رائحة ذلك

الموت العالقة في الحجرة كغيمة سوداء. ثمة شيء فاتن في التوهّج البرتقالي في مركز اللهب، حرارته جلية للعين. تمعن النظر أكثر، وتركز بصرك على قلب اللهب الضئيل المخضَّب بالأزرق الملامس للفتيل، شكله المتمايل يذكِّرك بقلبٍ أو ربما ببذرة ثمرة تفاح.

تستقيم بظهرك عاجزًا عن تحمّل الرائحة لوقت أطول. تنظر حولك داخل القاعة المعتمة. تتوقّف نظراتك طويلًا أمام كل شمعة يتمايل لهبها بجانب جثة. تشعر بأنها تراقبك كما لو كانت حدقات عين ساكنة.

فجأة يخطر ببالك أن تتساءل: حين يموت الجسد، ماذا يحدث للروح؟ إلى متى تبقى الروح تحوم بجوار مسكنها السابق؟

تلقي نظرة أخيرة سريعة على المكان لتتأكّد من عدم وجود شموع أخرى تحتاج إلى تغيير ثم تمشي صوب الباب.
حين ينظر شخص على قيد الحياة إلى شخص ميت، هل من الممكن أن تكون روحه ترفرف هناك أيضًا إلى جوار جسده، تنظر إلى أسفل نحو وجهه؟

قبل أن تخطو إلى الخارج، تلتفت وتنظر إلى الوراء من فوق كتفك. لا توجد أرواحٌ هنا. فقط جثث ترقد في صمت ورائحة تعفّن فظيعة.

في البداية، لم تكن الجثث ترقد في قاعة الرياضة بل في ممر قسم الشكاوى بمبنى المقاطعة. كانت هناك فتاتان تكبرانك بعدة سنوات، إحداهما ترتدي زيًّا مدرسيًّا بياقة عريضة، والأخرى ترتدي ملابس عادية. حدّقت نحوهما ببلاهة، وقد نسيت للحظة سبب قدومك إلى هناك، بينما تقوم الفتاتان بمسح الوجوه الملطّخة بالدم بقطعة قماش مبلّلة وتبذلان قصارى جهدهما لتعديل وضعية الأذرع المتيبسة كي تجبراها على الرقود بجوار جثثها.

«هل أستطيع مساعدتك؟»، سألتك الفتاة ذو الزيِّ المدرسيّ، وهي تُنزل كمّامتها أسفل فمها وتلتفت لتواجهك. كانت عيناها المستديرتان أجمل ملامحها رغم أنهما بارزتان قليلًا. شعرها منقسم إلى ضفيرتين، تهرب منهما كتلة من شعيرات مُجعّدة. خصلات من شعرها المبلّل بالعرق ملتصقة بجبهتها وصدغيها.

« أبحث عن صديق». قلت وأنت ترفع إحدى يديك لتغطي بها أنفك، غير معتاد على رائحة الدم.

«هل اتفقتما على اللقاء هنا؟».

« لا، هو واحد من هؤلاء...».

«أرى ذلك. يمكنك أن تقترب وتلقي نظرة إذا رغبت في ذلك».

تفحّص بالترتيب وجوه نحو عشرين جثة ترقد أمام جدار الممر. كان عليك أن تنظر عن كثب إذا أردت أن تكون متأكِّدًا. سرعان ما شعرت عيناك بالإجهاد فكان عليك أن تطرف باستمرار كي تستعيد قدرتك على التركيز.

«ليس هنا؟»، سألتك الفتاة الأخرى وهي تعتدل في وقفتها. كانت أكمام قميصها الأخضر الفاتح مطوية حتى مرفقيها. خمَّنت أنها في عمر مشابه للفتاة بزيّ المدرسة. لكن رؤية وجهها من دون الكمّامة جعلك ترجِّح أنها أكبر، ربما في

العشرين من عمرها. كانت بشرتها شاحبة إلى حد ما، وعنقها نحيلًا ودقيقًا. النظرة في عينيها فقط كانت صارمة وقوية. كان صوتها واضحًا.

«لا».

«بحثت في مشرحة مستشفى جيونام، وفي مشرحة مستشفى الصليب الأحمر؟

«نعم. لم أجد أي شيء هناك».

«ماذا عن والدَي صديقك؟».

«أمه متوفّية، وأبوه يعمل هذه الأيام في دايجون. صديقي وأخته الكبرى يعيشان في حجرة المبنى الملحق ببيتنا».

«لا يزال من غير المسموح إجراء مكالمات المسافات الطويلة.

«لا، لقد حاولت عدة مرات، وفشلت».
«حسنًا، ماذا عن أخت صديقك؟».

«لم تعد إلى البيت منذ يوم الأحد. أتيت إلى هنا بحثًا عنها أيضًا. أخبرنا أحد جيراننا أنه شاهد صديقي يُصاب بالأمس أثناء إطلاق الجنود للرصاص».

«ربما جُرِح فقط، وأُدخِل إلى المستشفى؟»، تدخّلت الفتاة بزي المدرسة في الحديث من دون أن تنظر إلى أعلى.

هززتَ رأسك.

«في تلك الحالة، كان سيجد طريقة للاتصال بنا. كان ليعرف أننا قلقون عليه».

«عد إلى هنا غدًا، وفي الأيام القليلة التالية»، قالت الفتاة ذات القميص الأخضر الفاتح. «من المفترض إحضار كل

الموتى إلى هنا من الآن فصاعدًا فهم يقولون إنه لم يعد هناك مكان في المشارح».

مسحت الفتاة بزي المدرسة وجه رجل شاب مزَّقت حربة حنجرته وبرزت لهاة حلقه الحمراء إلى الخارج. مسحت بيدها فوق عينيه المحدِّقتين لتغلقهما ثم نقعت القماشة في دلو من الماء وعصرتها بقوة. المياه التي تصببت منها، وتناثرت خارج الدلو كانت داكنة بالدم. نهضت الفتاة الأخرى بالقميص الأخضر.

«ما رأيك في مساعدتنا إذا كان لديك وقتٌ؟»، سألَتْك. «اليوم فقط. لا نمتلك عددًا كافيًا من الأشخاص. الأمر ليس صعبًا. كل ما عليك فعله هو تقطيع القماش هناك واستخدام هذه القطع لتغطية الجثث. وحين يأتي أحدهم للبحث عن صديق كما فعلتَ أنت، تزيح قطع القماش عن الجثث. الوجوه مصابة بشدّة لذا سيحتاجون إلى إلقاء نظرة جيدة على الجثث والثياب التي يرتدونها كي يقرروا إذا كانت للشخص الذي يعتقدون أنها تعود إليه أم لا».

***

منذ ذلك اليوم أصبحت جزءًا من الفريق. أون سوك -كما حدست- في السنة الثالثة من المدرسة الثانوية. بينما سيون جو، المرأة ذات القميص الأخضر، فعاملة ماكينة في متجر خياطة ملابس في شارع التسوّق الرئيسي في المدينة، وقد أصبحت بلا عمل حين قرّر صاحب المتجر، هو وابنه الذي يدرس في إحدى الجامعات هنا، أن يرحلا عن المدينة، ويمكثان عند قريب لهما خارجها بسبب الحوادث.

كانت كل من أون سوك وسيون جو قد ذهبت للتبرّع بالدم في مستشفى جامعة جيونام بعد أن سمعتا نداءً يُذاع في الشارع، يخبرُ الناس بأنَّ الكثير من المصابين يموتون بسبب فقدان الدم. هناك، علمتا أن مبنى المقاطعة الذي أصبح يُدار بواسطة مدنيين، تنقصه أيادٍ مُساعِدة، فقررتا فورًا أن تضطلعا بمهمة التعامل مع الجثث.

في حجرة الفصل حيث المقاعد مرتّبة بحسب الطول من الأقصر إلى الأطول، كنتَ دائمًا في الصف الأول -أي أنك كنتَ الأقصر-. لكن منذ مارس الماضي حين بدأتَ سنتك الثالثة في المدرسة الإعدادية، أخذت ملامح البلوغ تظهر عليك، فبات صوتك منخفضًا قليلًا، وطرأت على طولك طفرة نمو معقولة. مع هذا، لا تزال تبدو أصغر من سنك. عمل جين سو يُبقيه في حجرة الاجتماعات أغلب الوقت. في أول مرة

رآك فيها، بدا مندهشًا. «أنت في السنة الأولى، أليس كذلك؟ لا مكان لك هنا». عيناه ذات الجفون العميقة والرموش الطويلة تكاد تكون أنثوية الطابع. أُغلِقت الجامعة التي كان يرتادها جين سو في سيول بشكل مؤقت لذا أتى إلى غوانغجو. «لا، أنا في السنة الثالثة، ولا مشكلة في عملي هنا».

ما قلته كان حقيقيًا لا تبجُّحَ فيه. فلا شيء صعب فعليًا في المهمات التي أوكلت إليك. لقد قامت سيون جو وأون سوك بمعظم العمل الشاق الذي كان يتضمّن تغطية ألواح مصنوعة برقائق الخشب أو الستايروفوم بالمشمَّع، ثم رفع الجثث فوق تلك الألواح. مسحتا أيضًا أعناق ووجوه الموتى بقماش، ومررتا مشطًا خلال الشعر المتشابك لتسويته قليلًا ثم لفَّتا الجثث بالمشمع في محاولة للحد من رائحة التعفّن. أثناء ذلك، كنت تدوِّن ملاحظاتٍ في مفكّرتك عن الجنس والسن التقريبي، ولون ونوع الثياب التي ترتديها ومواصفات الحذاء الخاصة بكل جثة، ثم في النهاية تمنحها رقمًا ليسهُلَ الوصولُ إليها لاحقًا. بعد ذلك، تقوم بتدوين الرقم نفسه على قصاصة ورق، وتثبّتها إلى صدر الجثة ثم تغطيها حتى عنقها بواحدة من تلك الأقمشة البيضاء. بعد أن تفرغ من كل هذا، تساعدك سيون جو وأون سوك في جرّ الجثث نحو الحائط.

يأتي جين سو الذي لا يبدو أنه يتوقّف عن الحركة أبدًا، بخطوات واسعة إليكَ عدة مرات في اليوم، كي ينقلَ البيانات التي سجلتَها في مفكرتك إلى ملصقات يقوم بوضعها على المدخل الرئيسي للمبنى. الكثير من الأشخاص الذين أتوا للبحث عن شخص معيَّن إما شاهدوا تلك الملصقات بأنفسهم أو سمعوا عنها من شخص آخر. حين يأتي الأهالي، تصحبهم إلى الجثة التي يشكّون أنها لذويهم ليروها. في حالات التعرف الإيجابي، تنسحب إلى الوراء مسافة كافية لتنتظر في صمت ريثما ينتهي البكاء والعويل. لا تتلقّى الجثث سوى رعاية خاطفة. وحين يُتعرَّف عليها، يولي الأهالي عناية خاصّة بها. يوقفون أي إفرازات من الأنوف أو الآذان بقطع من القطن، ويستبدلون ملابسها بأخرى نظيفة. بمجرد أن تُلَبَّس الجثثُ بأردية بسيطة وتُوضع داخل تابوت، تقع عليكَ مسؤولية الإشراف على نقلها من مبنى المقاطعة إلى قاعة الرياضة وتدوين ملاحظات بكل شيء في مفكرتك.

المرحلة الوحيدة في العملية برمّتها التي كنت لا تستطيع استيعاب ضرورتها، هي إنشاد النشيد الوطني، والذي كان يجري في مراسم تأبين غير رسمية مقتضبة تُقام من أجل الأسر الثكلى، بعد وضع جثث موتاهم بشكل رسمي داخل التوابيت. كذلك كان غريبًا أن ترى التايجوكجي(5)، العلم الوطني يُفرد فوق كل تابوت، ويُربط بسلسلة في مكانه بإحكام. لماذا تنشدون النشيد الوطني من أجل أشخاص قتلهم الجيش؟

لماذا نُغطي التوابيت بالتايجوكي؟ كما لو لم يكن الوطنُ نفسُه من قتلهم.

حين صرَّحت بحذر عن هذه الأفكار، جحظت عينا أون سوك المستديرتان.

«لكن جنرالات الجيش هم المتمرِّدون حقًّا. هم من استولوا على السلطة بشكل غير قانوني. لا بدَّ أنك رأيت ذلك أيضًا. مواطنون يُضربون ويُسحقون في وضح النهار بل ويُطلق عليهم الرصاص. الجنود العاديون كانوا ينفِّذون أوامر قادتهم. كيف تسمي هؤلاء «الوطن»؟

وجدتَ ردَّها محيّرًا كأنما أجابت عن سؤال مختلف تمامًا عن السؤال الذي أردتَ طرحه.

كان بعد ظهيرة ذلك اليوم سلسلة لا تتوقّف من حالات التعرف الإيجابية، وانتهى الأمر وقد أُقِيمت عدة مراسم تأبين مختلفة في الوقت نفسه في أماكن شتى بطول الممرّ. دوّى النشيد الوطني في المكان كصدًى لا نهائي، مقطع معيّن يتداخل مع آخر في الخلفيّة الثابتة لصوت النحيب. استمعتَ،

وأنت تكتم أنفاسك للتنافر الخفيّ الذي يصنعه تصادم المقاطع ذاك. كأنما هذا الإنصات قد يساعدك أخيرًا على فهم ما هو «الوطن» حقًّا.

***

في صباح اليوم التالي حملتَ والفتاتان العديد من الجثث الأكثر تعفّنًا إلى الفناء خلف مبنى المقاطعة. كانت تصل إليكم الكثير من الجثث الجديدة، ولم يكن هناك مساحة فائضة لتسجيتهم جميعًا في الداخل. أتى جين سو مهرولًا من حجرة الاجتماعات، نشيطًا كعادته، وطلب معرفة ماذا تخطِّطون لفعله إذا أمطرت السماء.

عبس، وهو يتفحّص الممر الضيق حيث تزاحمت أقدام الجثث في مقابل الجدار. فكت سيون جو رباط كمّامتها.

«المكان ضيِّق جدًّا هنا»، قالت. «من المستحيل أن يستوعب كل الجثث. من المحتمل أن يصل المزيد من الجثث في المساء، ماذا سنفعل حينها؟ ماذا عن قاعة الرياضة؟ هل يوجد حيِّز فيها؟».

ظهر أربعة رجال أرسلهم جين سو بعد أقل من ساعة. لا بد أنهم كانوا يقفون حرسًا في مكان ما، فقد كانت البنادق مثبتة إلى أكتافهم، ويضعون خوذات مزوَّدة بأقنعة فوق رؤوسهم، كانت شرطة مكافحة الشغب قد تركتها وراءها أثناء انسحابها. بينما ينقلون الجثث إلى داخل شاحنة، جمعتَ والشابتان ما تخلّف عن ذلك. تبِعْتَ الشاحنة حتى قاعة الرياضة. مشيت بتمهُّلٍ تحت أشعة شمس النهار المنعشة. أثناء عبورك أسفل أشجار الجنكة اليافعة، مددتَ يدك بآلية لتلامس الأغصان التي كان أكثرها انخفاضًا يمسُّ جبهتك.

قادت أون سوك الطريق. كانت أول من دخل إلى قاعة الرياضة. حين دخلتَ أنتَ، رأيتها وقد تسمّرت في مكانها من منظر التوابيت التي تملأ القاعة. القفازات القطنية التي تُمسك بها في يدَيْها مُلطخة ببقع دم سوداء. خطت سيون جو التي كانت في مؤخرة صف الداخلين، من حولك وربطت شعرها الذي يصل طوله حتى كتفيّها بمنديلِ قماش.

«لم أتخيل أنهم سيحضرون كل الجثث إلى هنا. حين أراهم جميعًا في مكان واحد هكذا! يا إلهي، هنالك الكثير جدًّا منها».

طُفتَ ببصرك من حولك ناظرًا إلى أسر الضحايا الذين كانوا يفترشون الأرض، وظهورهم ملتصقة ببعضها البعض عمليًا. وضعت كل عائلة صورة شخصية مؤطَّرة فوق توابيت ذويهم التي يحرسونها. ووُضِعت على جانبي رأس بعض الجثامين زجاجتا مشروب فانتا فارغتان. إحداهما تحوي بداخلها حفنةً من زهور بيضاء، والأخرى فيها شمعةً.

في ذلك المساء حين سألتَ جين سو إذا كان بإمكانه أن يجلب صندوقًا من الشمع، أومأ بحماسةٍ.

« بالطبع، شمع. سيساعد ذلك على التخلّص من الرائحة».

كلما أخبرتَ جين سو عن شيء تحتاجونه -سواء أكان قماشًا قطنيًّا أو توابيت خشبيّة، أو قصاصات ورق أو أعلام- كان يدوِّن ما تطلبه في مفكرته ثم يقوم بتوفيره خلال اليوم نفسه، وكأنه يُحضرها من العدم. جين سو أخبر سيون جو أنه يذهب كل صباح إمَّا إلى سوق داين أو يانغدونغ. وفي حالة عدم عثوره على مبتغاه هناك، كان يذهب، ويفتش في محال النجارة وصالات الجنائز، وعند تجار الأجواخ المنتشرة عبر المدينة. لا يزال الكثير من المال متبقّيًا من التبرّعات التي جمعها في الاجتماعات. وحين كان يقول إنه يُمثِّل مبنى

المقاطعة، كان الكثير من الناس يمنحونه تخفيضًا محترمًا على أي شيء يريده، بل وأحيانًا يتنازلون عن البدل بالكامل. لم يكن المال مشكلة أبدًا. لكن التوابيت بدأت تنفد من المدينة، لهذا كان عليهم جمع ما يلزمهم من ألواح الخشب. في هذه الأثناء تكون هناك دفعة جديدة من التوابيت تُجهَّز في معامل النجارة.

اليوم الذي وصل فيه جين سو، ومعه خمسة صناديق شمع، يحوي كلٌّ منها خمسين شمعة، وعلب كبريت، مشطتَ كل ركن وشق في المبنى لتجمع زجاجات المشروبات الفارغة التي تجدها، لتضع بداخلها الشمع. وقف أهالي الضحايا في صف عند المنضدة بجوار المدخل، بينما تقوم أنتَ بإشعال شمعةٍ لكلٍّ منهم، ووضعها في زجاجة فارغة. بعدها كانوا يحملون الزجاجات إلى حيث توابيت ذويهم ويثبتونها على الأرض إلى جانب رؤوسها. كان هناك عددٌ أكثر من كافٍ من الشمع كي يُوزَّع على كل الأهالي. وما فاضَ منه، وضعته إلى جوار الجثث المجهولة التي لم يُتعرَّف على هوية أصحابها بعد. توضع إلى جوار الأكفان التي لا يحرسها أحد.

***

كل صباح تُحضَر أكفانٌ جديدة إلى قاعة الرياضة حيث وُضِع مذبحٌ للتأبين الجماعي ولتقديم القرابين.

كان الوافدون الجدد في الصباح من جثامين الأشخاص الذين لفظوا أنفساهم الأخيرة أثناء خضوعهم للعلاج في المستشفى. حين جلبت أسرهم الأكفانَ، يدفعونها على عربات يدٍ، هل كانت حبّات العرق أم قطرات الدموع ما جعلت وجوههم لامعة؟ كان عليكَ أن تحرِّك التوابيت الموجودة بالفعل مقرِّبًا إياها من بعضها البعض من أجل توفير مساحة للجثامين الجديدة.

أما في المساء فجثث الموتى التي تُحضر فكانت لأولئك الذين أصيبوا بالرصاص في الضواحي في مواجهات مع الجيش. إمَّا أنهم قُتلوا في لحظتها برصاص الجنود، أو لفظوا أنفاسهم الأخيرة أثناء نقلهم إلى المستشفى. الكثير منهم لم يمضِ وقتٌ طويلٌ على موتهم، وكانوا يبدون أحياء بشكل غريب.
كانت أون سوك كثيرًا ما تضطرّ للتوقّف عما تفعله، والركض خارج القاعة لتتقيّأ حين تحاول حشر كتلة لزجة من أمعاء تبرز خارج الجسم إلى داخل تجويف البطن الممزّقة. في المقابل كانت سيون جو تعاني بشكل متكرر من نزيفٍ أنفيٍّ. كان يمكنك أن تراها ترفع رأسها إلى الوراء بين الفينة والأخرى، وتضغط كِمامتها فوق أنفها.

مقارنةً بما تقوم به هاتان الشابتان، كان عملك بالكاد مُرهِقًا. فتمامًا كما كنت تفعل في مبنى المقاطعة، كنت تدوّن في مفكرتك التاريخ والوقت وشكل الثياب والملامح الجسدية للجثث التي تُحضَر إلى قاعة الرياضة. القماش قُطِّع إلى أحجام مناسبة، وكل قصاصة ورق مُعلّقة بمشبك خشبي على أهبة الاستعداد لتثبت مباشرة على الجثة بمجرّد أن تدوِّن البيانات عليها. مع تزايد الحاجة لأماكن جديدة، دفعت الجثث المجهولة التي لم يُتعرف على هويتها لتقرّبها من بعضها أولًا ثم أزحتَ التوابيت. في الليالي التي يكون فيها تدفّق الوافدين الجدد كبيرًا بشكل استثنائي، لم يكن هناك وقت ولا حيّز لإعادة تنظيم الترتيب الموجود بدقة، لذا كان عليكم حشر التوابيت معًا بأي طريقة عشوائية، حافة أحدها تلامس حافة الآخر. في تلك الليلة حين نظرتَ حولك إلى كل هذه الجثث المكتظة داخل قاعة الرياضة، فكّرتَ كم بدا المشهد أشبه بمؤتمر، تجمعٍ هائلٍ من جثث احتشدت هنا بترتيبٍ مسبقٍ، ومهمّتهاً الوحيدةَ هي إنتاج رائحة التعفّن الفظيعة تلك. مشيتَ بسرعة بين هذا التكتل الصامت، وقد وضعت مفكّرتك تحت ذراعك.

***

يبدو أنها سوف تُمطر بغزارة حقًّا، تفكّر، وأنت تأخذ نفسًا عميقًا بينما تخطو خارج العالم الشفقي المعتم لقاعة الرياضة. تتّجه نحو الفناء الخلفي راغبًا في استنشاق الهواء النقي، لكنك تتوقّف أمام زاوية المبنى قلقًا من الشرود بعيدًا جدًا عن

موقعك. الصوت القادم من الميكرفون عند المنصّة الآن هو صوت رجل شاب.

« لا يمكننا أن نسلّم أسلحتنا بهذه البساطة، ونستسلم من دون شروط. عليهم أولًا أن يعيدوا إلينا جثامين موتانا. عليهم أيضًا أن يطلقوا سراح المئات الذين ألقوهم في غياهب السجون. بل علينا أن نطالب بأكثر من ذلك، كي نستردّ كرامتنا في عيون بقية البلاد. حينها فقط لن يكون لدينا أي سبب كيلا نعيد إليهم أسلحتهم، أليس كذلك؟ ما قولكم جميعًا في هذا؟».

تستشعر بأن الهتافات والتصفيقات التي تبعت ذلك، تصدر عن عدد أقلّ من الناس مقارنة بذي قبل. تتذكّر الحشود التي اجتمعت هنا في اليوم التالي لانسحاب الجيش. وقتها، كان هناك الكثيرون جدًّا من الناس إلى درجة أن الزائدين على المكان بالأسفل اكتظوا فوق سطح مبنى المقاطعة وبرج الساعة. امتلأت الشوارع بالبشر كلوح البادوك(6) مع منع سير أي مركبة. لم تكن ثمة مساحة لا تشغلها قدمُ إنسانٍ ما عدا تلك التي تحتلها المباني. سرى تيار هائل من البشر، يفوق المائة ألف، عبر الشوارع في كتلة واحدة كالحركة المتموّجة لأمواج عاتية. التحمت أصواتهم معًا أثناء غناء النشيد الوطني. يرتفع صوت الإنشاد المتضخِّم مثل برج شاهق، كل صوت

يمثّل طابقًا فيه. بدا صوت تصفيقهم أشبه بآلاف الألعاب النارية المنطلقة في تتابع.

في صباح الأمس استمعت إلى جين سو وسيون جو يتناقشان في ما سيحدث. قال جين سو بجدية أنَّ ثمة إشاعة تنتشر كالنار في الهشيم بأنَّ الجنود حين يعاودون دخول المدينة، سيقتلون كل من تجمّع في الشوارع، وهكذا يخمدون المظاهرات بسرعة.

«نحتاج إلى المزيد منا هنا -وليس أقل- لو أردنا منع الجيش من اجتياح المدينة مرة أخرى. كل يوم ثمة المزيد من الجثث والأكفان. بدأ الناس يفكِّرون مرتين قبل أن يغامروا بالخروج من بيوتهم».

«ألم تُرق الدماء بما فيه الكفاية؟! كيف يمكننا التغاضي بهذه البساطة عن كل تلك الدماء؟ أرواح الراحلون تراقبنا. عيونهم مفتوحة على اتساعها».

تهدَّج صوت الرجل الذي يقود مراسم التأبين في نهاية كلمته.

تكرار تلك الكلمة -«دم»-، تولّد شعورًا خانقًا في صدرك. تفتح فمك على آخره، وتأخذ نفسًا عميقًا آخر.
كيف لروح بلا جسد أن تراقبنا؟!

تتذكّر موت جدّتك لأمّك في الشتاء الماضي. ما بدأ كنوبة برد خفيفة، سرعان ما استحال إلى التهاب رئوي، أُدخِلت جدتُك على أثره إلى المستشفى. كانت جدتك قد قضت أسبوعين هناك حين ذهبت مع أمك لزيارتها بعد ظهيرة يوم أحد. كنت وقتها في إجازة بعد اجتيازك امتحانات منتصف العام، لكن تدهورت حالة جدتك فجأة من دون سابق إنذار. اتصلت أمك بأخيها وأخبرته بأن يأتي في أسرع وقت ممكن لكنه كان لا يزال عالقًا في زحمة المرور حين لفظت المرأة العجوز نفَسَها الأخير.

زيارات الطفولة التي لم تكن تخلو أبدًا من «اتبعني»، بينما تقود المرأة العجوز بظهرها المحني على شكل حرف ¬ ، الطريق إلى الحجرة المظلمة التي كانت تستخدمها مستودعًا. حينها تعرف أنها ستفتح باب خزانة الطعام، وتجلب الكعك الذي تحتفظ به هناك لتقدِّمه قرابين في الذكرى السنوية لوفاة قريبٍ. معجَّنات مصنوعة من الزيت والعسل، وكعك مكعَّب الشكل مكوَّن من أرز مطحون دبق. تأخذ قطعة من معجّنات

العسل بالزيت بينما تعلو وجهك ابتسامة خبث طفولية. تبادلك جدتك الابتسام، فتبرز التجعيدات الغائرة حول عينيها. كان موتها هادئًا وعابرًا تمامًا كما كانت في حياتها.

بدا لك كأن شيئًا ما يرفرف خارجًا من فمها، كأنَّ طيرًا يحلِّق هاربًا من عينيها المغلقتين فوق قناع الأوكسجين. وقفت هناك تمعن النظر في ذهول إلى وجهها المجعَّد الذي بات فجأة بين لحظة وانقضائها وجه جثة، وتساءلت: أين اختفى ذلك الشيء المجنَّح المرتعش؟

ماذا عن تلك الجثث الراقدة الآن في قاعة الرياضة. هل هجرت أرواحها أجسادها أيضًا، وحلّقت مبتعدة مثل الطير؟ إلى أين يمكن أن تكون قد ارتحلت؟ لم يكن ذلك بالتأكيد مكان خرافيّ مثل الجنة أو الجحيم اللذين سمعت عنهما في تلك المرّة الوحيدة التي ذهبت فيها إلى قداس الأحد مع أصدقائك تحت إغراء فكرة الحصول على بيض شوكولاتة عيد الفصح. لم تقتنع أبدًا بما تحكيه الدراما التاريخية في التلفاز حيث أرواح الموتى التي يفترض أن تكون مخيفة، قد تلفّعت بالأبيض، وراحت تهيم وسط ضباب غامض، وشعورهم المشعّثة دليل على راحة قلقة.

تشعر بقطرات المطر ترتطم برأسك. حين نظرت إلى أعلى، اصطدمت قطرات المطر بجبهتك وخدَّيْك. فيما بدا كلحظة، اتّحدت فيها قطرات المطر واندمجت في خيوط سميكة، تهاطلت بسرعة رهيبة.

هتف الرجل الممسك بالميكروفون عند المنصة، «رجاءً، اجلسوا جميعًا فلم تنتهِ مراسم التأبين بعد. هذا المطر دموعٌ تذرفها أرواح الراحلين».

زحف ماء المطر البارد إلى داخل ياقة ردائك، وبلَّل سترتك التحتية، وهو ينسلّ إلى الأسفل فوق ظهرك.

دموعُ الأرواح باردةٌ إذًا.

سرت قشعريرة في ساعدك، وأنت تسرع للاحتماء أسفل الإفريز الممتد فوق الباب الرئيسي. يضرب المطر المنهمر الشجر أمام مبنى المقاطعة بقوة كالسوط. جلستَ فوق أعلى درجة في السلالم، الدرجة الأقرب إلى الباب، وعدت بذاكرتك إلى دروس الأحياء. تبدو الآن مذاكرتك لدرس تنفّس النباتات خلال السنة الابتدائية الخامسة حين كانت أشعة الشمس دائمًا

آخذة في الزوال كشيء حدث في عالم آخر. درستَ أن نفسًا واحدًا تستنشقه الأشجار في اليوم يكفي كي تبقى على قيد الحياة. حين تشرق الشمس، تمتص الأشجار سيلًا طويلًا ووافرًا من أشعتها. وحين تغرب الشمس، تزفر الأشجار تيارًا هائلًا من ثاني أوكسيد الكربون. تلك الأشجار التي تقف هناك وتحبس أنفاسًا طويلة بداخلها في صبر لا يتزعزع، تجد نفسها مضطرّة للانحناء تحت هجمات المطر.

لو استمر العالم الآخر، لكنت قد أنهيت الآن آخر أسبوع في امتحانات منتصف العام. وبما أن اليوم يومُ أحد ولم تعد هناك امتحانات للاستعداد لها، كنت لتنام حتى وقت متأخّر قبل أن تستيقظ وتخرج للعب كرة الريشة في فناء البيت مع جونغ داي. زمن ذلك العالم الآخر لم يعد يبدو حقيقيًّا بالنسبة إليك، تمامًا كإحساسك بالأسبوع المنصرم.

حدث ذلك يوم الأحد الماضي حين خرجتَ بمفردك لتشتري أوراق مراجعة من متجر كتب أمام مدرستك. أرعبك مرأى الجنود المسلّحين الذين بدوا وكأنهم قد تجسّدوا من الفراغ، فسلكت زقاقًا يقود إلى ضفّة النهر. كان ثمة زوجان يسيران في الاتجاه المعاكس لك، رجل يرتدي بدلة ويمسك نسخة من الإنجيل وكتاب تراتيل دينية، وامرأة ترتدي فستانًا أزرق داكنًا. شيء في الطريقة التي يتكلّمان بها جعلتك تخمِّن أنهما

عروسان جديدان. تعالى صياح خافت عدة مرات من مقدّمة الطريق، واندفع ثلاثة جنود مدجَّجين بالأسلحة والهراوات هابطين قمة تل، وطوَّقوا الزوجين الشابين. بدا أنهم كانوا يتقفّون أثر شخص ما حين دخلوا هذا الزقاق بالخطأ.

«ما المشكلة؟ نحن في طريقنا إلى الكنيسة فقط...».

قبل أن ينهي الرجل ذو السترة كلامه، لمحت ذراع شخص... لقد رأيت شيئًا لم تعتقد أن بإمكانك رؤيته أبدًا. كان الأمر يفوق قدرتك على الاحتمال - ذلك الذي رأيته يحدث لذراع الرجل ويده وظهره ورجله-. ذلك الذي رأيته يحدث لإنسان.

«ساعدوني» صاح الرجل بصوت متحشرج.

لم يتوقّفوا عن الانهيال على جسده بهراواتهم حتى خمدت حركة قدميه المرتعشتين أخيرًا. وقفت المرأة في مكانها وصرخت بهستيريا بينما كان يجدر بها التراجع للوراء. رأيتَهم يشدّونها من شعرها لكنك لا تعرف ما حدث بعد ذلك. كنتَ منشغلًا جدًّا بالزحف بجسدك المرتعش إلى الشارع التالي

حيث كانت تتطوّر حوادث مشهد آخر يتجاوز كل ما خبرته في الحياة حتى الآن.

***

رفعتَ رأسك مفزوعًا، وحدّقتَ ببلاهة إلى اليد التي ربَّتت على كتفك اليُمنى. يد طويلة ونحيلة بدت كأنها ملفوفة بقصاصات قطن باردة، كطيفٍ رقيقٍ.

«دونغ هو».

انحنت أون سوك المبلّلة بالماء من ضفائر شعرها حتى حاشية بنطلونها الجينز برأسها نحوك، وضحِكت.

بوجه أبيض كملاءة الفراش، ضحكتَ ضحكة مصطنعة ردًّا عليها.

«أيها الأبله، لماذا سيحتاج شبحٌ إلى يدين؟»، قبل أن تستطرد بنبرة أكثر جدّية، «كانت نيتي العودة أبكر من هذا. آسفه أنك وجدت نفسك عالقًا في هذا المطر. خشيت إذا

غادرت، أن يبدأ الآخرون بالمغادرة أيضًا. هل حدث شيء في غيابي؟».

هززتَ رأسك. «لم يأت أحد بحثًا عن أي شخص. ولا حتى عابرو سبيل».

«الأمر نفسه في مراسم التأبين. لم يأتِ الكثيرون من الناس».

جلست أون سوك القرفصاء إلى جوارك، وسحبت كعكة اسفنجية من جيب معطفها. خشخشت اللفافة. ثم أخرجت قنينة لبن رائب صغيرة.

«كانت العمَّات في الكنيسة يوزعنّ تلك الأطعمة لذا فكّرت في إحضار البعض منها».

لم تدرك أبدًا أنك جائع حتى تلك اللحظة. تنزع الآن اللفافة البلاستيكية، وتحشر الكعكة الإسفنجية داخل فمك.
أزالت أون سوك الغطاء عن اللبن الرائب وناولته إليك.

«سأمكث هنا لبعض الوقت. يمكنك الذهاب إلى بيتك وتبديل ثيابك. لو كان يفكّر أحدهم في القدوم، لكان قد أتى ورحل بالفعل».

«لا، اذهبي أنتِ. بالكاد تبللتُ». قلتَ مغمغمًا بالكلمات من خلال فمك المحشو بالكعكة الإسفنجية. ابتلعت الكعكة ثم تجرّعت اللبن الرائب.

«لا يوجد الكثير من وسائل الراحة حقًّا في مبنى المقاطعة، كما تعرف»، قالت أون سوك برقّة. «وكل هذا العمل الشاق الذي تقوم به...».

يتورّد خداك خجلًا. تعرف أن رائحة عرق نتنة تفوح منك. كلما ذهبت كي تغسل يديك في حمام المبنى الملحق الضيق، كنت تحاول دائمًا أن تغسل شعرك بسرعة أيضًا. يبدو أن رائحة التعفّن قد تغلغلت إلى داخل جلدك، لذا أثناء الليل كنت ترشّ مياهًا باردة على جسمك كلّه، بينما تصطك أسنانك وتسعل سعالًا عنيفًا. لكن من نظرات أون سوك، يبدو أن ذلك لم يكن ذا نفعٍ على الإطلاق.

«سمعت في الاجتماع أن الجيش سيعاود الدخول إلى المدينة الليلة. إذا عدتَ إلى البيت، فابقَ هناك. لا تحاول أن تعود إلى هنا مرة أخرى الليلة».

شدَّت أون سوك كتفيها إلى أعلى، وخصلات الشعر التي هربت من ضفائرها تلتصق بمؤخرة عنقها. راقبتَ في صمت أصابعها تسوّي شعرها المبلول وتنفض كنزتها. وجهها الريّان الذي كان يحمل مسحة من جاذبية لطيفة أصبح هزيلًا معدمًا في غضون أيام قليلة. ثبّتَّ نظرك على عينيها اللتين باتتا خاويتين، تحيط بهما الهالات السوداء، وفكّرت:

أين يكمن ذلك الطائر داخل الجسد بينما الإنسان لا يزال على قيد الحياة؟ في ذلك الجبين المجعَّد! أم يحوم كالهالة فوق قمة الرأس، أم يعشّش في إحدى حجرات القلب؟

تحشر آخر قطعة من الكعكة داخل فمك، وتتظاهر أنك لم تسمع ما قالته أون سوك للتوّ عن الجيش.

«ما المشكلة في شيء من العَرَق؟»، تقول. « مَنْ بلَّلهم المطر هم من ينبغي عليهم الذهاب وتبديل ثيابهم».

أخرجت أون سوك قنينة لبن رائب أخرى من جيبها.

«من المفترض أن هذه من أجل سيون جو. خذ وقتك في شرب هذه القنينة. لا تتجرّعها دفعةً واحدة. لن يخطفها أحد من فمك!».

أخذتها منها باشتهاء ونزعت الغطاء بأظافرك، وأنت تبتسم ابتسامة عريضة.

***

على خلاف أون سوك، لم تكن سيون جو من النوعية التي قد تتسلّل خفية وتضع يدها على كتفك في هدوء. بينما تمشي باتجاهك ولا يزال يفصلها عنك بضعة أمتار، نادت على اسمك بصوتها القويّ الواضح.

«لم يأتِ أحدٌ؟»، سألتك حينما باتت قريبة منك بشكل يعفيها من الصياح. « أأنت هنا بمفردك؟» ارتمت بجسدها فوق السلالم جالسة بجوارك قبل أن تقذف كيمبابًا(7) ملفوفًا بلفافة من القصدير باتجاهك. تلتقط قطعةً بين أصبعيك وتلقيها في فمك بينما تحدّق سيون جو نحو المطر المتضائل تدريجيًا.

«ما زلت لم تعثر على صديقك إذًا؟»، طرحت السؤال عليك من دون مقدّمات. تحتاج إلى دقيقة كي تهز رأسك بـ«لا» كإجابة.

«حسنًا»، واصلت باندفاع، «بالنظر إلى حظك العاثر حتى الآن، ربما دفنه الجنود في مكان ما». تدعك صدرك إذ تبدو قطعة الأرزّ الملفوفة بأعشاب البحر صعبة البلع فجأة. «كنتَ يومها هناك أيضًا. لقد رأيت الجنود يحملون جثث من سقطوا بالرصاص بالقرب منهم، وينقلونها إلى شاحنة».

متوَقِّعًا الكلمات التي قد تندفع من فمها بعد ذلك، قاطعتها: «أنت مبلّلة تمامًا»، قلتَ. « عليك العودة إلى بيتك وتبديل ثيابك. لقد ذهبت أون سوك بالفعل كي تفعل ذلك».

«من أجل ماذا؟! بمجرد أن نبدأ العمل من جديد هذا المساء، سنتصبّب عرقًا».

أخذت سيون جو في طيّ لفافة القصدير حتى أصبحت بحجم أصبع صغير. قبضَتْ عليها في كفِّها وهي تراقب هطول المطر. مظهرها الخارجي يجعلها تبدو متماسكة وحازمة. خطر سؤال على بالك.

هل سيُقتَل حقًا من سيبقى هنا هذه الليلة؟

تردَّدتَ وفكرتَ أنه من الأفضل ألا تصرِّح بهذه الأفكار علنًا. «لو كان هذا هو الاحتمال الأكبر لما سوف يحدث، فمن المؤكد أن عليهم جميعًا إخلاء مبنى المقاطعة والذهاب للاختباء في منازلهم. لماذا سيرحل البعض إذًا ويبقى البعض الآخر؟».

جيون سو، التي يبدو عليها الإنهاك، رمت اللفافة في اتجاه بستان الزهور ثم تفحَّصَت يدها الخالية قبل أن تدعك بقوة عينيها وخدَّيْها وجبهتها وحتى أذنيها.

«لا أستطيع الإبقاء على عينيَّ مفتوحتين. لذا ربما سأكتفي بالذهاب إلى المبنى الملحق، واعثر لي على مكان مريح فوق إحدى الأرائك هناك، وآخذ قيلولة سريعة. يمكنني ترك ثيابي تجفّ أثناء ذلك». ضحكت كاشفة عن أسنانها الأمامية المتينة. «آسفة، سأتركك وحيدًا مرة أخرى يا دونغ هو المسكين!».

***

ربما كانت سيون جو محقّة. ربما أخذ الجنود جثة جونغ داي بعيدًا، ودفنوها في مكان ما. على الجانب الآخر، أمكَ لا تزال مؤمنة بأن جونغ داي قد أُخِذ ليتلقى العلاج في مستشفى ما، وأنّ السبب الوحيد لعدم اتصاله بك حتى الآن هو أنه لم يستعد وعيه بعد.

جاءت أمك بصحبة أخيك الأوسط إلى هنا بعد ظهر الأمس لتقنعك بالعودة إلى البيت. حين أصررت على عدم الرجوع إلى البيت حتى تعثر على جونغ داي، قالت لك: «عليك تفقّد غرف العناية المركّزة لا المكوث هنا. دعنا نطوف معًا على جميع المستشفيات». تشبّثت بكمِّ ردائك. «ألا تعرف مدى صدمتي حين قال الناس لي إنهم قد شاهدوك هنا؟ يا رحمتاه، انظر إلى كل هذه الجثث. ألست مرعوبًا؟».

«الجنود هم المخيفون حقًا». قلت بنصف ابتسامة. « ما المخيف في الموتى؟!».

ابيضَّ وجه أخيك الأوسط شحوبًا. أخوك الطالب المتفوّق الذي قضى طفولته يذاكر كأنما لا شيء آخر في الحياة، فقط كي يرتكب الخطأ تلو الآخر في اختبارات الالتحاق بالجامعة. كان في الوقت الحالي في محاولته الثالثة لدخول الامتحان. صار يشبه أباك بوجهه العريض ولحيته الكثيفة التي تجعله يبدو أكبر من سنيّ عمره التسع عشرة. على خلاف ذلك، كان أخوك الأكبر الموظّف الحكومي من الدرجة التاسعة في سيول، ضعيف البنية-يمكنك حتى أن تطلق عليه وصف «جميل»-. حين ينزل إلى غوانغجو في الإجازات، وتكونون أنتم الثلاثة في المكان نفسه، فإن أخاك الأوسط هو من يظنّ الجميع بالخطأ أنه الأخ الأكبر.
«إنهم يرسلون رجال مظلات من قيادة القوات الخاصة مزوَّدين بالدبابات والبنادق الآلية. هل تعتقد حقًا بأنهم يرتجفون خوفًا من التفكير في حفنة من المدنيين متسلّحين ببنادق خردة عتيقة لم تُستخدَم منذ الحرب؟ هل تظن أن ذلك هو سبب عدم دخولهم المدينة مرة أخرى؟ هم فقط ينتظرون في هدوء ريثما تصلهم الأوامر من القيادة العليا. لو كنتَ هنا حين يعودوا، فسوف تُقتل بلا ريب».

تأخذ خطوة إلى الوراء قلقًا من أن يضربك على جانب رأسك كعادته حين يريد إقناعك بشيء.

«ما السبب الذي سيدعوهم إلى قتلي؟»، قلتَ. «كل ما أقوم به هو المساعدة في بعض الأمور فقط. وهذا كل شيء». دفعت ذراعيه بعيدًا، وحرّرت نفسك من قبضة أمك المطبقة عليك. «لا تقلقوا، سأنتهي من تقديم المساعدة هنا ثم سأعود إلى البيت بمجرد عثوري على جونغ داي».

ركضتَ إلى داخل قاعة الرياضة، وأنت تلوِّح لهما بيدك من فوق كتفك بارتباك.

***

السماء التي كانت تصفو تدريجيًا مع توقّف المطر، أشرقت فجأة بنور ساطع. تنهض وتدور حول الجانب الأيمن من المبنى. الميدان فارغٌ عمليًا الآن بعد أن تفرّقت الحشود. لم يتبقَ سوى أسر الضحايا فقط، أشكال بشرية متشابهة إلى حدٍّ بعيدٍ متجمعةً قرب النافورة في مجموعات من فردين أو ثلاثة. أخذ أفراد أسر الضحايا مع حفنة من الرجال ينقلون التوابيت من أسفل المنصَّة إلى ظهر شاحنة. ضيَّقت عينيك محاولًا أن

ترى الوجوه. ارتعش جفناك تحت تأثير الصفعة القاسية التي تلقّتها عيناك من الضوء شديد السطوع. سرَت تشنجات في عضلات خديك.

لم تكن هناك ذرّة من حقيقة في ما قلته لأون سوك وسيون جو في ذلك اليوم الأول في مبنى المقاطعة.

في ذلك الميدان نفسه الذي تنتظر إليه الآن، حيث تجمّعت في ذلك اليوم جحافل من الناس للتظاهر بدءًا بكبار السن بقبّعات الفيدورا القديمة الطراز مرورًا بالصبية في عمر الثانية عشة والنساء بمظلاتهنّ الملوَّنة، وحملوا جثتَيّ الرجلين اللذين قُتِلا برصاص الجيش أمام محطة القطار إلى داخل عربة يد، ودفعوها نحو الصفوف الأمامية للمظاهرة. حينها لم يكن أحد جيرانكم من لمح جونغ داي آخر مرة بل كان أنتَ. ولم يكن الأمر كأنك لمحته فقط من بعيد كما صوّرت لهما. لقد كنت قريبًا بقدرٍ كافٍ كي ترى الرصاصة ترتطم به وتخترق جنبه.

في البداية، كان كل منكما يمسك بيد الآخر وتشقّان طريقكما نحو المقدمة مثارَيْن. ثم دوى صوت الطلق الناري الذي يصمُّ الآذان عبر الظهيرة، فأخذ الجميع في التصادم والتدافع في محاولة للفرار عائدين من حيث أتوا. هتف أحدهم: « لا

تخافوا، إنه مجرّد رصاص طائش». حاولت مجموعة الدفع باتجاه المقدّمة من جديد إذ انفلتت يد جونغ داي من يدك وسط هذه الفوضى. انطلق سيل آخر من الطلقات التي تصمُّ الآذان، وسقط جونغ داي على جنبه فوق الأرض. شحذت قدميك، وركضت هاربًا. ضغطتَ بجسدك على جدار متجر أجهزة إلكترونية بجوار بابه المغلق. كان هناك ثلاثة رجال يكبرونك سنًّا يقفون إلى جوارك. ركض نحوكم رجلٌ رابع، بدا أنه جزءٌ من مجموعتهم إذ ينفجر رشاشٌ من الدم من كتفه فجأة فيسقط على وجهه.

«يا إلهي! إنهم متمركزون فوق الأسطح»، تمتم الرجل بجوارك. «لقد أصابوا يون جو من على السطح».

دوى صوتُ سيلٍ آخر من الأعيرة النارية منطلقًا من سطح البناية المجاورة.

الرجل المدعو يون جو الذي كان يترنّح للوقوف على قدميه، طار إلى الوراء وانطرح على الأرض من جديد كما لو أن شخصًا دفعه بقوة. تدفقت الدماء المنبثقة من معدته فوق صدره بغزارة. نظرتَ إلى وجوه الرجال الواقفين بجوارك. لم يتفوَّه

أحد منهم بأي كلمة. كان جسد الرجل الذي تكلّم منذ لحظات، يرتعش في صمت ويده فوق فمه.

فتحتَ عينيك قليلًا، ونظرت إلى الأمام لترى أجساد عشرات البشر، ترقد في منتصف الشارع. تعتقد بأنك رأيت بنطال سترة رياضية أزرق فاتح. القدمان الحافيتان - ماذا حدث للحذاء الرياضي- تبدوان كأنما ترتجفان. انتصبت في وقفتك، وهممت بالاندفاع إلى هناك نحو جسد جونغ داي الملقى على الأرض، لكن أحكم الرجل الواقف بجوارك قبضته على كتفك. في تلك اللحظة اندفع ثلاثة شبان خارجين من الزقاق المجاور. حين حشروا أيديهم أسفل أذرع من انطرحوا على الأرض ورفعوا أجسادهم إلى أعلى، انفجر سيلٌ من طلقٍ ناريٍّ سريعٍ من جهة الجنود في وسط الميدان. تكوَّم الشبانٌ الثلاثة على الأرض كما لو كانوا دمى ماريونيت انقطعت حبالوها. نظرت إلى الزقاق الواسع المتّصل بالجهة المقابلة من الشارع. كان يقف هناك رجال ونساء في الثلاثينيات من عمرهم ملتصقين إلى الجدار في لوحةٍ حيّةٍ جامدةٍ، وعيونهم مثبتة على المشهد الواقع أمامها.

بعد عدّة دقائق من توقّف إطلاق الرصاص، اندفع خيال ضئيل الحجم بشكلٍ مدهشٍ، بلا تردّد. ركض الرجل بكل ما أوتي من سرعة نحو أحدٍ الأشخاص المرتمين على الأرض.

حين وضع سيل آخر من الرصاص نهاية لمحاولته، حرك الرجل الذي كان يقبض بإحكام على كتفك يده الضخمة الخشنة ليغطي عينيك بها، وهو يقول: « ستضيْع حياتك هباء إذا حاولت الخروج إلى هناك الآن».

في اللحظة التي أبعد فيها الرجل يده عنك، رأيت رجلين من الزقاق المقابل يندفعان نحو امرأة شابّة راقدة على الأرض كما لو كانا ينجذبان إليها بمغناطيس عملاق. أمسكا بذراعيها ورفعاها إلى أعلى. هذه المرة دوّى صوت النيران قادمًا من السطح فطار الرجلان رأسًا على عقب في الهواء.

بعد ذلك لم يكن هناك المزيد من محاولات الإنقاذ.

مرّت نحو عشر دقائق من صمت مشحون بالتوتّر قبل أن ينفصل نحو عشرين من الجنود عن صفوف زملائهم، ويمشون في أزواجٍ باتجاه من سقطوا قريبًا منهم. عملوا بسلاسة وآلية، وهم يجرّون الجثث على الأرض إلى حيث يقف الجنود الآخرون. كما لو كانت تلك هي الإشارة التي ينتظرونها. اندفع عشرة رجال من خارج مكامنهم في الزّقاق المجاور والمقابل لك، وحملوا أجساد من سقطوا على مبعدة من الجنود، هذه المرة لم يرتفع دويٌّ الرّصاص. سارع الرجال

الذين كانوا يقفون إلى جوارك محتمين بالجدار ليستعيدوا جثث مجموعة التقطت أنفاسها الأخيرة ثم اختفوا بسرعة بحمولتهم داخل الزقاق. مع هذا لم تبدر عنك أي حركة للذهاب ومساعدة جونغ داي. بعد أن تُرِكتَ وحيدًا، اجتاحك رعبٌ مخيفٌ. لم تستطع التفكير سوى في كيفية تجنّب عيون القناصة الحادة. مشيت بجنبكَ بمحاذاة الجدار في خطوات سريعة، وجهكَ ملتصقٌ بالطوب البارد وظهرك مواجه للميدان.

***

كان البيت هادئًا بعد ظهيرة ذلك اليوم. رغم الغليان الذي يجتاح المدينة، خرجت أمكَ لتفتح متجر دباغة الجلود الخاص بالعائلة في سوق داين، بينما أبوكَ الذي أصيبَ ظهره منذ فترة أثناء حمله صندوقًا ثقيلًا من جلود الحيوانات، يرقد في الحجرة الداخلية. دفعتَ البوابة الرئيسية والتي تُترك دائمًا مواربة لتفتحها، فعلا صرير المعدن مقابل الحجارة على الأرض. بينما تخطو إلى الفناء، تسمع صوت أخيك الأوسط يردّد كلمات مادة اللغة الإنجليزية في حجرته.

«دونغ هو؟»، يصلك صوت أبيك بوضوح من الحجرة الرئيسية. «هل عدت يا دونغ هو؟». لا ترد. «إذا كان هذا أنت، يا دونغ هو، فلتأتِ إلى هنا وتدلّك ظهري».

لا تبدي أي إشارة على سماعك، وتمضي في السير عبر بستان الزهور ثم تدفع مقبض مضخّة المياه. اندفعت مياه صافية وباردة داخل حوض النيكل. غطست بيديك أولًا ثم غرفت حفنة من المياه لتغمر بها وجهك. حين أمَلت رأسك إلى الوراء، انساب الماء على فكيك ثم بطول رقبتك.

«دونغ هو، أهذا أنت في الخارج؟ تعال إلى هنا».

ضغطت بيديك التي تتقاطر منهما المياه على عينيك، وبقيت واقفًا فوق الممشى الصخري. بعد برهة، انتعلت حذاءك الرياضي وخطوت إلى الشرفة الخشبية وفتحت الباب المنزلق للحجرة الرئيسية. كان والدك يرقد على ظهره في منتصف الحجرة حيث الهواء مشبع برائحة الكَي بعشبة الموكسا(8).

« آلمتني عضلات ظهري مبكرًا هذا الصباح لذا عجزت عن النهوض. ادعك ظهري في الأسفل قرب عظمة العجُز».

خلعت جوربك ورفعت قدمك اليمني ودست بها على أسفل ظهر والدك حريصًا ألّا تضغط بكل ثقل جسمك.

«أين كنت تتسكّع طوال هذا الوقت؟ لم تتوقّف أمك عن الاتصال للسؤال إذا كنت قد عدت أم لا. حتى التجوّل في الحيّ لم يعد آمنًا مع كل هذه التظاهرات. كان هناك إطلاق للرصاص ليلة الأمس قرب المحطة وقُتل بعض الأشخاص. لم يكن أمرًا مفاجئًا. كيف يمكن لأي شخص أن يواجه بندقية بيد خالية؟».

بدَّلتَ قدمك اليمنى باليسرى في حركة مدروسة، وضغطتَ بحرصٍ على المنطقة بين نهاية العمود الفقري لأبيك وعظمة العجز.

«آه، تلك هي البقعة. أجل، بالضبط هناك».

غادرتَ الحجرة الداخلية، وذهبتَ إلى حجرتك بجوار المطبخ. تكوَّرتَ بجسمك على الأرضية الورقية متّخذًا وضعية الجنين. غلبكَ النومُ فجأة كفقدان الوعي لكن لم تمر عدة دقائق قبل أن تنتفض مستيقظًا، خارجًا من حلم مريع أصبح من المستحيل تذكّر تفاصيله. على أية حال فإنَّ ساعات اليقظة الممتدة أمامك ستكون أكثر رعبًا من أي حلم.

من الطبيعي ألّا يكون هناك صوت حركة في الحجرة التي يعيش فيها جونغ داي مع أخته، مبنى ملحق صغير المساحة خارج حدود البوابة الرئيسية لبيتكم. ولن يكون هناك صوت أيضًا حين يأتي المساء. سيظل النور مطفأً، وسيبقى مفتاح حجرتهما مخبَّأً في مكانه في قاع الجرَّة المصقولة ذات اللون البني الداكن بجوار الممشى الحجري، لا تمسسه يد. راقدًا في سكون حجرتك إذ ترى وجه جونغ داي في مخيلتك. صورة بنطاله الرياضي الأزرق الفاتح تهتزّ أمام عينيك فيضيق تنفّسك كما لو أنَّ كرة من النار قد انغرزت في أحشائك. تصارع من أجل نَفَسٍ، وتحاول استبدال هذه الصورة بأخرى لجونغ داي في يوم عادي جدًّا، أو بصورة تتخيّلها له الآن، وهو يدفع البوابة الرئيسية ويخطو إلى داخل فناء البيت كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث.

لم يمر جونغ داي بطفرة النمو التي تطرأ على جسم الفتيان عادة في سن المدرسة الإعدادية. كانت أخته الكبرى جونغ مي تحرص على توفير اللبن له بأي طريقة حتى في أعتى الظروف أملًا أن يساعده شربه على النمو. جونغ داي بملامحه العادية التي جعلتك تتعجّب من أن ثمة صلة قرابة بينه وبين جونغ مي. جونغ داي الذي كان يمتلك جاذبية خاصّة به رغم أنفه المفلطح وعينيه الضيّقتين كعروة زر. كان قادرًا على إضحاكك من مجرّد حكِّ أنفه أو رسم ابتسامته العريضة

التي تمتد بطول وجهه. جونغ داي الذي كانت رقصة الديسكو التي أداها في عرض المواهب المدرسية بخديه المنفوخين كسمكة الينفوخ(9) قد أرغمت حتى أكثر المعلمين رهبة على الانفجار من الضحك. جونغ داي الذي كان شغوفًا بكسب المال أكثر من الدراسة لكن أخته لم تدع له المجال سوى للاستعداد من أجل امتحانات الالتحاق بكلية الفنون المتحرّرة(10). جونغ داي الذي كان يعمل موزِّعَ جرائد من دون علم أخته. كانت الرياح القارسة البرودة ترتطم بخدَّيه كالسوط، وتحيلهما إلى اللون الأحمر بمجرّد أن يحلَّ الشتاء. جونغ داي الذي يمتلك بثرة قبيحة على ظهر يده. جونغ داي الذي حين كنت تلعب معه كرة الريشة في فناء البيت، كان عاجزاُ عن أداء أي ضربة عدا الضربة الساحقة. كان يلعب بحماسة كما لو كان تحت تأثير وهمٍ بأنه يمثّل المنتخب الكوري الجنوبي في مباراة دولية. جونغ داي الذي دسَّ ممحاة السبّورة خلسة في حقيبة كتبه.

«لماذا أخذتها؟»، تسأله.

«لأعطيها إلى أختي».

«ماذا ستفعل بها؟».

«حسنًا، تتحدّث أختي عنها كثيرًا. هي ذكراها الأهم من أيام المدرسة الإعدادية قبل أن تترك الدراسة».

«ذكراها الأهم ممحاة سبورة؟! لا بدَّ أنها كانت فترة مملة جدًا من حياتها».

«لا، ثمة قصة تتعلّق بها. حدث ذلك في يوم كذبة أبريل. يومها لم تترك فتيات الفصل حيّزًا من السبورة لم تملأنه بالكتابة. كان مقلبًا أعددنه لمعلمهنّ، فهكذا سيضطر المعلم أن يقضي دهرًا في مسح السبورة قبل أن يستطيع بدء الشرح. لكن حين دلف إلى الفصل وشاهد السبّورة، صاح: «من منكنّ مسؤولة عن مراقبة الفصل هذا الأسبوع؟ - كانت أختي. وهكذا بينما واصل الفصل الحصة، وقفت أختي في الردهة تمدّ الخرقة التي كانت تُستخدم لمسح السبورة خارج النافذة، وتضربها بعصا صغيرة لتنفض غبار الطباشير عنها. موقف مضحك، أليس كذلك؟ عامان قضتهما في المدرسة الإعدادية وذلك هو أكثر شيء تتذكّره منها».

***

دفعتَ جسدك إلى أعلى ببطء، كفّاك يلامسان الأرضية الورقية الباردة. مشيتَ حتى الباب المنزلق. فتحته وانتعلت نعليْك. عبرت الفناء الضيّق وتوقفتَ أمام المبنى الملحق. أدخلت يدك داخل الجرة المصقولة مادًّا ذراعَيْك حتى كتفيك. فتّشت بيدك داخل الجرة حتى سمعت صوت خشخشة المفتاح واحتكاكه بالآنية الفخارية. أحكمتَ قبضتك عليه، وسحبته من مكانه أسفل مضرب الكرة والمطرقة.

صدرت تكة عن قفل باب المبنى الملحق قبل أن ينفتح. خَلعْتَ نعلَيْك وخطوتَ إلى داخله. لا تُظهر الحجرة أي أثر على وجودٍ بشريٍّ حديث. المفكِّرة لا تزال راقدة، مفتوحة على المكتب في مكانها تمامًا، كما تتذكّر من ليلة الأحد الماضي حين كان جونغ داي يوشك على البكاء، ففكّرت أن تهدأ أعصابه بأن تدوِّن قائمة بالأماكن التي قد تكون جونغ مي قد ذهبت إليها: الفصول الليلية، والكنيسة التي ترتادها أحيانًا، وعمَّها الذي انتقل للعمل حديثًا في إيلغوك-دونغ. في الصباح التالي اتصلتما بكل تلك الأماكن لكن لم تعثرا على جونغ مي في أي مكان.

وقفتَ في وسط الحجرة، والنهار يظلِم من حولك. فركتَ عينيك الجافّتين بظهر يديك. استمررت في ذلك حتى باتت عيناك محمرّتين وملتهبتين. حاولت الجلوس على مكتب جونغ

داي، ثم استلقيتَ بجسدك، ووجهك يلامس الأرضية الباردة. ضغطتَ بقبضتكَ على التجويف في مركز عظمة القص الذي بدأ يخفق بقوّة. لو ظهرت جونغ مي عبر البوابة الرئيسية في هذه اللحظة فسوف تندفع نحوها، وتجثو على ركبتيك عند قدميها وتتوسّل إليها كي ترافقك لتبحثا عن جونغ داي بين الجثث المرصوصة أمام مبنى المقاطعة. ستضربكَ بيدها على صدرك. ألستَ صديقه؟ ألستَ إنسانًا؟ ذلك ما ستصرخ به جونغ مي وهي تواصل ضربك على صدرك. أثناء ذلك، ستتوسَّلها أن تغفرَ لك.

***

تمامًا مثل شقيقها، كانت جونغ مي تبدو أصغر من عمرها الحقيقي. فقصَّة شعرها القصيرة تجعلها تبدو من الخلف طالبة في السنة الأولى من المدرسة الإعدادية، أو حتى لا تزال في المدرسة الابتدائية، رغم أنها قد بلغت التاسعة عشرة منذ فترة وجيزة. وحتى من الأمام، يمكن أن يخمِّن المرء أنها ما زالت في السنة الأولى من المدرسة الثانوية، رغم محاولتها الحثيثة كي تبدو أكبر سنًّا، عن طريق وضع مكياج بصورة دائمة. ورغم تورّم قدميها من الوقوف طوال اليوم في عملها في المصنع، كانت تصمّم على انتعال أحذية بكعبٍ عالٍ أثناء سيرها من وإلى العمل.

كانت بعيدة كل البعد عن الشخصية التي قد تضرب أحدهم. خطواتها الخفيفة وصوتها الحالم يجعلان من المستحيل عليك أن تتخيّلها تغضب حقًّا ذات يوم. مع ذلك وفقًا لكلام جونغ داي، كانت شقيقته تمتلك آراء قوّية حول أمور معينة، وأنها أكثرُ من قادرة على الدفاع عن حجتها في أي مناظرة تشارك فيها. الآخرون فقط من لا يعرفون ذلك عن أختي. هي في الحقيقة أكثر عِنادًا من أبي.

خلال العامين اللذين عاش فيهما جونغ داي وشقيقته في المبنى الملحق ببيتكم، لم تحصل بينهما أي مناقشة فعليّة. كانت تعمل في مصنع نسيج، وكانت تغيب في مناوبات عملها الليلية بشكل متكرّر. وحتى جونغ داي كان يتأخّر كثيرًا في عودته إلى المنزل بسبب عمله في توزيع الجرائد رغم أنه كان يتظاهر أمام أخته بأنه يقضي ذلك الوقت يذاكر في المكتبة. لهذا كانت مدخنة الفحم تنطفئ باستمرار خلال الشتاء الأول لهما في البيت. في الأماسي حين كانت تعود إلى البيت قبل أخيها، كنت تسمع صوت طرْقها الرقيق على بابكم. وجهها قد أضناه التعب، وخصلات شعرها مدسوسة خلف أذنها. اعذرني، لكن المدخنة... بدا أنها تبذل جهدًا كبيرًا كي تحرّك شفتيها فقط. تدرك أن نار المدخنة قد خمدت فتنتفض واقفًا وتركض حيث الموقد، وتلتقط بعض جمرات الفحم المشتعلة بملقط الفحم، وتناولها إلى جونغ مي في مقلاة لها مقبضان طويلان. شكرًا، تقول لك. لم أكن أعرف ما عليّ فعله.

المرّة الأولى التي تبادلتما فيها أكثر من بضع كلمات كانت في مساء ذات يوم في بداية شتاء العام الماضي. كان جونغ داي قد ألقى كتابه في إحدى زوايا حجرته بمجرد عودته من المدرسة، وتوجّه مباشرة لتوزيع الجرائد. ما كان قد عاد، بعد حين سمعت صوت طرقها الذي لا تخطئَه على الباب، طرقًا متردِّدًا كما لو كانت تخشى من أن تصيب الخشب بأذى، كما لو كانت أطراف أصابعها ملفوفة بقطع قماش ناعمة. سارعتَ إلى فتح باب حجرتك، وخطوت خارجه إلى داخل المطبخ.

«كنت أتساءل فقط إذا كنت تحتفظ بأي من كتبك الدراسية من السنة الأولى الإعدادية؟».

علت الحيرة وجهك فشرحتْ لكَ أنها تخطِّط لحضور المدرسة الليلية بدءًا من شهر ديسمبر.

«لقد تغيَّر العالم منذ اغتيال الرئيس بارك. الحركة العمالية تكتسب زخمًا على الأرض، ولم يعد مديرونا في العمل قادرين على إجبارنا على العمل لساعات إضافية بعد الآن. يقولون لنا إن رواتبنا سترتفع أيضًا. قد تكون هذه فرصة سانحة لي، عليَّ

اغتنامها. أرغب في مواصلة الدراسة من جديد. لكني تركت المدرسة منذ فترة طويلة، ولست متأكدة إذا كنت سأستطيع المواصلة من حيث توقفتُ. أريد مراجعة الأشياء التي درسناها في السنة الأولى قبل أن أشرع في أي شيء آخر. وهكذا حين تأتي إجازة جونغ داي، سأكون جاهزة للانتقال إلى مواد السنة الثانية».

طلبتَ منها الانتظار للحظة، وصعدتَ إلى العلّية. اتسعت عيناها حين هبطتَ وأنت تحمل بين ذراعيك كومةً من كتب دراسية ومراجع مُتربة.

«يا إلهي، كم أنت رجل صغير عاقل باحتفاظك بكل هذه الكتب. شقيقي جونغ داي يتخلّص منها جميعًا بمجرّد أن يفرغ منها». تناولت الكتب منكَ مضيفة: «رجاءً، لا تخبر جونغ داي بما حدّثتك عنه. هو يعرف أنني لم أتمكّن من مواصلة دراستي من أجله، ويشعر بتأنيب ضميرٍ بما فيه الكفاية. لهذا رجاءً، احترس من أن تبوح أمامه بهذا الأمر حتى اجتاز امتحان الالتحاق بالمدرسة الثانوية».

وقفتَ هناك تحدِّق في وجهها المبتسم مندهشًا من انطلاقها غير المسبوق في الكلام معك، ومن النور الذي يطلّ من عينيها المشرقتين مثل تحرّر بتلات زهرة شاحبة من بين براعمها المحكمة الإغلاق.

«ربما بمجرد أن يذهب جونغ داي إلى الجامعة سأستطيع السير على خطاه. حلم الجامعة ممكن. إذا ذاكرت بجدٍّ كافٍ. فمن يعرف؟».

وقتها شككت في قدرتها على الإبقاء على أمر دراستها سرًّا لمدة طويلة. فلا بد أن يعود جونغ داي ذات يوم، ويجدها وقد فتحت تلك الكتب الدراسية أمامها، فأين ستتمكّن من إخفائها في حجرتهما الوحيدة الضيّقة؟ وراء ظهرها الهزيل؟ كما أن جونغ داي يسهر عادةً حتى وقت متأخر لينجز واجباته المدرسية، ولا يمكنها الانتظار حتى ينام هو كي تبدأ في المذاكرة، ففي الصباح ينتظرها العمل. بعد برهة قصيرة، حلّت محلّ تلك الشكوك خيالاتٌ حميمة. تخيّلت أصابعها الناعمة تقلّب صفحات كتابك على بعد ياردات قليلة من رأس جونغ داي النائم. الانحناءة الرقيقة لشفتَيها وهي تردّد: يا إلهي، كم أنت رجل صغير عاقل باحتفاظك بكل هذه الكتب. عيناها الجميلتان وابتسامتها المُجهدة. طرقها الخافت. شعرت بأن كل شيء تخيّلته يمزِّقك وأنت تطوف الآن داخل المبنى الملحق

على بعد ياردات قليلة من الحجرة التي تقضي فيها الليل متقلّبًا ومُتلوّيًا في مرقدك.

في الساعات الأولى من النهار حين كنت تسمعها تخطو إلى الفناء وتغسل وجهها عند مضخّة المياه، كنت تلف جسدك باللحاف وتزحف حتى الباب وتضغط بأذنيك عليه بينما عيناك المثقلتان بالنوم لا تزالان مغلقتين.

***

أبطأت الشاحنة المحمّلة بحمولتها الثانية من الجثث كي تتوقّف أمام قاعة الرياضة. تضيِّق عينيك أكثر من المعتاد بسبب السطوع الحادّ للشمس، فتتمكّن من رؤية خيال جين سو يهبط من مقعد الراكب الأمامي. حملته خطواته الرشيقة تتجه إليك.

«سنغلق الأبواب هنا في السادسة مساء. عليكَ العودة إلى بيتك قبل هذا الموعد».

«من سيعتني بـ... الأشخاص في الداخل؟»، أجبت بتلعثم.

«الجيش سيعاود الدخول إلى المدينة الليلة. حتى أسر الضحايا سنرسلهم إلى بيوتهم. لا يجب أن يبقى أحد هنا بعد السادسة».

«لكن لماذا سيهتم الجنود بالقدوم إلى هنا؟ ما الضرر الذي يمكن أن يسبّبه الموتى لهم؟».

«وفقًا لهم فإنَّه حتى الجرحى الراقدين على أسرّة المستشفى «غوغاء خطِرين»، يجب إسكاتهم. هل يبدو من المحتمل حقًّا أن يغضّوا الطَرفَ عن كل هؤلاء الجثث، وعن كل تلك العائلات التي تحرسها؟».

كتم جين سو ما كان على وشك قوله بداخله، وتجاوزكَ متابعًا سيره إلى داخل قاعة الرياضة. خمَّنتَ أنه ذاهب ليخبر أسر الضحايا بالشيء نفسه. قرَّبت المفكّرة التي تمسك بها من صدرك كما لو كانت شيئًا ثمينًا، وأنت تحدّق في خيال جين سو المبتعد شاعرًا بثقل المسؤولية الملقاة على كاهله. أمعنت النظر لتبصر شعره وقميصه وبنطلونه وكلّها مُبللة، وأسرَ الضحايا وهم إمَّا يهزون رؤوسهم في رفضٍ أو يومئون بها في استسلام. تعالى الصوت المرتجف لامرأة حتى صار

صراخًا مدوِّيًا. «لن أتزحزح سنتيمترًا واحدًا عن ولدي. سأموت هنا إلى جانب صغيري».

حوَّلت بصرك إلى جثث الموتى الراقدين في أبعد نقطة داخل القاعة، والقماش مسحوب لأعلى ليغطي رؤوسهم. الموتى الذين لم يأتِ أحد ليتعرَّف على هويتهم بعد. أجبرت نفسك على التركيز على الشخص الراقد في الزاوية. في اللحظة التي وقعت عيناك فيها عليها في ممرّ مبنى المقاطعة، ظننت أنها جونغ مي. رغم أن الوجه لم يبدأ في التحلل بعد، لكن طعنات السكين الغائرة التي تمزّقه جعلت من الصعب تمييز ملامح الوج. لكن بطريقة ما، بدا الوجه مألوفًا لك. أجل، هذه التنورة المثنية مألوفة للغاية لي. لكن هذا النوع من التنانير شائعٌ للغاية، أليس كذلك؟ حدَّثْتَ نفسك. هل أنت على يقين من رؤيتها تخرج مرتدية تنورة مشابهة لهذه يوم الأحد؟ هل كان شعرها قصيرًا حقًّا هكذا؟ قصة الشعر القصيرة تلك تبدو أنها لطالبة في المرحلة الإعدادية، أليس كذلك؟ لكن جونغ ماي، التي كانت تضطرّ دائمًا إلى التقشف والادّخار لتغطّي بالكاد نفقاتها، لماذا ستبذِّر المال بهذا الشكل كي تطلي أظافر قدميها والصيف لم يحل بعد؟ تحاول إقناع نفسك. لكنك لم تلقِ نظرة جيدة أبدًا على قدميها الحافيتين لتعلم هذا. فقط جونغ داي من يمكنه أن يعرف إذا كان لدى جونغ ماي شامة زرقاء داكنة على ركبتها، حجمها مماثل تقريبًا لحجم حبة بازلاء حمراء.

تحتاج إلى جونغ داي لتقطع الشك باليقين أن تلك الفتاة الراقدة ميتةً هناك ليست أخته.

على الجانب الأخر، كنت في حاجة إلى جونغ مي لتساعدك في العثور على أخيها. لو كانت مكانك هنا الآن، لكانت قد طافت على كل مستشفى في المدينة حتى تجد أخاها في إحدى غرف الإنعاش في اللحظة التي يبدأ فيها باستعادة وعيه. مثل تلك المرة التي اندفع فيها جونغ داي خارج البيت في فبراير الماضي وهو يهتف بإصرار لجونغ مي أنه يفضل الموت على الذهاب إلى كلية الفنون المتحرِّرة، وأنه بمجرد الوصول إلى منتصف السنة الثالثة الإعدادية سيلتحق بالفصول المهنية التي تقدّم في ذلك الوقت محاضرات لإعداد الفتيان لسوق العمل. ستتبع جونغ مي أثره برشاقة غريبة في ذلك اليوم حتى متجر لبيع القصص المصورة، وتجرُّه من أذنه خارجه. ستجد أمك وأخوك الأوسط مشهد جونغ داي تسوقه امرأة صغيرة جدًّا وضئيلة الجسم مضحكًا للغاية. حتى والدك، الرجل الصارم والمتحفِّظ، سيجد صعوبة في كتم ضحكته، وسيلجأ إلى نحنحة حلقه بصوت عالٍ عدة مرات ليخفي ضحكاته. سيختفي الشقيقان داخل المبنى الملحق. يمكن سماع جدالهم المكتوم يتواصل إلى ما بعد منتصف الليل. يرتفع الصوت المغمغم المنخفض لأحدهما ويتّخذ نبرة حنونة سعيًا منه لتهدئة الآخر، ثم يحين الدور على صوت الآخر كي يعلو مما يعني أن الآية قد انقلبت، وأن الآخر الآن هو من يحاول تطييب

خاطر الأول. يستمر هذا حتى النقطة التي يتملّكك فيها النوم، مثل السقوط المفاجئ في هوَّة. تستلقي في حجرتك بينما تتلاشى قدرتك شيئًا فشيئًا على التمييز بين أصوات الشجار وأصوات المصالحة وأصوات الضحك الخافتة والتنهّدات المشتركة.

***

تجلس الآن أمام المنضدة بجوار باب قاعة الجمنازيوم.

مفكِّرتك ترقد مفتوحة على الجانب الأيسر من المنضدة، بينما تتفحَّص عيناك قوائم الأسماء والأعداد وأرقام الهواتف والعناوين، كي تتأكّد أنك تملك البيانات الصحيحة قبل كتابتها بخط كبير على أوراق عريضة. قال جين سو إن عليك التأكد من قدرتك على الاتصال بأسر الضحايا حتى لو كان كل فرد من أفراد ميليشيا المدنيين سيموت هذه الليلة. لا أحد ليساعدك على كتابة البيانات وتثبيت الأوراق فوق التوابيت. عليك أن تسرع إذا كنت ستنهي عملك كله قبل حلول السادسة مساء.

سمعتَ صوت أحدهم ينادي على اسمك.

رفعتَ رأسك إلى أعلى، ورأيتَ أمك تبرز من الحيّز بين شاحنتين. بينما تقترب منك، رأيتَ أنها قد أتت هذه المرة بمفردها، لا يرافقها أخوك الأوسط. كانت تلبس بلوزتها الرمادية وبنطلونها الأسود الفضفاض، اللذين ترتديهما دائمًا عند ذهابها للعمل في متجر الجلود، حتى كادا يصبحان زيًّا رسميًا. كانت تبدو كما تبدو دائمًا باستثناء حقيقة أن شعرها الذي كانت تمشطه بعناية عادةً قد بدا عليه أثر المطر الخفيف الذي هطل مبكرًا. نهضْتَ وركضْت إلى الأمام مسرورًا برؤيتها، لدرجة أنك لم تعِ ما كنت تفعله، حتى كنت قد قطعت نصف المسافة نازلًا سلالم قاعة الرياضة. توقفتَ فجأة مرتبكًا. مدَّت أمُّك يدَها لتقبض على يدك قبل أن يسنح لك الوقت كي تتقهقر إلى الوراء عائدًا إلى أمان قاعة الرياضة.

«هيا بنا نعود إلى البيت، يا دونغ هو»، قالت.

تسحب معصمك بقوة في محاولة للتملّص من قبضتها. القوّة المستميتة والمصمّمة الكامنة في قبضة أمّك مخيفة بصورة جعلتك تفكّر لسبب ما في شخصٍ يغرق. عليكَ أن تستخدم يدك الأخرى لتنزع أصابعها بعيدًا عن يدك، إصبعًا تلو الآخر.

«الجيش قادم. هيا بنا نعود إلى البيت الآن».

في النهاية، تمكّنت من التملّص من قبضتها. لم تُضِع ثانية واحدة واندفعتَ راجعًا إلى داخل المبنى. حاولت أمُّك اللحاق بكَ لكن أعاقها الصف الملتوي لأسر الضحايا الذين ينتظرون حمل توابيت ذويهم معهم إلى البيت.

تلتفت وتهتف لها: «سوف نغلق المكان هنا في السادسة مساء يا أمي».

تحرّكت أمُّك بانفعال في محاولة لرؤيتك على الجانب الآخر من الصف. لا يمكنك أن ترى منها سوى جبهتها، التجعّدات التي تعلوها تذكِّرك بطفلٍ باكٍ.

هتفت مجدّدًا بصوت أعلى هذه المرة. «بمجرد أن نغلق المكان، سوف أعود إلى البيت. أعدك بذلك يا أماه».

حينها فقط ارتخت تجعّدات جبهتها.

«فلتتأكَّد من فعل ذلك يا دونغ هو»، قالت لك. «فلتعد قبل غروب الشمس. سنتناول جميعًا العشاء معًا».

***

لم تمضِ ساعة على رحيل أمك حين لمحت رجلٌ مسنٌ يتوجَّه نحوك ببطء. نهضت من مجلسك. رغم المسافة الفاصلة بينكما، بدا معطف الرجل البنيّ القديم الطراز في حالة مزرية جدًّا. تبرز خصلات شعره الأبيض اللامعة من تحت قبعته السوداء ذات الحافة. كان يتّكئ بشدّة على عكاز خشبي، وهو يترنّح سائرًا إلى الأمام. وضعت المفكرة والقلم فوق الأوراق لتمنع تطايرها بفعل الرياح قبل أن تهبط السلالم.

«عمّن أتيت تبحث هنا، يا سيدي؟».

«ولدي وحفيدتي»، قال لك. بدا أنه يفتقد عدة أسنان، وهو ما لم يساعدك تمامًا على فهم لكنته الغليظة.

«لقد أقلّني جرّار من هواسون. لكنهم أوقفونا في ضواحي المدينة، وقالوا إننا لن نستطيع الدخول إلى المدينة فسلكت طريقًا عبر الجبال لا يحرسه الجنود. لقد وصلت للتو».

أخذ نفسًا عميقًا. تعلّقت قطرات لعاب رمادية اللون بالشعيرات البيضاء المتناثرة حول فمه. لم تستطع أن تستوعب كيف لرجلٍ مسنٍّ مثله يجد مشقّة في المشي فوق أرض مستوية أن ينجح في الوصول إلى هنا عبر الجبال الوعرة.

«إنه ولدنا الأصغر. هو أخرس. لقد عانى من حمّى في صغره، كما ترى، ولم يتحدّث بعدها أبدًا. منذ أيام قليلة، أخبرني رجلٌ تمكّن من الفرار إلى خارج المدينة أنَّ الجنود قد انهالوا ضربًا بالهراوات على رجل أخرس حتى مات. لقد مر الآن على ذلك وقتٌ ليس بقليل».

قدت الرجل من ذراعه، وساعدته على صعود السلالم.

«الابنة الكبرى لولدنا تستأجر حجرة قرب جامعة جيونام حيث تدرس، لذا ذهبت إلى هناك مساء الأمس، لكن لم تكن موجودة، ولا يعلم أحد أين ذهبت. لم يرها مالك الحجرة منذ عدة أيام، وكذلك قال الجيران».

خطوت داخل قاعة الرياضة، وارتديت كمامة. أخذت النسوة المرتديات أردية الحداد في جمع زجاجات المشروبات

والجرائد وأكياس الثلج وصور موتاهم في حقائب قماشية. كان يدور جدالٌ في الخلف بين العائلات حول إذا كان من الأفضل نقل الجثث إلى ملاذٍ آمنٍ، أم تركها حيث هي وحسب.

حرَّر الرجل ذراعه من ذراعك ورفض طلبك بالمساعدة. مشى نحو المقدّمة وهو يمسك قطعة قماش مجعَّدة قرب أنفه. فحص الوجوه المكشوفة واحدًا تلو الآخر وهو يهز رأسه. أرضية الرياضة المطاطية تجعل طقطقة العكاز المنتظمة تبدو كصوت ارتطام مكتوم.

«ماذا عن الجثامين هناك؟ لماذا وجوههم مغطاة؟»، سأل، وهو يشير إلى الجثث التي كانت الأقمشة تغطّيها حتى رؤوسها.

تردّدتَ، وشفتاك ترتعشان بسبب وعيك العميق بمدى الرعب الذي لا يفشل هذا السؤال أبدًا في بثه فيكَ. تعلم ما ينتظرك وراء تلك الأكفان القطنية وأنسجتها الملطخة بدم وإفرازات سائلة حين تنزعها. تعلم ما ينتظرك كي تراه مرّة أخرى: الوجوه الممزّقة طوليًا والأكتاف المجروحة جراحًا بالغة تكشف عن اللحم أسفلها، والنهود التي تتحلّل أسفل البلوزات. في الليل حين تختلس ساعات قليلة لتنام فيها محنيَّ الظهر

جالسًا على كرسيّ في كافيتريا الطابق الأرضي، إذ تنفتح عيناك ذعرًا بسبب الرعب الذي تنبض به تلك الصور. يتلوّى جسدك وينتفض بينما تشعر بطيف حربة تطعنك في وجهك وصدرك.

تقود الطريق إلى تلك الزاوية وأنت تصارع كي تتغلّب على المقاومة المحفورة في عضلاتك التي تصرخ رافضة التحرّك. ذلك الإحساس بأنك تُسحب إلى الخلف بمغناطيس ضخم من نوع ما. كان عليك أن تميلَ إلى الأمام أثناء مشيك، كأنما تسير في قلب عاصفة، كي تتمكّن من أن تأخذ الخطوة التالية. انحنيت إلى أسفل لتزيل القماش، حين تتجمد عيناك لرؤية شمع الشمعة الشفاف يزحف إلى أسفل اللهب المزرقّ.

إلى متى تبقى الأرواح تحوم إلى جوار أجسادها؟ هل ترفرف بعيدًا حقًّا كطيرٍ من نوعٍ ما؟ هل حركتها هي ما يهزُّ حوافّ لهب الشمعة؟

تمنّيتَ لو كانت قدرتك على الإبصار أضعف، وأي شيء تنظر إليه عن قرب مجرّد غشاوة غامضة غير مؤذية. لكن لا التباس في ما يجب أن تواجهه الآن. لا تسمح لنفسك بالاسترخاء في اللحظات التي تغمض فيها عينيك وأنت تنزع

القماش، ولا حتى بعد ذلك حين تعيده إلى مكانه مرة أخرى. تضغط على شفتيك بقوّة يكاد معها الدم يبرز من خلالهما وتكزُّ على أسنانك وتفكِّر، كنت لأركض هاربًا. لو كانت هذه المرأة وليس جونغ داي من سقط أمامك، كنت لتركض هاربًا. لو كان أحد أخويك أو أبوك أو أمك، كنت لتلوذ بالفرار أيضًا.

تلتفت لتنظر إلى الرّجل المسن. لا تسأله إذا كانت هذه حفيدته. تنتظره في صبر كي يتحدّث عندما يصبح مستعدًّا لذلك.

لن يكون هناك غفرانٌ. تنظر في عينيه اللتين تجفلان من المنظر الممتد أمامهما كما لو كان الشيء الأكثر فظاعة في العالم. لن يكون هناك غفرانٌ. على الأقل، ليس بالنسبة إليَّ.

الفصل الثاني

نَفَس أسود

(صديق الصّبِيِّ 1980)

تكوَّمت أجسادنا فوق بعضها البعض على شكل صليبٍ. ثمة جثةُ رجلٍ مُلقاة فوق بطني بزاوية قائمة. وجهه إلى أعلى،

وتعلوه جثة صبيٍّ أكبرَ مني سنًا، وطويل القامة إلى درجةٍ أن مقدمتَي ركبتَيْه كانتا تضغطان على قدميَّ العاريتين. داعب شعرُ الصبيِ وجهي. كنت قادرًا على رؤية كل هذا لأني كنت لا أزال عالقًا داخل جسدي الميت.

أتوا إلينا مسرعين. خوذات وشارات الصليب الأحمر الملتفّة حول أكتاف أردية مزركشة. انقسموا إلى أزواج، وبدأوا في رفعنا ورمينا داخل شاحنة عسكرية. كانوا يعملون بطريقة أشبه بتحميل أكياس حبوب.

رفرفتُ حول خدّي ومؤخرة عنقي، وتشبّثت بهذه الملامح كي لا أنفصل عن جسدي. وجدت نفسي وحيدًا بغرابة داخل الشاحنة. كانت هناك جثث أخرى بالتأكيد لكن لم ألتقِ بآخرين مثلي. ربما كانوا هناك قريبين جدًّا داخل حدود الشاحنة، لكني عجزت عن رؤيتهم أو الإحساس بوجودهم. «سنلتقي في العالم الآخر». اعتاد الناس على قول ذلك. أصبحت تلك الكلمات الآن فارغةً من أي معنى.

تأرجح هذا الخليط العشوائي من الجثث -بما فيها جثتي- مع حركة الشاحنة. حتى بعد أن فقدتُ الكثير من الدم وتوقّف قلبي عن النبض أخيرًا، ظل الدم ينزف من جسمي حتى أصبح جلد

وجهي رفيعًا وشفافًا كورقةِ كتابة. كم كان غريبًا أن أرى عينيّ مغلقتين في هذا الوجه المُصفّى من الدم.

بينما يعمّ المساء من حولنا، غادرت الشاحنة الأحياء المأهولة واندفعت في شارع مهجور محاطٍ من كلا الجانبين بحقول داكنة. ثم شرعت في صعود تلٍ منخفضٍ مزروعٍ بكثافة بأشجار بلوط قبل أن تلوح بوابةُ حديدٍ في الأفق. أبطأت الشاحنة حتى توقّفت تمامًا أمام البوابة. حيا حارسان قائدَ الشاحنة. سمعتُ صرختين معدنيتين طويلتين وحادّتين مع فتح الحارسَيْن للبوابة ثم إغلاقها بعد دخول الشاحنة. تابعت الشاحنة انطلاقها لمسافةٍ قصيرةٍ عبر التل، قبل أن تنعطف إلى أرض جرداء فيها مبنى خرساني منخفضٌ على أحد جانبيها، وغابة من أشجار البلوط على الجانب الآخر. توقّفت الشاحنة هناك.

هبط الرجال من الشاحنة، وداروا حولها. فتحوا مزلاج الباب الخلفي. ثم مرّة أخرى في أزواج، شخص يحمل الساقين وآخر يمسك الجثة من الذراعين، نقلونا من الشاحنة إلى وسط الأرض الجرداء. بدا كأن جسدي يحاول التملّص من قبضتي المرتعشة كما لو كان يحاول طردي. لكنّي تشبّثت به بقوة منبعها اليأس. نظرت إلى المبنى المنخفض ونوافذه المُضاءة.

أردت أن أعرف طبيعة هذا المبنى. أن أعرف أين أنا وإلى أين أُخِذ جسدي.

شقّوا طريقهم صوب أجمة الشجر المطلة على قطعة الأرض الفارغة. كوَّموا الجثث على شكل صليب منتظم، متَّبعين أوامر أشار بها شخص يبدو أنه القائد. جثتي كانت الثانية من أسفل، محشورة ومُنسحِقة أسفل عمود الجثث المتراكمة فوقها. لكن حتى هذا الضغط الرهيب لم يتسبّب في خروج أي قطرة دم إضافية من جروحي. مما يعني حقيقة واحدة: لقد نزف جسمي حتى آخر قطرة دماء فيه.

كانت رأسي مائلة إلى الوراء. أحالت ظلالُ الأشجار وجهي إلى وجه شبح شاحب بعينيه المغلقتين وفمه المتدلي نصف المفتوح. عندما ألقوا كيسًا من القش فوق جثة أعلى رجل في القمّة، بدا برج الجثث أشبه بجثة وحشٍ خرافيٍّ عملاقٍ، تمتد خارجة من جسمه عشراتُ السيقان.

***

بعد أن غادر الرجال، انتشر الظلام من حولنا. تلاشى ضوء الشفق الخافت العالق في سماء الغروب تدريجيًا حتى ابتلعه الظلام المحيط. تحرّكتُ بسرعة إلى أعلى حتى بلغت قمة برج

الجثث، حيث ثبّتُ نفسي بجثة الرجل الأخير. تأمّلت النور الشاحب الذي انسلَّ عبر سحب رمادية تُغلف نصف قمر. توزَّع هذا النور على أوراق وأغصان أجمة الشجر. ألقت ظلالُ الأشجار أشكالًا على وجوه الموتى أشبه بوشومٍ مُخيفة.

لا بدَّ أن الوقت كان قرابة منتصف الليل إذ شعرت بها تمسّني. دفقةٌ ناعمةٌ من كيان غير مادّي كالنسيم. ظلٌّ لا وجه له، يعوزه الآن كل شيء بما في ذلك اللغة كي يسكنَ جسدًا. انتظرت لبرهة في شك وحيرة بشأن كنه هذا الشيء، وكيف أتواصل معه. ففي النهاية لم يعلمني أحد كيف أخاطب روحًا.

وربما -أو هكذا بدا لي- كان رفيقي مصدومًا بشكل مماثل لصدمتي. من دون الملاذ المألوف للغة، استطعنا استشعار وجود الآخر ككيان مادي داخل عقل كل منّا. حين شعرت أخيرًا به يتنهد، تركني استسلامه وشعوره بالنبذ وحيدًا من جديد.

توغل الليل تتخلّله سلسلة من حوادث مماثلة. باتت حوافّ ظلّي واعية بأي لمسة ساكنة: وجود روح أخرى. نتوه في تساؤلٍ لا نهائيٍّ عن هويّة الآخر من دون يدين وقدمين ووجه ولسان. ظِلّانا يتلامسان لكن لا يمتزجان. شعلتان حزينتان

تتحسَّسان حائطًا زجاجيًا أملس يفصل بينهما قبل أن تتزلقا مبتعدتين من دون كلام - وقد هزمهما ذلك العائق - مهما كانت طبيعته. في كلّ مرّة أشعر فيها بظلٍّ ينسَلُّ عبري، أنظر إلى سماء الليل. كم رغبت في تصديق أنَّ نصف القمر المغلّف بالغيوم يحرسني حقًّا، وأنه عين تقدح بالذكاء. لكنه في الحقيقة مجرّد كتلة ضخمة مقفرة من حجارة خامدة تمامًا.

في اللحظة التي كان يشارف فيها ذلك الليل الغريب على نهايته، ويبدأ فيها نور الفجر الأزرق الشاحب في التسلّل إلى سواد السماء إذ أفكر فيك فجأة يا دونغ هو. أجل، فقد كنت معي في ذلك اليوم حتى شعرت بشيء أشبه بهراوة باردة تضرب جنبي بغتة. كنتَ معي حتى انهرتُ مثل دمية قماش. كنتَ معي حتى رميتُ ذراعي إلى أعلى لأحذّرك في صمت، حين بلغنا دويُ أقدامٍ ترتطم بالأرض وطلقٌ ناريٌّ يصمّ الآذان. كنت معي حتى شعرت بالجريان الدافئ لدمائي فوق كتفي وظهر عنقي. حتى تلك اللحظة، كنتَ معي.

***

صرصر الجراد، وترنَّمت الطيور المختبئة بأنشودة الصباح، وداعبت الرياحُ أوراق الأشجار الداكنة. وارتعشَت الشمس فوق شفة الأفق أثناء صعودها المهيب والجبّار إلى كبد السماء. بدأت جثثنا المكوّمة وراء أجمة الشجر تلين تحت

أشعة الشمس وقد أخذت في التحلّل. حطّت أسرابٌ من ذباب الخيل وذباب مايو فوق أجسادنا في المواضع التي كانت تكسوها بقعٌ من دمٍ أسود متجلّط. فرك الذباب أطرافه الدقيقة وزحف حول تلك ًالبقع قبل أن يطير ليهبط من جديد. شققتُ طريقي إلى حوافّ جسدي كي أتأكد إذا كانت جثتك محشورة في مكان ما من البرج. إذا كانت روحك من بين تلك الأرواح التي عبرت من خلالي بلمستها الحانية العابرة ليلة الأمس. لكن لم أستطع تجاوز حدود جسدي. كنت عالقًا، عاجزًا عن الانفصال عن جسدي الذي بدا كأنه اكتسب فجأة قوة مغناطيسية ما، تجذبني إليه. وهكذا بتّ عاجزًا عن إبعاد ناظريَّ عن وجهي الشاحب كالأشباح.

***

استمرّ الأمر على المنوال نفسه حتى كادت الشمس تبلغ منتهى ارتفاعها. حينها أدركت حقيقة أنك لست هنا. ليس فقط أنك لست هنا في كومة الجثث تلك، بل أدركت أنك لا تزال حيًّا ترزق. رغم جهلي بهويّات الأرواح الأخرى التي تحوم قريبًا مني، فإنني -لسبب ما- إذا وضعت كل تركيزي من أجل تخيّل شخص معيّن، فسيمكنني أن أعرف بيقين أجهل مصدره إذا كان قد فارق الحياة أم لا. مع هذا لم يبعث هذا الاكتشاف أي قَدرٍ من الراحة في نفسي، بل أرعبني التفكير في حقيقة أنني هنًا، قرب أجمة الشجر غير المألوفة ومحاطًا بجثث تتحلّل تدريجيًا إلى مكوناتها الأولية، وحيدًا وسط غرباء.

لا يزال الأسوأ بانتظاري.

في محاولة منّي لإخماد مدِّ خوفي المتصاعد، فكّرتُ في أختي. راقبت الشمس المشرقة ترسم قوسًا يمتد أكثر فأكثر نحو الجنوب وأشعتها تسقط بثبات على وجهي كأنما تحاول اختراق جفوني المغلقة بينما أسرح بأفكاري في أختي. قصّرت تفكيري عليها.

شعرت بألمٍ فظيعٍ كاد يحطّمني. أدركت أنها ميتة. ماتت حتى قبل أن أموتَ أنا. بلا لسان ينطق بها أو صوت يحملها، انفلتت مني صرخة ممزوجة بدم وسائلٍ مائيٍّ. لا تمتلك روحي عينين، فمن أين انبثق هذا الدم؟ وأي نهايات عصبية كانت تحفِّز هذا الألم الذي انفجر في كياني غير المادي؟ كانت يداي القذرتان ساكنتين في مكانهما. فوق أظافري الملطّخة بصدأ غائرٍ من دمٍ لزجٍ، زحف نملٌ أحمرُ في سكونٍ.

***

لم أعد أشعر بأنني في الخامسة عشرة. هل أنا الآن في الخامسة والثلاثين مثلًا أو الخامسة والأربعين؟ تتابعت تلك

الأرقام في رأسي لكنها لم تبدُ كافية. ولا حتى الخامسة والستين ولا الخامسة والسبعين. بدت كل تلك الأرقام عاجزة عن التعبير بشمول عمن أكون.

لم أعد جونغ-داي قزم العام كما كانوا ينعتونه. لم أعد بارك جونغ داي الذي كانت فكرته عن الحب والخوف مرتبطة بصورة أخته فقط. غمرني غضبٌ غريب لا ينبع من حقيقة أنني ميت بل من تلك الأفكار التي لا تتوقّف عن التدفّق عبري: من قتلني؟ من قتل أختي؟ ولماذا؟! كلما كرَّست جزءًا أكبر من كياني في التفكير في تلك الأسئلة، أصبحت تلك القوة الجديدة بداخلي أشد وأشد. ازداد تيار الدم المتدفّق -من مكان ما لا عين له أو خدين- سوادًا وسُمكًا مشكِّلًا بركة صغيرة دبقة.

لا بد أن روح أختي تهيم في مكان ما، لكن أين؟ لم يعد ثمة شيء يدعى جسد بالنسبة إلينا، وبالتالي ما عاد التقارب الجسدي شرطًا للقْيانا. لكن من دون جسد، كيف سنتعرّف على بعضنا البعض؟ هل سأتمكّن من التعرّف على أختي وهي محض روح، وظل؟

واصل جسمي تحلّله.

تجمَّع المزيد والمزيد من ذباب مايو بداخل جراحي المفتوحة، وزحف ذباب الخيل ببطء فوق شفتيّ وجفوني وهو يفرك سيقانه السوداء الرفيعة ببعضها من حين إلى آخر. في الوقت الذي أخذ فيه النهار في الأفول واخترقت أشعّة من نور برتقالي تيجان أشجار البلوط، حوَّلت تفكيري مرهقًا من التساؤل عن مكان أختي إليهم. إلى من قتلني. إلى من قتل أختي. أين هم الآن؟ حتى لو لم يموتوا بعد فما زال لديهم أرواحٌ لذا بكل تأكيد يمكنني الإحساس بهم وربما لمسهم إذا ركزت كل تفكيري عليهم. أريد الانسلاخ عن جسدي مثلما ينسلخ ثعبانٌ عن جلده. أريد تحرير تلك القوّة الكامنة النقيّة، قوة رفيعة ومشدودة مثل شبكة العنكبوت، تتمدّد وتتكمش داخل كتلة لحم متعفّن. أردت أن أكون قادرًا على الطيران أينما كانوا وأن أسألهم لماذا قتلوني؟ لماذا قتلوا أختي؟ وماذا فعلوا بها؟

شقَّ سكونَ الليل صوتُ الاحتكاك المعدني لفتح ثم غلق البوابة الحديديّة. اقترب صوت قعقعة محرِّك أكثر فأكثر قبل أن تخترق أشعة كشّافَيّ الشّاحنة الأماميين الظلام. حينما سقطت تلك الأشعّة على جثثنا، تراقصت الظلال التي تلقيها أوراق وأغصان الشجر، تلك الوشوم الداكنة فوق وجوهنا.

هذه المرة هبط من الشاحنة رجلان فقط. حملا أحدث دفعة من الجثث إلينا، واحدة في كل مرة. كان عدد الجثث الجديدة خمسًا: جماجم أربعٍ منهم مهشّمة بأداة صلبة، وقد خلَّف ذلك بقعًا متناثرة من الدَّم على النصف العلوي من أجسادهم. أما الخامس فيلبس رداء مستشفى أزرقَ مخطَّطًا. كدَّس الرجلان الجثث في كومة صغيرة بجوار جثتنا على شكل صليب أيضًا. الجثة في رداء المستشفى في الأعلى. ثم وضعا كيسًا من القش فوقها قبل أن يسارعا بالرحيل. حدّقت في حواجب الجثث الجديدة المجعّدة وعيونهم الجامدة، مدركًا أن رائحة مريعة قد بدأت تفوح من أجسادنا بعد مضي يوم واحد فقط على تواجدنا هنا.

بينما يدور محرك الشاحنة، انزلقت نحو الجثث الجديدة. لم أكن وحدي من يحوم حول الوافدين الجدد. كان بإمكاني استشعار ظلال الأرواح الأخرى. الجثث الأربع ذات الجماجم المثقوبة كانت لثلاثة رجال وامرأة. لا يزال خيط رفيع من دمٍ سائلٍ يسيل من ثيابهم. ربما رشّ أحدهم الماء على رؤوسهم، فقد كانت وجوههم نظيفة نسبيًا مقارنة بالحالة المزرية لبقية جسمهم. من السهل تمييز أن الشاب برداء المستشفى قد تلقّى عناية خاصة مقارنة بالجثث الأخرى. جثته الراقدة وقد سُحب كيس القش فوقها حتى أعلى الصدر كلحاف، أنظف وأطهر من الأخريات. غسل أحدهم الجثّة وخاط جراحها وغطاها

بضمادٍ. الشاش الأبيض الملفوف حول رأسها كان يلمع في الظلام. كنا محض أبدان. أبدان موتى. وبناء على ذلك، لم يكن ثمة فرق بيننا، لكن في الوقت ذاته كان هناك شيء أزليٌّ نبيل بخصوص صاحب هذه الجثة: كيف أن جسده ما زال يحمل آثار الأيادي التي لمسته، دليلًا ماديًا على أنه قد حظي برعاية خاصّة، على أنه ذو قيمة. جعلني هذا أشعر بمزيجٍ من الحسد والحزن فجسدي المنسحق الفاقد لهيئته الطبيعيةٍ أسفل برج الجثث الأخرى يبدو مخزيًا ومُقرِفًا.

منذ تلك اللحظة، ملأني كره شديد نحو جثتي، نحو جسدي. نحو جثثنا الملقاة هناك ككتل اللحم. نحو وجوهنا المتعفّنة القذرة التي تفوح منها رائحة نتنة تحت أشعة الشمس الحارقة.

***

لو كنت أستطيع إغلاق عينيّ.

لو كنت أستطيع الفرار من رؤية جثثنا، ذلك اللحم البشريّ المتقيّح الذي امتزج الآن في كتلة واحدة أشبه بجثة متعفّنة لوحش متعدّد الأرجل.

لو كنت أستطيع أن أنام. لا أقصد تلك الحالة الضبابية المتقطعة من اليقظة بل أن أنام حقًّا بكل جوارحي. أن أغوص بسرعة حتى قاع وعيي الحالك الظلام، وأستقرّ هناك.

لو كنت أستطيع الاختباء في الأحلام...

أو ربما في الذكريات.

لو كنت أستطيع العودة بالزمن إلى الصيف الماضي، حين كنت أنتظر في رواق المدرسة انتهاءَ حصتكَ، مبدّلًا القدم التي أستند بها إلى الجدار بين الفينة والأخرى بنفاد صبر. انتظرت حتى رأيت المعلّم يخرج من الفصل إلى الرواق، فعدّلت من هندامي في عجالة. انتظرت حتى شاهدت كل الصبية يغادرون إلا أنت فخطوت إلى داخل الفصل لأشاهدكَ تمسح السبورة.

«ماذا تفعل؟».

«إنه دوري هذا الأسبوع».

«تمامًا كما كان دورك أيضًا في الأسبوع الماضي، أليس كذلك؟».

«حسنًا، كان من المفترض أن يقوم بذلك طالب آخر هذه المرة، لكن لديه موعد غرامي، لذا وافقتُ على تبديل دوري معه».

«أنت أحمق!».

اللحظة التي التقت فيها عينانا، وانفجرنا ضاحكَين بعفوية. اللحظة التي وجد فيها غبار الطباشير طريقه إلى أنفي مثيرًا بداخلي رغبة لا تقاوم في العطس. اللحظة التي دسستُ فيها ممحاة السبورة التي فرغتَ من هزها إلى داخل حقيبتي خلسة. اللحظة التي نظرت فيها إلى وجهك المرتبك، ورويت لك قصة أختي بنبرة متجرّدة من أي تفاخر أو حزن أو خجل.
في تلك الليلة كنتُ مستلقيًا وقد سحبت اللحاف حتى أعلى بطني متظاهرًا بالنوم. عادت أختي إلى البيت من مناوبة عملها في المصنع في وقت متأخّر كعادتها. وصلت إلى مسامعي أصوات مألوفة: تجهيزها للمنضدة المجاورة لحوض المطبخ، ثم إضافتها الماء إلى أرزّها الذي أصبح باردًا. فتحت

عينيَّ. من خلال بصيص الضوء الواهن في قلب العتمة، راقبت ظلَّها وهي تغسل يديها وتفرشي أسنانها، ثم تقف على أطراف أصابعها أمام النافذة لتتأكد أن القرص الطارد للبعوض يحترق بشكل جيّد. هناك اكتشفت ممحاة السبورة التي وازنتُها على حافة النافذة الضيّقة، فضحكتفي البداية ضحكة خافتة أشبه بتنهيدة قبل أن تنفجر بعد ذلك بلحظات قليلة ضاحكة ضحكة مُجلجلة مقتضبة.

هزَّت رأسها وهي تلتقط الممحاة قبل أن تعيدها بسرعة إلى مكانها. كما تفعل كل ليلة، بسطَت لحافها على الأرض بعيدًا عن مكاني بأكبر قدر ممكن تسمح به المساحة الضيّقة للحجرة مخافة أن توقظني. ثم زحفَت على ركبتيها تجرُّ قدميها في تثاقل إلى حيث أنام. حالما تبلغ مكاني، أكون قد أغلقت عينيَّ بقوة. أحسّ بيدها تمسُّ جبهتي ثم خديّ قبل أن أسمعها تزحف في سكون إلى مكان نومها مرة أخرى، ثم صوت حفيف اللحاف وهي تنزلق بجسدها تحته. في الظلام يتردّد في رأسي صدى ضحكتها مرة أخرى: في البداية ضحكة خافتة أشبه بتنهيدة قبل أن تنفجر بعد ذلك بلحظات قليلة ضاحكة ضحكة مُجلجلة مقتضبة.

كانت تلك هي الذكرى التي كان عليّ التشبث بها هناك بين أجمة الشجر شديدة العتمة. كان عليّ استحضار كل إحساسٍ

ضئيلٍ متعلّق بتلك الليلة حين كنت ما أزال أمتلك جسدًا. الرياح الباردة المثقلة بالنداوة التي هبّت عبر النافذة في وقت متأخّر من تلك الليلة، وحفيفها الناعم عند ملامستها لباطن قدميّ الحافيتين. شذا المرطّب الذي يفوح من اتجاه أختي النائمة ممتزجًا برائحة زيت النعناع المتصاعدة من اللاصقات المسكنة للألم التي تضعها على كتفيها وظهرها المتوجّعة. الجراد في الفناء بصراخه الخافت الذي لا يكاد يُسمع. أشجار الخطمي الشامخة أمام بيتنا. الزهور البرية المزدهرة في مقابل جدار فناء منزلك. وجهي الذي مسَّدَته يد أختي مرتين. وجهي الحالم مغمض العينين الذي أحبّته أختي كثيرًا.

***

احتجتُ إلى المزيد من الذكريات.

احتجتُ أن أبقيها دائرةً في رأسي أسرع وأسرع في تيارٍ مستمرٍ.

تذكّرت ليالي الصيف حين كنت أغسل عنقي وظهري في الفناء. قطرات المياه الباردة التي ملأتَ بها الدلو المعدني، المتناثرة كجواهر متلألئة، وأنت ترشّها فوق جسدي المتعرّق.

أتتذكّر كيف كنت تضحك وأنت تشاهد جسدي يقشعرّ بينما أتأوه من برودة المياه؟

أتذكّر ركوبي الدراجة بمحاذاة النهر، وريح عاتية تلفح وجهي بقوّة بينما أشقّ طريقي عبرها مثل مقدّمة سفينة تمخر عباب البحر. أتذكر قميصي الصيفي الأبيض يرفرف مثل جناح طير. أتذكر سماعَك تهتف باسمي، وأنت تقود دراجتك من خلفي. ضغطي على بدَّالات الدرّاجة بكل ما أوتيت من قوّة. صيحة البهجة التي أطلقتها وأنا أسمع صوتك المُحتج يتضاءل بينما تتّسع المسافة بيننا.

كان يوم أحد. في الحقيقة كانت ذكرى ميلاد بوذا. كنت برفقة أختي في طريقنا إلى غانغجين لقضاء اليوم هناك، كي نظهر احترامنا وحبنّا لأمّنا في المعبد حيث تُقدّسُ روحَها. عيدان الأرزّ الربيعي في حقلٍ ممتدٍ على جانب الطريق تعبر بسرعة في المشهد خارج نافذة الحافلة. أختاه، العالم أشبه بحوض سمك. المياه الصافية التي تغمر حقل الأرزّ، تلمعُ في أشعة الشمس مُشكِّلة مرآة مُتصلة - كان ذلك قبل موسم الغرس مباشرة- تعكس امتدادًا لا نهائيًا للسماء. رائحة الأكاسيا تنفذ من خلال النافذة المغلقة فيرتعش منخاري بشكل آلي.

أتذكّر احتراق لساني عندما قضمت بطاطا ساخنة أعطتها لي أختي فنفخت فيها بسرعة قبل أن أقذفها داخل فمي.
أتذكّر لبَّ ثمرة بطيخ مُحَبَّبة مثل بِلّورات السكر. بذورها السوداء اللامعة التي لم أهتم بإزالتها قبل أن ألتهمها.

أتذكّر ركضي عائدًا إلى البيت حيث تنتظرني أختي. أتذكّر معطفي بسحّابه المغلق على رغيف من خبز الأقحوان، قدميَّ الخدِرتين من البرد. ورغيف الخبز الساخن جدًّا على صدري.

توقي لأن أكون أطول.

توقي لأن أقوم بتمرين الدفع الصاعد لأربعين مرّة على التوالي.

شوقي للمرة الأولى التي سأضم فيها امرأة بين ذراعيَّ. المرأة الأولى التي ستمنحني هذا الحقّ. المرأة التي لا أعرف وجهها بعد. المرأة التي أتطلّع إلى مدِّ أصابعي المرتجفة لتلامس الحافة الخارجية لقلبها.

أفكرُ في الجرحِ المتقيّحِ في جنبي.

في الرصاصة التي مزَّقت جسدي هناك.

في البرودة الغريبة، وفي القوة التي اخترقتني، وفي الصدمة الأولية،

التي تحوّلت في لحظة إلى كتلة نار، رجَّت داخلي رجًّا.

في الثقب التي خلفته في جنبي الآخر،

حين اندفعت مغادرةً، وهي تسحب وراءها دمائي الساخنة.

في فوهة البندقية التي انطلقت الرصاصة منها.

في زنادها الأملس.

في العين الغادرة التي وقعتُ في مرمى بصرها.

في العيون التي أعطت الأمر بإطلاق الرصاص.

رغبت في رؤية وجوههم، في أن أحوم حول جفونهم النائمة كشعلة مرتعشة، في أن أنسلَّ إلى داخل أحلامهم، في أن أقضي الليالي معششًا داخل جبهاتهم وجفونهم إلى أن تمتلئ كوابيسهم بصورة عينيّ. عيناي والدم ينزف منهما. رغبت في فعل كل ذلك إلى أن يسمعوا صوتي يسألهم، يطالبهم بإجابة عن هذا السؤال: لماذا؟!

***

الأيام والليالي التالية مرّت مرور الكرام. تتابعٌ من فجرٍ وغسق. الضوء الشاحب نفسه، والظلال المخضَّبة بالأزرق ذاتها. باستثناء ذلك، كان كل ما يحدّد مرور الوقت هو صوت محرِّك الشاحنة العسكرية، طنينٌ عميق في سكون الليل، وشعاعا ضوء الكشافَيْن الأماميين المتماثلان وهما يخترقان العتمة.

في كل مرة تمر فيها الشاحنة بالمكان، يزداد برج الجثث المغطى بكيس القش علوًا. جثث جماجمها مهشَّمة ومثقوبة، وأكتافها مخلوعة. من حين إلى آخر، تصل جثث لا تزال محتفظة بهيئتها سليمة نسبيًّا، وقد لبست بعناية أردية مستشفى مُهندمة وغُطيت جروحها بالضمادات.

ذات مرّة، بدت للوهلة الأولى جثث عشرة أشخاص قد انتهوا للتو من تكويمها كأنها بلا رؤوس. في البداية تصورتُ أن رؤوسهم قد قُطِعت لكن سرعان ما أدركت أنَّ وجوههم مطموسة، وقد دُهِنت بأكملها بطلاء أبيض.
انكمشتُ بسرعة إلى الوراء من هول الصدمة. بأعناقها المحنية للوراء، كانت وجوه الجثث الناصعة البياض تميل جهة أجمة الشجر وتحدّق نحو الفراغ بينما ملامحها ممحوَّة تمامًا.

***

هل كانت كل تلك الجثث مكتظة في ذلك الشارع؟

هل كانت مرصوصة هناك إلى جانبي، تحتكُّ بمرفقي؟ هل كانت قبل موتها جزًا من ذلك الكيان البشري الهائل الذي اتّحدت أصواته في علوّها وانحسارها في صوت واحد، يهتف ويغنّي ويهلّل ترحيبًا بالحافلات وسيارات الأجرة التي كانت

تعبر على بعد ياردات من التظاهرة وكشّافاتها مضاءة تعبيرًا عن تضامنها مع المتظاهرين؟

ماذا حدث لجثتَيّ الرجلين اللذين رميا بالرصاص، وسقطا أرضًا أمام المحطة وحملهما المتظاهرون إلى داخل عربة يد ثم دفعوها إلى الصفوف الأمامية؟ ماذا حدث لزوجَيّ الأقدام التي تمرجحت في الهواء بخفةٍ، عاريةً على نحو يكاد يكون غير لائق. لاحظتُ الرعشة التي سرت في جسدك -يا دونغ هو- حينما وقعت عيناك على الجثتين. أغلقت عينيك بشدّة واهتزّت رموشك باهتياج. قبضتُ على يدك، وقدتك إلى الأمام نحو المقدِّمة بينما تمتمتَ إلى نفسك غير مصدقٍ: جنودنا يطلقون الرصاص. يوجّهون طلقاتهم إلينا! سحبتك نحو الجماهير الأمامية بكل قوتي وفتحت فمي لأغنّي بينما بدوتَ على وشك البكاء. غنيتُ مع الحشود النشيد الوطني وقلبي على حافة الانفجار.

كان ذلك قبل أن تنطلق الرصاصة الملتهبة من مكمنها لتندفع مخترقة جنبي. كان ذلك قبل أن تمّحي تلك الوجوه، وتُطمس بطلاء أبيض.

***

اندفع العفن بسرعته القصوى داخل الجثث في قاع البرج. نخرت يرقات بيضاء فيها. لم تترك سنتيمترًا من جلدٍ لم تمسسه. راقبتُ في صمت وجهي يسودُّ وينتفخ، وملامحي تتحوّل إلى قُروحٍ ملتهبة، والهيكل الخارجي الذي كان يحدّد هيئتي ويمنحني شكلًا مميزًا يستحيل إلى مسخٍ لا شيء فيه يمكن أن يُتَعرَّف عليه على أنه أنا.

بينما يشتدّ الظلام، أتى المزيد من الظلال -المتزايدة باطراد- وتزاحمت من حولي. كانت لقاءاتنا مرتجلة بابتذال دائمًا. كنا عاجزين عن التعرّف على هوية الآخر، مع هذا كنا قادرين بشكلٍ غامضٍ على تخمين المدة التي قضيناها معًا هنا. حين أتى لملامستي ظلّانٍ: روح موجودة هنا منذ البداية مثلي، وأخرى وافدة حديثًا - يتمدّدان بمحاذاة الأسطح المستوية وينكمشان عند الحواف-، استطعت بشكل ما التمييز بينهما. لا يمكنني أبدًا معرفة كيف أفعل ذلك. بدت بعض الظلال موسومة بثقل أوجاع تنغِّصها منذ أمد بعيد. أوجاع أعجز عن استيعاب مدى عمقها. هل كانت تلك أرواح الأجساد الممزّقة ثيابهم بشدة والملطخة أظافرهم بكدمات أرجوانية عميقة؟ كلّما تلامست حدود ظلالنا، انتقل إليّ صدى معاناة مروِّعة أشبه بصدمة كهربائية.

هل كان من الممكن أن نصل في النهاية إلى لحظة من الفهم لو مُنِحنا وقتًا أكثر قليلًا؟ هل كان من الممكن أن نعثر على طريقة لتبادل بضع كلمات أو أفكار؟

لكن في النهاية قُطع خيط الليالي والأيام الهادئة ذات يوم.

انهمر المطر بغزارة طوال فترة بعد ظهر ذلك اليوم. شِدّته تكفي لأن تغسل الدماء المتجلِّطة عن جثثنا. هذا التطهير غير المتوقَّع لأبداننا، التعفّن ساعد على السريان بسرعة أكبر. لمعت وجوهنا السوداء المخضَّبة بالأزرق بكآبة تحت ضوء القمر المكتمل.

هذه المرة وصلت الشاحنة مبكرةً عن المعتاد، وصلت قبل منتصف الليل. ككلّ مرّة عند سماعي صوت اقتراب الرجال، انحرفتُ مبتعدًا عن برج الجثث وامتزجت بظلال الأجمة. في الأيام القليلة الماضية كان يحضر نفس الرجلين كل ليلة، لكن هذه المرّة لاحظت فورًا وجود ستة أشخاص على الأقل. قبضوا بخشونة على الجثث الجديدة، وحملوها ناحيتنا، ثم ألقوها بلا اكتراث على عكس شكل الصليب المنتظم، كما كانوا يكدسون الجثث السابقة عادة. بمجرد فراغهم من مهمّتهم، تقهقروا بسرعة إلى الوراء وهم يغطون أنوفهم

ووجوههم بأيديهم، كأنما يمسكون أنفسهم عن التقيؤ بسبب الرائحة النتنة. حدّقوا في برج الجثث وعيونهم تعلوها نظرات خاوية.

ذهب أحدهم إلى الشاحنة، وعاد يحمل صفيحة بلاستيكية تحوي بنزينًا. كتفاه وذراعاه مشدودة تحت ثقل حمله بينما يجرّ قدميه متجهًا نحو جثثنا.

هذه هي النهاية، فكرت. ارتعش حشد ظلال الأرواح الحائمة من حولي، فاحتكت باهتزازاتها الناعمة بي وببعضها البعض. لقاءات مضطربة مقتضبة في الفراغ قبل أن تتشتّت الظلال بسرعة، وتتداخل خلالها حوافّها مرة أخيرة في رفرفة صامتة.

تقدم جنديان كانا يقفان في الخلف وحملا معًا الصفيحة البلاستيكية عن زميلهما. سكبا البنزين فوق أبراج الجثث بأيدٍ ثابتة ومُدرَّبة كأنما يتأكدان من أن كل جثة مغطاة بالقدر نفسه من البنزين، وأن كل جثة قد نالت حصتها العادلة منه بلا زيادة أو نقصان. فقط بعد أن صبّا آخر قطرة بنزين، تراجعا إلى الوراء إلى مسافة آمنة بمنأى عن الجثث. نزع كل منهما غصنًا كبيرًا من شجيرة جافة وأوقد ولّاعته ثم في اللحظة التي التقط فيه الغصن النار، رماه إلى الأمام بكل عزمه.

***

كانت ثيابنا المتصلّبة بدماء جافة وأنسجتها المتحلّلة الملتصقة بلحمنا أول ما أمسكت به النيران. ثم بعد ذلك التهمت النيران بثباتٍ الشعر السميك لرؤوسنا، ثم طبقة الجلد الرقيقة التي تغطي أجسادنا، ثم الدهن والعضلات، ثم الأحشاء الداخلية في النهاية. زأر اللهب المتوهّج والمتضخّم باطراد في عتمة الليل كأنما يهدد بابتلاع غابة الشجر. استحال الليل في قطعة الأرض الجرداء نورًا ساطعًا كما لو كنا في وضح النهار. لحظتها أدركت أنَّ ما كان يربطنا بهذا المكان هو فقط ذلك اللحم والشعر وتلك العضلات والأعضاء. وهكذا بدأت قوة الجذب التي تبقينا متّصلين بأجسادنا تفقد قوتها بسرعة. في البداية انزلقنا عابرين خلال وأسفل بعضنا البعض، كنسمات هواء ونحن ننكمش إلى الوراء نحو أجمة الشجر، قبل أن نتمكّن في النهاية من التشبّث بالذرات الثقيلة للأدخنة السوداء، التي تلفُظها جثثنا المحترقة، ونرتفع معها عاليًا في السماء كما لو كنا زفير نَفَسٍ واحدٍ.

شرع الجنود في العودة إلى الشاحنة ما عدا اثنين بدا أنهما قد أُمِرا بالبقاء ومراقبة النيران حتى النهاية، بقيا في مكانهما واقفين بانتباه. شققت طريقي إلى أسفل نحوهما ورفرفت حول عنقَيْهما وأكتافهما حيث يحمل أحدهما شارة عسكري من

الدرجة الأولى، والآخر رتبة رقيب. أمعنت النظر في وجهيهما. كم كانا شابَّين. كيف كانت مقل عيونهم السود الجاحظة من الخوف تعكسُ صورة جثثنا المحترقة.

فرقعت الشرارات التي تتقاذفها النيران مثل الألعاب النارية. وهسهست المياه في أحشاء جثثنا أثناء غليانها حتى جفَّت الأعضاء وذبلت. واصلت الأدخنة السوداء انبعاثها من جثثنا المتعفّنة في نفثات متقطعة، بينما في الأماكن التي لم يعد فيها شيء ليحترق، تعرَّت العظام كاشفة عن بريقها الأبيض. ارتحلت أرواح الأجساد الآخذة في الاضمحلال بعيدًا. لم أعد استشعر ظلالها المتموّجة من حولي. هكذا أصبحنا في النهاية أحرارًا للذهاب حيثما نشاء.

أين أذهب؟ سألت نفسي.

إلى أختك.

لكن أين أختي؟

بذلت قصارى جهدي لأحافظ على هدوئي. كانت جثتي في قاع البرج لذا ما زال لديَّ بعض الوقت قبل أن تلتهم النيران جثّتي تمامًا.

اذهب إلى مَنْ قتلوك.
لكن أين مَنْ قتلوني؟

دثَّرت ظلال أجمة الشجر السوداء كالحبر التربة الرملية الرطبة للأرض الجرداء بنقط داكنة. حلّقتُ وسط بقع النور والظل تلك، مفكِّرًا أين ينبغي أن أذهب؟ وكيف يمكنني الذهاب إلى هناك؟ ربما من المفترض أن أشعر بالامتنان على السهولة والسلاسة التي سيختفي بهما وجهي المُسوَدّ المتعفّن من الوجود. جسدي الذي سبَّب لي كل هذا العار سوف تبتلعه النيران أخيرًا. -وهذا ليس سببًا للندم-. أردت أن أتجرّد بذاتي إلى وجود أبسط تمامًا كما كنت لأريد لو كنت ما زلت على قيد الحياة. كنت مصممًا ألّا أخاف من أي شيء بعد الآن.

سأذهب إليك.

وهكذا بات كلُ شيءٍ واضحًا.

لا داعي للعجلة. طالما انطلقت قبل شروق الشمس فسأتمكّنُ من الوصولِ إلى قلب المدينة، تُرشِدُني الأضواءُ المنسابة من النوافذ. سأتمكن من شق طريقي عبر الشوارع المُنارة إلى البيت، الذي اعتدنا أنا وأنت على العيش فيه. ربما ستتمكّن أنت من العثور على أختي أثناء ذلك. ربما سأتمكّن من توديعها مرة أخيرة بالطريقة الوحيدة التي أستطيع بها ذلك بأن أرفرف حول حوافّ جثتها. أو ربما تمكّنت روحها المتحرّرة من جسدها من العودة بالفعل إلى الحجرة التي كنا نتشاركها، ربما تحوم الآن قرب النافذة أو فوق الممشى الحجريّ البارد في انتظاري.

***

انزلقتُ بين نيران الحريق البرتقالية الآخذة في الاشتعال. استحال برج الجثث إلى ركامٍ لا يمكن تمييزه من جمرٍ متّقدٍ والتحمت الجثث -التي كان يمكن فَصلها من قبل- معًا في خليطٍ واحدٍ.

انحسرت النيران تدريجيًا مُفسِحة المجال للظلام كي يزحف إلى غابة الشجر من جديد. كان الجنديان جاثمَيْن على الأرض وظهراهما ملتصقين، نائمَين كالموتى. حينئذ سمعته: دويٌّ

رعدٍ هائلٍ، أشبه بصوت انطلاق آلاف الألعاب النارية في آنٍ واحدٍ. صرخةٌ بعيدةٌ. صوتُ أنفاسٍ حيّة تُنتزع من جسدٍ أشبه بصوت فرقعة انكسار رقبة. صوت أرواح تنفصم عن أجسادها.

***

كانت تلك هي اللحظة التي مُتَّ فيها، يا دونغ هو.

لم أعرف أين. فقط علمت كنه تلك اللحظة: لحظة موتك.

اندفعت إلى أعلى وأعلى مخترقًا السماء الخالية من أي نور. كان كل شيء من حولي حالك الظلمة. لم يكن هناك أي نور مضاء في أي مكان في المدينة. لا في أيّ حي، ولا في أيّ بيت. كان هناك فقط نقطة ضوء بعيدة حيث أبصرت تدافع من الشعلات الضوئية تنطلق إلى أعلى، شذرات متلألئة من الضوء تتناثر من فوّهات البنادق.

هل كان عليّ القدوم إليك في لحظتها؟ لو فعلت، لكان بمقدوري أن أعثر عليك يا دونغ هو، وأن أزيل عنك الرعب الذي لا بدَّ قد اعتراك لحظة انفصالك عن جسدك؟

وسط قطرات الدم الثقيلة والسميكة التي ما زالت تتدفَّق من عينيّ ظلِّي الشَّبَحيتين، وسط ضوء الفجر الذي ينسلخ عن عتمة الليل ببطء كجبلٍ جليديٍّ، شعرتُ بعجزي التام عن الحركة.

الفصل الثالث

سبع صفعات

(المحرِّرة 1985م)

في الساعة الرابعة عصرًا من بعد ظهيرة يوم أربعاء، تلقّت المحرِّرة كيم أون سوك سبعَ صفعاتٍ على خدِها الأيمن. صُفِعت بقوةٍ كبيرةٍ على خدها في الموضع نفسه مرةً وراء الأخرى إلى درجة أنَّ الشعيرات الدموية التي تمتد فوق عظام وجنتها اليمنى انفجرت وانبثق الدم عبر جلدها المُمزَّق. كم صفعة تلقتها قبل أن تنزف؟ ليست متأكدة.

خرجت من قسم الشرطة إلى الشارع وهي تمسحُ خيط الدمِ بظهر يدها. كان جَوّ أواخر نوفمبر صافيًا. كانت على وشكَ أن تخطو فوق معبر المشاة حين توقفت في مكانها، متسائلةً إذا كان من الحكمة أن تعود إلى مكتب دار النشر أم لا. كان جلدُ وجهها المتمدّد بفعل جُرحها يضغط على خدها الذي يزداد تورّمًا بسرعة. باتت أذنها اليمنى صماءَ بشكل مؤقت. صفعة أخرى كانت كفيلة بتمزيق طبلة أذنها. ابتلعت دمها المعدني المذاق الذي تجمّع على طول لثّتها، ثم التفتت إلى موقف الحافلات التي تستقلّ إحداها إلى بيتها.

الصفعة الأولى

الآن تبدأ عملية نسيان الصفعات السبع. صفعة كل يوم. وهكذا ستنتهي العملية في غضون أسبوع. اليوم إذًا أول يوم.

أدارت كيم أون سوك المفتاح في القفل، ثم دلفت إلى داخل حجرتها المُؤجَّرة. خلعت فردتي حذاءها وصفَّتهما بعناية ثم رقدت على جنبها فوق الأرض. أراحت خدّها الأيسر فوق ذراعَيْها المطويين. ما زال خدّها الأيمن متورّمًا ويضغط على أسفل عينها اليمنى، بحيث تعجز عن فتحها بشكل طبيعي. امتد ألم الأسنان الذي بدأ في أضراسها العلوية إلى صدغيها.

بعد الاستلقاء في الوضع نفسه لقرابة العشرين دقيقة، نهضت كيم أون سوك من مرقدها. خلعت ثيابها ما عدا لباسها الداخلي الأبيض، ثم جرّت نفسها إلى الحمّام. ارتطم تيار ماء الصنبور البارد بوجهها المتورّم. فتحت فمها بالقدر الذي أمكنها، وفرشَت أسنانها برقّة كما لو كانت تربّت عليها. رنّ الهاتف ثم سكت. جفَّفَت قدميها المبللتين بمنشفة. بمجرّد أن خطت داخل حجرتها مرة أخرى عاود الهاتف الرنين. مدّت يدها لتلتقط السماعة لكنها غيّرت رأيها. نزعت سلك الهاتف من الحائط.

«ماذا سيحدث لو أجبت؟»، تمتمت لنفسها وهي تفرد الحصيرة الرفيعة واللحاف القطني. لم تكن جائعة. كان يمكنها إجبار نفسها على أكل أي شيء، لكن كان ذلك ليسبب لها مغصًا. شعرت بالبرودة أسفل اللحاف فانكمشت في موضعها مثل كرة. فكّرت أن المكالمة الهاتفية لا بد وأنها كانت من المكتب. ربما المدير. تخيلت نفسها تجيب على المكالمة: «أنا بخير. لم يحدث شيء. ضربوني فقط. لا، بضع صفعاتٍ فقط. لا، سيمكنني القدوم إلى العمل غدًا. أنا بخير، لا أحتاج للذهاب إلى المشفى. وجهي متورِّم قليلًا. هذا كل شيء». من الجيّد أنها نزعت السلك.

بينما يأخذ قماش اللحاف في تدفئة جسمها، اعتدلت في مجلسها بحذر. خارج النافذة بلغت الساعة السادسة مساء، وعمّ الظلام بالفعلً. توهّجت مصابيح الشوارع بنور برتقاليٍّ كئيبٍ تسلّل عبر زجاج النافذة. حالما تبدَّد شيء من توتّرها بفضل شعورها بالدفء وجلستها المريحة، حولت تفكيرها صوب المهمّة بين يديها.

كيف سأنسى الصفعة الأولى الآن؟

عندما صفعها الرجل أول مرة، لم تُصدر صوتا أو ترتد إلى الوراء تحسبًا لتلقّي صفعة أخرى. بدلًا من أن تقفز من فوق مقعدها أو تختبئ أسفل منضدة حجرة الاستجواب، أو تندفع نحو الباب، تسمَّرت في مكانها في سكون وهي تحبس أنفاسها. مع الصفعات الثانية والثالثة وحتى الرابعة، كانت تخبر نفسها أنها بكل تأكيد الصفعة الأخيرة. فقط حين طار كفّه نحوها للمرة الخامسة بدأت تفكّر: لن يتوقّف أبدًا. سيواصل ضربي إلى الأبد. بعد الصفعة السادسة لم تعد تقوى حتى على التفكير. توقّفت عن عدّ الصفعات. لكن بعد آخر صفعة، وبعد أن ابتعد الرجل بجسده عن الطاولة التي تفصل بينهما، ويجلس باسترخاء مستندًا بظهره إلى مقعد المكتب، أضافت في صمت صفعتين إلى آخر عددٍ احتفظت به في ذاكرتها، فبات العدد سبعًا.

كان وجه الرجل عاديًّا جدًّا. شفتان رفيعتان، ولا شيء ملفت في ملامحه. يرتدي قميصًا لونه أصفر فاتح وله ياقة عريضة. ويحيط بخصر بنطلون سترته الرمادي حزام يلمع إبزيمه. لو التقيا في الشارع بالصدفة لظنّت أنه مدير شركة تقليدية أو موظف كبير فيها.

«أنتِ عاهرة. تخيَّلي عاهرة مثلكِ في مكان كهذا. أي شيء يمكن أن يحدث ولن يكتشف أحدٌ شيئًا».

في تلك الأثناء كانت قوةُ الصفعاتِ قد فجَّرت الشعيرات في خدها، ومزّقت أظافر الرجل جلد وجهها. لكن لم تحسّ أون سوك بذلك بعد. حدّقت بنظرة خاوية في وجه الرجل.

«انصتي إلى ما أقوله لك. إذا كنتِ لا تريدين الموت في حفرة لن يستطيع حتى الفئران والغربان العثور على جثتك فيها، فلتخبريني بمكان ذلك اللعين؟».

قابلت المترجم - ذلك اللعين- منذ أسبوعين في محل مخبوزات قرب نهر تشونج جاي تشون. كان ذلك في اليوم الذي انقلب فيه الطقس فجأة فاضطرّت للتنقيب وسط ثيابها الشتوية كي تعثر على كنزة لترتديها.

مسحت بمنديل بقعة مبلّلة خلَّفها قدح شاي الشعير الذي طلبته، وهي تضع مسودة الكتاب على المنضدة أمام المترجم.

«خذ وقتك يا سيدي». قالت له.

بينما انهمكت في تفتيت قطع من خبز الستروسل المقرمش، والتهام كل حفنة منها مع رشفة من الشاي البارد، قرأ الرجل المسودة بدقّة بالغة. استغرق ساعة تقريبًا، مستفسرًا بين حين وآخر عن رأيها في بعض الإضافات والتعديلات الطفيفة، التي يمكن إدخالها على النص. ختم ذلك باقتراح إلقاء نظرة سريعة معًا على العناوين الرئيسة. حملت مقعدها إلى جانبه من المنضدة وألقيا نظرة على المسودة ورقةً ورقةً، مراجعين التعديلات المقترحة والعناوين الرئيسة. قبل أن يفترقا سألته كيف تتواصل معه عندما يُنشر الكتاب. ابتسم لها:

«سأبحث عنه بنفسي في متجر الكتب».

أخرجت مظروفًا من حقيبتها وناولته له.

«هذه حقوقك عن الطبعة الأولى. قال المدير إنه يفضِّل أن تحصل عليها مقدمًا».

تناول المترجم المظروف من دون تعليق ووضعه في جيب معطفه الداخلي.

«كيف سنتواصل معك لتسليمك أي عوائد أخرى في المستقبل؟».

«سأتصل بكم لاحقًا».

الانطباع الذي تركه لديها بعيد كل البعد عن مجرم مطلوب للعدالة. إذا وصفته لقالت إنه يبدو خجولًا بعض الشيء. بَشَرَته مُصفرّة، تنمّ عن مشكلة معينة في كبده، لكن ربما كان سبب

ذلك قضاؤه الكثير من الوقت في الداخل بعيدًا عن الشمس. قد يفسّر ذلك أيضًا بطنه الممتلئة وفكه الدهني.

«أنا آسف جدًّا على جعلك تقطعين كل هذه المسافة في مثل هذا اليوم البارد».

ابتسمت بداخلها على هذا التعليق الكيِّس الذي لا داعي له بالنسبة إلى شخص يفوقها مقامًا بكثير.

***

«عثرنا على هذا في درج مكتبك أيتها العاهرة. ذلك اللعين من كتب ذلك، ومع هذا تخبرينني أنك لا تعرفين مكانه؟».

متجنّبة نظرات الرجل وهو يلقي بالحزمة التي تحوي المسودة فوق الطاولة، ركزت أون سوك عينيها على الأسطوانة المتربة لمصباح الفلورسنت. سيبدأ في ضربي من جديد، أغمضت عينيها وهي تفكّر في ذلك.

لا تعرف لماذا خطرت النافورة في بالها في هذه اللحظة بالذات. وراء جفنيها المغلقين رأت تيارات المياه المتلألئة تتدفع من النافورة في سماء يونيو. تذكّرت كيف كانت تغلق عينيها بإحكام حين تمر بالحافلة قرب النافورة في عمر الثامنة عشرة. تخترق انكسارات أشعة الشمس الحادّة المنعكسة عن قطرات المياه جفنيها المتورّدين بفعل الحرارة وتلسع مقلتيها. ترجَّلت من الحافلة عند الموقف أمام منزلها واتّجهت مباشرة صوب كابينة الهاتف العمومي. ألقت حقيبتها المدرسية عن كتفيها على الأرض، ومسحت العرق المتصبِّب على جبهتها، وأدخلت عملة معدنية داخل الشق المخصَّص لذلك واتصلت بدليل الهاتف وانتظرت. «رجاءً، أريد رقم قسم الشكاوى في مبنى المقاطعة». دوَّنت الرقم. أغلقت الخط، ثم أدارت الرقم الذي حصلت عليه. «لقد رأيت منذ قليل المياه تتدفّق من النافورة. لا أعتقد بأن ذلك مسموحٌ به». كان صوتها مهزوزًا في البداية، لكنه بات متماسكًا أكثر فأكثر مع مضيّها في الحديث. «ما أقصده هو لماذا تم تشغيل النافورة مرة أخرى؟ لقد ظلّت جافة منذ بدأت الانتفاضة، والآن تعمل مرة أخرى كأنَّ كل شيء قد عاد إلى طبيعته. كيف يمكن هذا؟!».

***

«لماذا سيعطي عنوانه أو هاتفه إلى محرّرة مساعدة في دار نشر لم يقابلها من قبل في حياته أبدًا، بينما عائلته نفسها لا تعرف كيف تتّصل به؟». تمكّنت أون سوك وهي ترمش

بعينيها بسرعة من أن تقول إنها لا تعرف. كانت في الحقيقة لا تعرف.

ضرب الرجل بكفّه على سطح المنضدة. تراجعت إلى الوراء، ورفعت يديها إلى أعلى غريزيًا، كدرعٍ يحمي وجهها كما لو كانت تتوقّع أن تتلقى صفعة أخرى. حينًها فقط - حين خفضت يديها-، حدّقت في اندهاش إلى كفها الملطخ بالدم.

***

«كيف سأنسى؟». تساءلت في ظلام الحجرة، « كيف أستطيع نسيان الصفعة الأولى؟».

كيف ستنسى نظرات الرجل التي تفحّصتها في صمت. نظرات هادئة ومتماسكة كنظرات شخص على وشك الانخراط في أداء مهمة عمل روتينية؟ كيف ستنسى منظرها وهي تجلس في مقعدها تفكر: « بالطبع، لن يضربني». وكيف ستنسى الصفعة الأولى التي نزلت على خدها بقوة شعرت معها وكأن رقبتها قد التوت.

الصفعة الثانية

زارت ابنة أخت الناشر -شابة نشيطة ومرحة تؤدّي بعض المأموريات من أجل الدار- المكتب قبل الغداء مباشرةً.

«أنتِ هنا!»، حيّاها عمها بدفء، لكن سرعان ما ألقى نظرة قلقة سريعة على أون سوك عندما رفعت رأسها عن الأوراق التي كانت تتفحَّصها.
«هل وصلت أي من مسودات الكتب المنتظرة؟»، سألت أون سوك وهي تبتسم بصعوبة. عاجزة عن أن تشيح بنظرها عن وجه المرأة التي تكبرها سنًا. عبثت ابنة أخت الناشر في محفظة أوراقها حتى سحبت منها مسودة كتاب.

«ماذا أصاب وجهكِ؟».

عندما لم تتلقَ جوابًا، نحَّت الشابة بـ يون المسؤول عن الإنتاج الفني في الدار وسألته السؤال نفسه: «ماذا أصاب وجه أون سوك؟»، بالكاد هزّ يون رأسه. اتسعت عينا الشابة والتفتت إلى عمها.

«لقد طلبت من أون سوك أن تعود إلى بيتها اليوم مبكرًا لتستريح، لكن ماذا يمكنني أن أقول، إنها امرأة عنيدة».

أخرج سيجارة من علبة سجائره ووضعها بين شفتيه ثم أشعلها. فتح النافذة بجوار مقعده وأطلّ برأسه عبر الشق الذي فتحه. سحب نفسًا عميقًا جدًّا منها، حتى انكمش خداه إلى الداخل تمامًا، قبل أن يزفر الدخان خارجًا. كان رجلًا في منتصف العمر، كلاسيكيًّا، حتى أكثر الملابس عصريّة تفشل في إخفاء ذلك. رجل يستخدم أسلوب الاحترام في حديثه حتى مع الشبان الذين قد يكونون في منزلة أبنائه. رجل رغم كونه رئيسًا لدار النشر الصغيرة هذه، يكره لقبَ «مدير»، ويرفض تمامًا أن يخاطبه أحدهم بأي لقب غير لقب ناشرٍ. وفي الوقت نفسه كان زميل دراسة المترجم الذي استجوب محقّق الشرطة كيم أون سوك عن مخبأه.

غادرت ابنة أخت الناشر المكتب حالما أنهت حديثها مع أون سوك، تاركة أجواء المكتب وقد تعكّرت. أطفأ المدير سيجارته وقال: « هل تحبّين تناول بعض الشواء على الغداء يا آنسة كيم؟ لا تقلقي، أنا من سيدفع. شرائح لحم بقر مشوي من ذلك المكان قرب تقاطع الطريق».

هذا التعبير المفاجئ عن المؤانسة أثار حفيظة أون سوك. لم تفكر في الأمر من قبل لكن الآن بدأت شكوكها تتنامى. لقد استُدعِي المدير إلى قسم شرطة سيوديمون في وقت مبكر من بعد ظهيرة الأمس، قبل وقتٍ قصيرٍ من تواجدها هناك. كيف أقنعهم أن يطلقوا سراحه من دون أنً يمسّوه بأذى؟

«شكرًا على هذا العرض. أفضِّل تناول شيء بمفردي». ربما بدا جوابها باردًا شيئًا ما لكن لم يكن بيدها حيلة، فوجهها المتورّم يؤلمها بشدة عندما تحاول الابتسام. «تعلم يا سيدي أنني لا أحب اللحم». أضافت بسرعة.

«نعم، صحيح. لستِ عاشقة للحوم يا آنسة كيم». أومأ المدير برأسه.

لم يكن أكل اللحوم هو ما لا تطيقه أون سوك، بل كان ما يصيبها بالغثيان حقًّا هو مشاهدة اللحم وهو يُطهى على لوح الشواء. عندما تبرز العصارة والدم من اللحم تشيح بوجهها عنها. كذلك الأمر حين ترى سمكة تُشوى ورأسها لا يزال متّصلًا بجسمها. تلك اللحظة التي تتجمّع فيها قطرات الماء على جفون السمكة المتجمّدة وهي تُطهى في المقلاة، عندما يتساقط سائل مائي ممزوج بزَبَد رمادي من فمها المفتوح. في

تلك اللحظة ينتابها دائمًا شعورٌ غريبٌ بأن السمكة النافقة تريد قول شيء ما لها. لهذا كانت تدير وجهها بعيدًا عنها.

«إذًا ماذا تودين أن تأكلي يا آنسة كيم؟».

اختار يون تلك اللحظة ليتدخّل في الحوار.

«ستقرصُ أذنينا يا سيدي إذا ذهبنا إلى مكانٍ غالٍ، وكلّفنا المكتب فاتورة باهظة. فلنذهب إذًا إلى المقهى الذي ذهبنا إليه آخر مرة. «وجّه كلامه إلى المدير.

مع انضمام يون إليهما، اضطروا لإغلاق باب المكتب الفارغ وراءهم قبل أن يتوجّهوا إلى المقهى قرب تقاطع الطريق سيرًا على الأقدام. كان المقهى ملاصقًا لمطعم الشواء الذي اقترحه المدير في البداية. مكان عتيق جدًا حيث يُقدّم أرزًا بخاريًّا منزليًّا تعدّه صاحبة المطعم التي تنتعل في الصيف صندلًا يكشف عن ظفر قدم أسودّ متآكل بينما في الشتاء تسير في أنحاء المكان مرتدية جوارب قذرة وحذاء ثلج قديمًا باليًا.

بينما ينهون وجباتهم، التفت المدير إلى أون سوك وسألها: «هل أمرّ أنا على مكتب الرقيب غدًا؟».

«لكن هذه مسؤوليتي أنا دائمًا».

«حسنًا، حدث الكثير من المشكلات بالأمس. أنا آسف على تورّطك في ذلك».

نظرت إليه وهي تزن كلماته. كيف نجح في مغادرة قسم الشرطة من دون أيِّ أذى؟ أعن طريق الاعتراف بما حصل بدقة؟ كيم أون سوك محرّرة الدار. التقت بالمترجم في محل المخبوزات قرب نهر تشونج جاي تشون وراجعا نص مسوَّدة الكتاب. هذا كل ما أعرفه. التزام بقول الحقائق، لا شيء خاطئًا في ذلك! لكن هل أنّبه ذلك الشيء المرّ الذي يدعى الضمير أم لا؟

«هي مسؤوليتي دائمًا». كررت أون سوك بصرامة أكبر هذه المرة. حاولت رسم ابتسامة لكن الألم أعاق محاولتها البائسة. لوت وجهها بعيدًا لتتجنّب أن يرى المدير خدَّها المتورم.

***

بمجرد أن غادر الآخران المكتب إلى بيتيهما، لفَّت أون سوك وشاحها الأزرق الغامق حول الجزء السفلي من وجهها. تأكدت من أنّ الوشاح يغطي وجهها كلّه حتى أسفل عينيها. تيقَّنت من انغلاق محبس موقد الكيروسين، ثم أغلقت الأنوار وأنزلت قاطع التيار الكهربائي. وقفت أمام باب المكتب، زجاجه يعكس صورة معتمة للمكتب غير المُضاء. أغلقت عينيها للحظة وحسب كأنما تبث القوة في نفسها قبل أن تهم بالمغادرة.

بثَّت رياح المساء القارسة البردَ في الجلد حول عينيها، الجزء الوحيد من وجهها الذي يظهره الوشاح. رغم أن الوشاح يخفي تورّم وجهها إلا أنها أبت ركوب الحافلة. بعد يوم قضته جالسة إلى مكتبها، استمتعت بالسير بتمهّلٍ في الشوارع. كان ذلك هو الوقت الوحيد الذي تختار فيه ألّا تحجب الأفكار غير الناضجة، التي تطفو إلى السطح، من دون دعوة، بينما تشقّ طريقها بحذرٍ عبر الطرقات.

هل لأنه أعسر، صفع خدي الأيمن بكفه اليسرى؟ لكن عندما رمى مسوَّدة الكتاب على المنضدة وناولني القلم استخدم يده اليمنى بالتأكيد. أم إن سيل المشاعر هذا الذي يندفع في دم

الإنسان حينما يهاجم شخصًا يستثير ردة فعل عصبية في اليد اليسرى فقط؟

كان ذلك المذاق المرُّ في مؤخِّرة فمها مماثل لمذاق العصارة التي تندفع في الفم قبل نوبة غثيان. ابتلاع لعابها بشكل متكرّر كان الحيلة التي اعتادت عليها لكبح هذا الشعور المألوف بالغثيان. شعور ينتشر في مؤخّرة فمها وحلقها ومعدتها، وفي الآن نفسه يرتبط بشكل مجهول بأفكارها تلك. لكن ما كان ابتلاع ريقها كافيًا هذه المرة، فأخرجت علكة من جيب معطفها وبدأت تلوكها.

هل كانت اليد التي صفعتها صغيرةً مقارنة بأيدي معظم الرجال؟

شقَّت طريقها محنية الرأس متجاوزةً رجالًا يرتدون سترات لها اللون نفسه، وفتيات في سن المدرسة يضعن كمامات على وجوههن، ونساء تركت تنانيرهنّ القصيرة باطن سيقانهن معرَّضًا للسعات الرياح.

أم كانت يدًا مثل أي يدٍ أخرى، لا هي ضخمةٌ ولا هي خشنةٌ بشكلٍ خاصٍّ؟ يد يمكن أن يمتلكها أي رجل؟

واصلت المشي واعية بالضغط الطفيف الذي يفرضه الوشاح على خدّها المتورّم، وبرائحة الصمغ القوية التي تفوح من علكة الأكاسيا التي كانت تبقيها في الجانب الأيسر من فمها تحاشيًا للألم.
متذكِّرةً كيف تسمَّرَت هناك في مكانها لا تسعى للفرار، ولا تصدر عنها صرخة احتجاج، ولو حتى واهنة. متذكِّرة كيف اكتفت بالانتظار، وهي تكتم أنفاسها، الصفعة الثانية لتضرب وجهها. متذكِّرة ذلك، واصلت المشي.

الصفعة الثالثة

ترجّلت من الحافلة عند الموقف أمام قصر دوكسو. كان الوشاح ملفوفًا حول وجهها حتى أسفل عينيها مثل الأمس. أسفل الوشاح بدأ التورّم ينحسر مخلّفًا في مكانه أثرًا واضحًا لكدمة حمراء بحجم اليد.

أوقفها ضابط شرطة قوي البنية بملابس مدنية أمام قاعة المدينة.

«عذرًا، هلا فتحتِ حقيبتك؟».

تعرف أنّه يجب في مثل تلك اللحظات -كي تتمكّن من النجاة- أن ينفصل جزء من كيانها مؤقتًا عن الكلّ. أن ينسلخ مستوًى ما من مستويات وعيها بعيدًا. كان ذلك أشبه بطيِّ ورقة مجعدة من كثرة الاستخدام بسهولة اكتسبتها بحكم العادة.

فتحت حقيبتها وعرضت محتوياتها على الضابط -منشفة يد وعلكة أكاسيا ومقلمة ومسوَّدة الكتاب التي أحضرتها ابنة أخت الناشر إلى المكتب بالأمس، ومرهم فازلين لعلاج تشقق شفتيها ومُفكِرة وحافظة نقود- من دون ذرة خجل.

«ما سبب قدومك إلى هنا؟».

«لديّ موعد في مكتب الرقيب. فأنا أعمل لدى دار نشر»، نظرت في عينيّ الشرطي مباشرة.

أظهرت بطاقة هويتها حين طُلِب منها ذلك. راقبت الشرطي من دون حراك وهو يفتش الجراب الذي يحوي فوَطها الصحية. مثلما فعلت تمامًا في حجرة الاستجواب في قسم الشرطة قبل يومين، ومثلما فعلت في شهر أبريل ذاك الذي ضربت فيه الأمطار المتجمّدة البلاد قبل أربعة أعوام، بعد أن تكللت مجهوداتها أخيرًا باجتياز اختبار دخول الجامعة في محاولتها الثانية وانتقلت من غوانغجو إلى سيول.

كانت تتناول غداءها في وقت متأخّر من النهار في كافتيريا الجامعة عندما انفتح بابها الزجاجي بدويٍّ مسموعٍ، واندفع حشدٌ من الطلبة. تجمّدت يدها الممسكة بالملعقة بينما تشاهد مصعوقةً منظر رجال شرطة بملابس مدنية يطاردون الطلبة في أرجاء الكافتيريا مطلقين التهديدات وملوّحين بالهراوات. أحد رجال الشرطة كان مثارًا بشكل استثنائي. توقّف فجأة عن الركض أمام منضدة يجلس إليها صبي بدين فاغر الثغر، وأمامه طبق من الأرزّ والكاري. رفع الشرطي مقعدًا ورماه في الهواء جهة الطاولة. تدفق دم غزير من جبهة الصبي ولطَّخ أنفه وفمه. سقطت الملعقة من بين أصابع أون سوك. بعفوية انحنت لتلتقطها لكن قبضت يدها على منشورٍ سقط على الأرض. الخط السميك للكلمات اهتزَّ أمام عينيها:

«فلتسقطوا مع السفاح تشون دو-هوان».

جذبتها يدٌ خشنة بقوة من شعرها الطويل. انتزعت اليد الورقةَ من قبضتها ممزقة إياها ثم جرّتها من فوق مقعدها.

***

«فلتسقطوا مع السفّاح تشون دو-هوان». شعرت كأنّ تلك الكلمات منحوتة على صدرها، وهي تتأمل الآن صورة الرئيس تشون دو-هوان المعلّقة على الجدار الجصيّ. تساءلت كيف يمكن لوجه أن يخفي بخبث شديد الحقيقة المستترة وراءه؟ كيف لا يُدمغ وجهه بحبر لا يمَّحي بكل تلك الغلظة والقسوة والإجرام الكامنة بداخله؟

بينما تجلس بشكل غير مريح على مقعد أسفل النافذة، راحت تقضم جلد ظفرها. كانت الحجرة دافئة لكن لم تستطع أن تنزع وشاحها. تورّدت الندبة على خدها بفعل حرارة المدفأة. خلف طاولة في وسط الحجرة جلس رجل يرتدي زي قيادة القوات المسلحة. عندما نادى اسم ناشرها، توجّهت أون سوك إلى الطاولة وسلمته مسوَّدة الكتاب، وسألت عن مخطوطة المسودة التي كانت قد سلمتها للمراجعة منذ أسبوعين.

«رجاءً، انتظري هنا».

أسفل صورة القاتل يوجد باب له كوَّة من زجاج بلّوري معتم. تعرف أنه وراء ذاك الباب ينهمك الرقباء في أداء مهمات عملهم. تخيّلت المنظر: مفتشون في منتصف العمر بزيٍّ عسكري ووجوه غير مألوفة تمامًا، منكبّون على الكتب المفتوحة التي تغطي سطح المكتب أمامهم.

فتح الرجل الباب بالقدر الذي يسمح لجسده بالعبور فقط. حركته مرنة ومدروسة. بالكاد كانت قد مضت ثلاث دقائق على مغادرته موقعه.

«رجاء، وقّعِي هنا».

حين دفع السجلّ نحوها تردّدت. نظرة واحدة كانت كافية لإدراك أن ثمة شيئًا غريبًا بخصوص مخطوطة المسودة التي وضعها للتو على الطاولة.

«رجاء، وقّعِي».

وقعت أون سوك وتسلمت المسودة. أي محاولة للنقاش غير مجدية. لقد أنجز الرقيب عمله والآن تحمل أون سوك النتيجة بين يديها.

التفتت وسارت مبتعدة عن الطاولة بخطوات بطيئة متعثِّرة. توقّفت عند صف من المقاعد وقلَّبت صفحات المخطوط. كانت تعرف المخطوط عن ظهر قلب، فقد قضت شهرًا بكاملة في قراءته ومراجعته، ومقارنته بالنص الأصلي وإنهاء المسودة الأخيرة. الكتاب الآن في المرحلة الأخيرة ما قبل النشر ولم يتبقَ سوى طباعته.

كان انطباعها المبدئي أن المسودة كأنما قد أُلقيت في نارٍ مستعرة حتى اسودَّت أوراقها ولم تعد سوى كتلة متفحِّمة.

كانت تقوم بالعملية نفسها كل شهر تقريبًا منذ أن عملت في دار النشر. تسليم مسودة كتاب إلى مكتب الرقيب ثم استعادته في الموعد المحدّد. بعد مراجعة النص لترى المواضع التي شطبها الرقيب بخط أسود -عادة ثلاث أو أربع أو عشرة كحد

أقصى- تعود بها إلى المكتب وهي تشعر بخواء غريب حين ترسل المسودة المُصحَّحة لإعدادها للطباعة.

لكن الأمر مختلف هذه المرة. فأكثر من نصف الجمل في العشر صفحات الأولى التي تمثّل مقدمة الكتاب محذوفة. وفي قرابة الثلاثين صفحة التالية لها تزداد النسبة باطراد حتى تصبح الغالبية العظمى من الجمل مشطوبة بخط أسود. ثم بداية من الصفحة الخمسين -ربما لأن وضع خط تحت كل عبارة أصبح مُرهِقًا- طُليت الصفحة بأكملها بحبر أسود غالبًا باستخدام بكرة حبر. هذه الصفحات المطموسة تمامًا جعلت المخطوطة تبدو كحطام سفينة مشبع بالماء جرفه الموج إلى الشاطئ.

أمسكت ذلك الشيء الغريب بحذر شديد كما لو كان قطعة فحم حقًّا، هشَّة ومهدّدة بالتفتت في أي لحظة ثم دسَّته في حقيبتها. وزنه الثقيل لا يتناسب تمامًا مع قيمته الفعلية. لا يمكنها تذكّر كيف تمكّنت من مغادرة المكان، ومشت عبر الرواق وخرجت من الأبواب الرئيسية حيث كان يقف شرطي بملابس مدنية.
لا سبيل الآن إلى نشر هذه المجموعة من المسرحيّات. لقد ضاعت كل مجهوداتهم هباءً. استعادت في ذهنها العبارات القليلة المتناثرة التي لم يمتد إليها مقص الرقيب في المقدمة.

بعد أن فقدناك استحالت كل أيامنا مساءً. بات المساء شارعنا وبيتنا. في ذلك الضوء الشاحب الذي لم يعد يُضيء الحياة أو يُظلِمها، نأكل ونمشي وننام.

تذكّرت الجمل المُرقَّعة والمُرمَّمة بعشوائية، والمواضع التي تتخلّل الفقرات المشطوبة حيث بالكاد يمكن ملاحظة الكلمات اليتيمة فيها، التي قُدِّر لها النجاة من مقصلة الرقيب: أنا. أنت. ذلك. ربما. بالتحديد. كل شيء. أنت. لماذا. نظرة. عيناك. قريب وبعيد. الآن. بحيوية. أكثر قليلًا. بغموض. لماذا فعلت هذا. تتذكّر؟

جُزرٌ معزولة صغيرةٌ من اللغة تلهث من أجل نَفَسٍ إذ تتفحَّم وتُمحى من الوجود.

لماذا تنبثق المياه من النافورة؟ ما الذي قد نحتفل به؟

أعطت ظهرها للتمثال البرونزي الأسود الذي يمثّل الجنرال وهو ممسك بسيفِه، وسارت من دون توقّف. يعيق الوشاح

تنفّسها وينبض الألم بخفوت تحت الجلد المحمرِّ لعظام وجنتها المكشوفة. مع هذا واصلت المشي.

الصفعة الرابعة

جلست المحرّرة كيم أون سوك في مقعدها وانتظرت يدَ الرجل. لا، كانت تنتظر أن يتوقّف. لكن في الحقيقة لم تكن تنتظر أي شيء على الإطلاق. ببساطة صُفِعت على وجهها. ضربها الرجل وهي تلقَّت الضربات. الشيء المهم أنها تريد نسيان هذا كله. اليوم هو يوم نسيان الصفعة الرابعة.

وقفت أمام الحوض في نهاية الرواق خارج المكتب وفتحت الصنبور. وضعت يديها أسفل المياه الباردة. ملَّست بأصابعها المبللة شعرها الطويل المموّج. بعد أن نجحت في تسويته قليلًا، ربطته بشريطٍ مطاطيٍّ أسود.

لا تضع أون سوك أيّ مساحيق تجميل. فقط تدهن شفتيها بالفازلين لعلاج تشقّقهما. فهي على عكس النساء الأخريات، لا تضع مساحيق على وجهها ولا ترشّ عطرًا، ولا تنتعل أحذية بكعوب عالية.

كان اليوم هو يوم سبت حيث ينتهي دوام عملها في الواحدة بعد الظهر، وليس لديها حبيبٌ لتتناول معه الغداء. أثناء الفترة الوجيزة التي ارتادت فيها الجامعة لم تتعرف على أي صديق يمكنها أن تتصل به الآن ويتفقا على اللقاء. لهذا ستفعل اليوم ما داومت على فعله: وهو العودة بهدوء إلى حجرتها المستأجَرة. ستنقع بعض الأرز البارد في ماء دافئ لتليّنه. ستأكله ثم تخلد إلى النوم.

كان الرواق معتمًا إلى حدٍّ ما حتى في خلال النهار. رفعت كيم أون سوك رأسها إلى أعلى حينما سمعت شخصًا ينادي اسمها. كان الجميع يبدون سعداء لرؤيتها على الدوام. تعرّفت على السيد سيو المنتج المسرحي وهو يتقدّم نحوها قبل أن يستند بظهره إلى النافذة الصغيرة.

«كيف حالك يا أون سوك؟».

اكتفت بالرد على تحيته الحماسية بـ«مرحبًا» خافتة مقتضبة وهي تنحني له. في تلك اللحظة اتسعت عينا السيد سيو خلف نظارتيه ذاتي الإطار البني.

«يا إلهي، ماذا أصاب وجهك؟».
«تعرضت لحادثة بسيطة». ابتسمت نصف ابتسامة.

«حادثة من أي نوع؟». حين رأى تردّدَها، غيَّر دفة الحديث بسلاسة. «هل المدير بالداخل؟».

«لا، لم يحضر إلى العمل اليوم. قال إن عليه حضورَ حفل زفاف».

«هذا ما قاله؟ لقد هاتفته مساء الأمس، وأكد لي أنه سيكون هنا».

فتحت أون سوك باب المكتب. «تفضّل بالدخول يا سيدي».

ارتعش شيء ما في خدّها وهي تقوده إلى المكان المخصَّص لاستقبال الضيوف. ذهبت إلى المطبخ الصغير الملحق بالمكتب. وضعت يديها على خدَّيْها. الأيمن ينبض بقوة من

الألم والأيسر مشدود من التوتر. التقطت نفسًا عميقًا لتجمع شتات نفسها. سخّنت القهوة. لم تفهم لماذا ترتجف يداها كما لو أن أحدهم قد اكتشف أنها تكذب. في النهاية لم تكن هي من أتلف الكتاب. ولماذا المدير ليس هنا؟ هل قرّر عدم القدوم اليوم عمدًا كي يتجنّب التعامل مع هذا الموقف الحسّاس بنفسه؟

«عندما تحدّثت إلى المدير هاتفيًا يوم أمس وسألته عن مقدار ما حذفوه من المسودة، تنهَّد وحسب».

وضعت أون سوك فنجان القهوة أمامه ثم عدَّلت مفرش الطاولة الأصفر الفاتح.

«لهذا أتيت لأرى بنفسي. حتى لو لم يُنشر الكتاب فلن يؤثّر ذلك على عرض المسرحية. أيًا كانت الأجزاء التي اعترضوا عليها فسوف نعدّلها أو نحذفها من النص كي يعطونا الضوء الأخضر للعرض».

توجهت أون سوك إلى مكتبها وفتحت الدرج السفلي. سحبت مخطوطة المسوَّدة وحملتها إلى حيث يجلس السيد سيو ووضعتها أمامه. بينما تجلس رأت ابتسامته الودودة المعتادة

تتبخَّر. علت الصدمة وجهه، لكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة. تفحَّص كل ورقة من المخطوطة حتى الصفحات التي طُمِست تمامًا ببكرة الحبر.

«آسفة يا سيدي». سارعت إلى القول وهي تشاهد أصابعه تتحسّس بتردّد الصفحة الأخيرة حيث طُبعت البيانات الخاصّة بحقوق الملكية. «آسفة حقًّا. أتمنى لو كان هناك شيء يمكنني قوله».

«أون سوك». التقت نظراتهما. بدت الحيرة على وجهه. «ما الأمر؟».

مندهشة، فركت عينيها بقوّة. كانت تبكي. لقد تسمَّرت في مكانها طوال تلقيها الصفعات السبع من دون أن تذرف عيناها دمعة واحدة، لذا لم تفهم ماذا يحدث لها الآن.

«أنا آسفة». كرّرت. واصلت الدموع تدفقها أسرع من قدرتها على إيقافها كسائل لزج يرشح من قصبة.

«على ماذا تتأسفين؟ لماذا يجدر بك الاعتذار لي؟».

كانت يد أون سوك تحوم بالقرب من فنجان قهوتها في اللحظة نفسها التي أنزل فيها السيد سيو المسودة على المنضدة. لكن حالما بدأت ترتشف القهوة، سارعت أصابع السيد سيو الرشيقة إلى رفع المسودة إلى أعلى بعيدًا عن الفنجان كي لا تتلطّخ أوراقها بالقهوة. كما لو أنها لا تزال تحوي شيئًا ذا قيمة. كما لو أنّ كل شيء لم تسحقه مطرقة الرقيب.

الصفعة الخامسة

كان يوم أحد. يوم العطلة. لذا قرّرت أون سوك أن تحظى بأكبر قدر من النوم. لكن بحكم العادة استيقظت قبل أن تبلغ الساعة الرابعة صباحًا حتى.

استلقت في الظلام لدقائق قليلة قبل أن تنهض وتتوجه إلى المطبخ. بدا من غير المحتمل أن يأتيها النوم مرة أخرى، لذا شربت بعض الماء البارد وشرعت في غسل ثيابها. دسّت جواربها التي كانت ألوانها تنويعات من درجات ألوان فاتحة، ومنشفتها وقمصانها البيضاء في غسالتها الصغيرة، ثم غسلت

ألبستها الداخلية وكنزتها الرمادية الداكنة بيديها في الحوض، ونشرتها في الخارج على سلة قش مقلوبة. جمعت بناطيلها الجينز في سلة الغسيل كي تغسلها متى توافر لديها المزيد من مسحوق الغسيل. افترشت أرضية المطبخ وتركت الضجيج المنتظم لآلة الغسيل يهدهد جسمها حتى تنعس من جديد.

حسنًا، حان وقت النوم. قالت لنفسها. عندما عادت إلى حجرتها وتمدَّدت على الأرض وأغلقت عينيها، تسلّلت خشونة الحصيرة والأرضية الورقية عبر حواف جسمها وامتدت إلى عضلاتها. انتشرت من كتفيها إلى أسفل حتى شُلّت حركتها - كانت عاجزة حتى عن التأوّه-. حين شمل هذا الشعور جسدها كلّه، شعرت بالفراغ حولها يتقلّص وبجدران إسمنتية تطوّقها من كل الجهات.

لهثت بحثًا عن الهواء. انفتحت عيناها غريزيًّا. أمكنها تخمين أن الغسالة في دورتها الأخيرة من صوت ضجيجها. بعد دقائق قليلة انقطعت جلبة دورانها فجأة مثل نفَسٍ مخنوق، تبعه بعد لحظات صوت رنين حاد اخترق الصمتَ الذي خلّفته عند توقفها.

لم تتحرّك أون سوك من مرقدها. لا تزال ثلاث صفعات متبقية تحتاج إلى نسيانها. اليوم دور الصفعة الخامسة. الصفعة التي رافقها شعور بانسلاخ الجلد المتهتك عن عظام وجنتها وبداية انبثاق الدم إلى سطح بشرتها.

نهضت وذهبت لنشر الغسيل على حبل الغسيل الممتد فوق الحوض. لم تستغرق هذه المهمة -على خلاف ما تمنّت- الكثير من الوقت. ما زال الفجر بعيدًا جدًّا عندما عادت إلى حجرة نومها.

طوت اللحاف بعناية مبالَغ فيها ووضعته فوق الخزانة، ثم أعادت تنظيم مكتبها وترتيب محتويات الأدراج. مع هذا ما كان النهار بقريب بصورة لا تطاق. رتّبت كل ما كان يحتاج إلى الترتيب حتى إنها صفَّت مستحضرات النظافة على المنضدة الجانبية. تركت يدها تبحث عن المرآة الصغيرة التي تحتفظ بها هناك. كان العالم المسجون بداخل زجاجها باردًا وصامتًا وثابتًا لا يتغيّر. حدّقت بشرود في ذلك العالم. كان الوجه الذي ينظر إليها مألوفًا ما عدا الكدمة المزرقَّة على خده.

ثمة زمن كان الناس يبادرون فيه إلى مدحها كم تبدو «لطيفة». تمتلكين ملامح جميلة كما لو كانت منقوشة من

كتاب. تبدين مثل راقصة بهذا الشعر الأسود الفاحم. لا تحتاجين حتى إلى الذهاب إلى صالون تجميل للاعتناء به. لكن بعد ذلك الصيف حين كانت في الثامنة عشرة-صيف حادثة النافورة-، لم يقل لها أي أحد عبارات الثناء تلك مرة ثانية. الآن وهي في الثالثة والعشرين، سنّ النضارة: الخدود الحمراء مثل التفاح وغمازات الوجه الجذّابة التي تعكس بهجة وعنفوان الحياة، لا ترغب أون سوك في أي شيء أكثر من تسريع وتيرة الشيخوخة. لم ترِد أن تستمر هذه الحياة الملعونة الكئيبة لأطول من اللازم.

مسحت أرضيّة الحجرة بقماشة مبلّلة بما في ذلك كل الزوايا والشقوق. لكن حتى بعد أن فرغت من ذلك ونظّفت القماشة وعلّقتها وعادت كي تجلس إلى مكتبها، استمرّ الليل بعنادٍ. لم تقرأ أي شيء. فقط حاولت الجلوس هناك في سكون. زحف الجوع إليها شيئًا فشيئًا. ذهبت وملأت صحنها ببعض الأرزّ سريع النضوج الذي أعدّته أمها من أجلها ثم أخذته معها إلى المكتب. بينما تمضغ حبات الأرز في صمت، خطرت ببالها تلك الفكرة القديمة التي طالما راودتها: أنَّ ثمة شيئًا مخزيًا يتعلّق بالأكل. مأسورة بهذا العار المألوف، فكّرت في الموتى الذين يعني غيابهم أنهم لن يتضوّروا جوعًا مرة أخرى أبدًا. لكن الحياة لا تزال تسري بداخلها والجوع لا يزال طوقًا حول عنقها. كان ما يعذّبها طوال السنوات الخمس الماضية، أنها لا

تزال قادرة على الإحساس بالجوع ولا يزال لعابها يسيل لرؤية الطعام.

«ألا يمكنك وضع كل هذا وراء ظهرك؟»، سألتها أمها في ذلك الشتاء الذي رسبت فيه في امتحان الالتحاق بالجامعة حين تقدّمت إليه أول مرة، وجرَّت قدميها إلى البيت. «ما تمرّين به يقلقني. الأمر صعب عليّ أيضًا. فقط انسَ ما حدث. حينها فقط ستتمكّنين من الذهاب إلى الجامعة كالآخرين. ستجدين عملًا وتقابلين رجلًا لطيفًا... سيزيح ذلك عبئًا ثقيلًا عن كاهلي».

خشية أن تكون عبئًا، واصلت أون سوك دراستها في جامعة في سيول البعيدة كل البعد عن غوانغجو. لكن بالكاد كانت سيول جنّة آمنة. فرجال الشرطة المتخفّون في ملابس مدنية كانوا جزءًا أساسيًا من الحرم الجامعي، والطلبة الذين يعصون أوامرهم يتم إلحاقهم بالجيش قسرًا، وإرسالهم إلى المنطقة المنزوعة السلاح(11). كان الوضع متأزّمًا للغاية إلى درجة أن الاجتماعات الطالبية كانت تُلغى. كانت الحياة الجامعية كرًّا وفرًّا دائمين. هُشِّمت النوافذ الزجاجية لمكتبة الجامعة المركزية من الداخل كي تتدلى اللافتات الضخمة منها إلى الخارج: « فلتسقطوا مع السفاح تشون دو هوان». بعض الطلبة تمادوا إلى حدّ ربط حبل بأحد الأعمدة على سطح المكتبة وربطه حول خصورهم ثم القفز في الهواء. كان هذا النوع من التمرّد استراتيجية متبعة لكسب بعض الوقت، كي ينشغل رجال الشرطة بالاندفاع إلى السطح وسحب الحبل،

ريثما يقوم الطلبة المربوطون بنهاية الحبل بإلقاء المنشورات والهتاف بالشعارات. في أثناء ذلك يتجمّع نحو ثلاثين أو أربعين طالبًا غير معروفين بالنسبة للأمن من كلا الجنسين في الأسفل في الساحة أمام المكتبة، وينشدون الأغاني. لم يستطيعوا ولو مرة بلوغ نهاية أغنية واحدة فالقمع كان دائمًا سريعًا ووحشيًا جدًّا. في كل مرّة تشهد أون سوك مشهدًا كهذا -دائمًا من على مبعدة- كانت تعلم أن ثمة ليلة طويلة في انتظارها، وحتى لو تمكّنت من النوم، كانت الكوابيس توقظها مفزوعة.

حدث ذلك في يونيو بعد امتحانات الفصل الدراسي الأول.

عانى والدها من جلطة دماغية تركت نصفه الأيمن مشلولًا، وحصلت والدتها على وظيفة مساعدة في صيدلية لتصبح معيلة الأسرة. أخذت أون سوك إجازة من الجامعة. كانت تعتني بوالدها نهارًا، ثم عندما تعود أمها من عملها كانت تتوجّه إلى عمل بدوام جزئي: حيث تقوم بتعبئة وبيع المنتجات في محل مخبوزات في وسط المدينة حتى يغلق أبوابه في العاشرة مساء. بعدها تختلس ساعات قليلة من النوم قبل أن تشرق الشمس. تستيقظ وتجهِّز الغداء لأخويها الصغيرين ليأخذاه معهما إلى المدرسة.

عادت إلى الجامعة قرب نهاية ذلك العام حين استعاد والدها بعضًا من قدرته على الحركة التي تمكِّنه من إطعام نفسه. لكنها لم تستطع أن تنهي سوى فصلٍ دراسيٍّ واحدٍ، قبل أن تضطر لترك الجامعة من جديد، كي تجد وظيفة من أجل توفير الرسوم اللازمة للفصل الدراسي التالي. بعد أن نجحت في إنهاء العام الثاني من الجامعة بشقّ النفس على هذا المنوال المتقطّع، تخلّت أخيرًا عن فكرة التخرّج. عندما رشّحها أستاذها الجامعي للوظيفة في دار النشر قبلتها على الفور.

بالنسبة إلى أمها، كانت هذه الخطوة مصدرًا للكثير من الندم لكن أون سوك فكرت بشكلٍ مختلفٍ. فإذا غضت البصر عن موقفهم المالي المتأزم، كانت تعرف أنها لم تكن لتستطيع التخرج أبدًا. كان سينتهي بها الأمر عاجلًا أو آجلًا منجذبة إلى دائرة الطلبة المتمرّدين في الجامعة. هناك، محاطة بتلك الوجوه المفعمة بعنفوان الشباب كانت ستصمد لأطول فترة ممكنة، لكن مقاومتها ستنهار في النهاية فحقيقة كونك الناجي الوحيد قد تكون أكثر شيءٍ مخيفٍ في العالم.

***

لا يعني هذا بالضرورة أن تفكيرها كان منصبًّا طوال حياتها على النجاة فقط.

بعد عودتها إلى البيت في ذلك اليوم وتبديل ثيابها بأخرى نظيفة، تسلّلت خارجة من البوابة الرئيسة من دون علم والدتها. كان الليل قد بدأ يعم عند رجوعها إلى قاعة الرياضة. كان مدخل القاعة مغلقًا ولا يمكنها رؤية أحد في الأرجاء، لذا ذهبت إلى مبنى المقاطعة. مكتب الشكاوى كان مهجورًا أيضًا باستثناء رائحة العفونة الكريهة التي تفوح من عدد من الجثث المتحلّلة. بدت الجثث تمامًا كما سلّمتها هي وسيون-جو. ربما لم يسنح الوقت بعد لميليشيا المدنيين بنقل الجثث كلّها إلى قاعة الرياضة.

في ردهة المبنى الملحق عثرت أخيرًا على أناس آخرين. نادتها إحدى طالبات الجامعة التي رأتها من قبل وهي تعمل في الكافتيريا، لتخبرها أن على الفتيات جميعًا التوجّه إلى الطابق الأول.

حين صعدت السلالم ودخلت الحجرة الصغيرة في نهاية الممر، كانت الفتيات في خضم مناقشة محتدمة.

«يجب أن نُعطَى البنادق أيضًا. القتال يحتاج إلى كلِّ شخص يستطيع حمل السلاح».

«سنمنح البنادق لمن يرغب في ذلك حقًّا. لمن هو مصمم على مواصلة الطريق حتى النهاية».

لمحت سيون جو تجلس عند آخر الطاولة وقد أرخت ذقنها فوق يدها. عندما جلست أون سوك بجوارها، منحتها سيون جو ابتسامة سريعة. كعادتها، كانت سيون جو مقتصدة في كلامها، لكن حين انتهى النقاش أعلنت بهدوء أنها مع الجانب الذي يرغب في حمل السلاح.

في نحو الحادية عشرة مساء، قرع جين سو على الباب. كانت المرة الأولى التي يشاهدانه يحمل فيها بندقية. كان منظره غريبًا، خاصّة وهو يمسك أيضًا براديو اللاسلكي الذي لا يفارقه.

«هل تستطيع ثلاثة منكنّ البقاء هنا حتى الصباح؟»، سأل جين سو. «نريد إجراء بثٍّ إذاعيٍّ في الشارع طوال الليل.

ونحتاج إلى ثلاثة منكنَّ فقط. وعلى بقيتكنّ العودة إلى بيوتهنّ».

الثلاثة اللاتي تقدّمن كنّ ممن انحزن أثناء الجدال الذي دار إلى ضرورة حمل النساء للسلاح كالرجال.

ثم فجأة انطلقت شابة الكافتيريا التي قادت أون سوك إلى الطابق الأول في الكلام.

«نرغب في البقاء أيضًا. نريد أن نجتاز الأمر معًا. لهذا أتينا إلى هنا مجموعة واحدة».

عندما تفكّر في الأمر الآن، تعجز أون سوك عن تذكّر كيف نجح جين سو في إقناعهنّ. ربما لأنها لم ترغب في التذكّر. بالكاد تتذكّر استخدامه حجّة كيف أنَّ ترك النساء في مبنى المفوضية عرضة للقتل مع الرجال سيلطخ سمعة الميليشيا المدنية. لكنّها ليست متأكّدة إذا كانت حجته قد أثرت على قرارها. فرغم اعتقادها بأنها قد تقبّلت فكرة الموت نفسها إلا أنّ الصور الشتى التي قد يتجسّد فيها الموت كانت لا تزال تؤرقها.

خُيِّل لها من خلال رؤيتها وتعاملها مع حالات موت عديدة أنها أصبحت حصينة ضده تمامًا لكن على العكس، زاد خوفها. لم ترغب أن يكون آخرُ نَفَسٍ لها شهقةَ ذهولٍ. لم ترغب في أن تنسكب أمعاؤها خارج جسمها من خلال جرح يمزِّقه.

كانت سيون جو ضمن النساء الثلاث اللاتي اخترن البقاء. التقطت بندقية كارابين إم 4 للدفاع عن نفسها في أي حالة طارئة، ثم أنصتت إلى شرح مختصر لطريقة استخدامها قبل أن تثبّتها على كتفها بطريقة خرقاء. أعطت ظهرها للأخريات من دون أي كلمة وداع، وتبعت الطالبتين الأُخريين إلى الطابق الأرضي. خاطب جين سو النساء الثلاث:

«نحتاج إلى دعوة أكبر عدد ممكن من الناس للخروج من منازلهم. حينما تشرق الشمس لا بدَّ أن يكون الميدان أمام مبنى المقاطعة مكتظًا بالمتظاهرين. سنصمد حتى الصباح بطريقة أو بأخرى لكن بعد ذلك سنحتاج إلى الدعم».

نحو الواحدة صباحًا غادرت بقية النساء بالإضافة إلى طالبٍ يقودهن جين سو عبر الزقاق المواجه لكنيسة نام دونغ

الكاثوليكية. عند مدخل الزقاق حيث إضاءة الشارع شحيحة، توقّف جين سو وقال: «تفرقنَّ الآن. فلتنطلق كل واحدة منكنّ وتعثر على بيت تختبئُ فيه».

إذا كانت قد امتلكت يومًا شيئًا اسمه روحًا، فقد كانت تلك هي اللحظة التي تهشّمت فيها. اللحظة التي ابتسم فيها لهنَّ جين سو، والحزام الذي يثبِّت البندقية إلى كتفه يضغط على قميصه المشبع بالعرق، ابتسامة وداع. لا، لقد تحطّمت روحها إلى شظايا حين خرجت من مبنى المقاطعة، وتسمَّرت في مكانها لرؤيتك يا دونغ هو بجسمك الصغير الأقرب إلى التكوين البدني لطفل منه لصبي مراهق، مرتديًا بنطلون سترتك الرياضية الأزرق الفاتح ومعطفك، وقابضًا بين يديك على بندقية.

« دونغ هو»، هتفت باسمك، «لماذا لم تعد إلى بيتك؟!».

تقدّمت صوب الشبان الذين يشرحون للآخرين كيف يحشون البندقية بالرصاص.

«ذلك الفتى لا يزال في المدرسة الإعدادية. عليك إرساله إلى بيته».

علت الدهشة محيّا الشاب الذي خاطبته.

«لقد قال إنه في السنة الثانية من المدرسة الثانوية. لم أجد سببًا كي لا أصدّقه. لقد أرسلنا حتى طلاب السنة الثانوية الأولى إلى بيوتهم منذ لحظات، لكنه لم يتفوّه بأي كلمة».

خفضت أون سوك نبرة صوتها. « هذا هراء. انظر إلى وجهه. هل هذا وجه طالب في الثانوية؟!».

انتظرت الشابات حتى اختفى جين سو عند المنعطف ثم تفرَّقنَ.

«هل تعرفين أي أحد يعيش قريبًا من هنا؟»، سألتها الطالبةٍ التي تعمل في الكافيتريا. هزت أون سوك رأسها نفيًا. « إذًا تعالي معي إلى مستشفى جيونام. ابن عمتي مريض هناك».

كانت أنوار ردهة المستشفى الرئيسية مطفأة والمدخل مغلقًا. طرقتا الباب لعدة دقائق قبل أن يخرج الحارس موجِّهًا كشافه باتجاههما. كانت تصحبه كبيرة الممرضات. كان التوتر جليًا على وجهيهما. لقد ظنّنا أن الجنود قد عادوا.

كانت الممرّات وسلالم الطوارئ مظلمة تمامًا مثل الردهة الرئيسية. على هدى ضوء كشاف الحارس فقط، بلغوا العنبر حيث كان ابن عمة شابة الكافيتريا. كان الظلام أشدّ في الداخل وقد غُطِّي زجاج النوافذ بالملاءات. رغم الظلمة الحالكة أدركتا أن جميع المرضى والممرضات مستيقظون. تركت الشابة أون سوك وتوجّهت إلى عمتها.

«ماذا سنفعل؟»، همست العمة. «يقولون إنه حين يعود الجنود، سيقتلون كلّ الجرحى».

جلست أون سوك أسفل النافذة وأسندت ظهرها إلى الجدار.

«من الخطير الجلوس قرب النافذة هكذا»، كان المتحدّث رجلًا بدا أنه قريب المريض الراقد في السرير المجاور. كان المكان مظلمًا جدًّا كي تتبيّن أون سوك ملامحه.

«كان هنالك إطلاق كثيف للرصاص في اليوم الذي انسحب فيه الجنود أيضًا -ثمة ثقوب خلّفها الرصاص في الملابس التي علّقناها على هذه النافذة في ذلك اليوم. لو كان شخص يقف هناك وقتها، تخيلِي ماذا كان سيحدث له؟».

زحفت أون سوك مبتعدة عن النافذة.
كان أحد المرضى في حالة حرجة. تنفسه غير منتظم لذا كانت تأتي إلى العنبر ممرضة كل عشرين دقيقة لتتفقّد حالته. في كل مرة يجول فيها ضوء كشافها يجول في أرجاء العنبر كالمنارة، كانت الوجوه التي ينيرها للحظات تظهر متجمّدة من الرعب.

«ماذا سوف نفعل؟ هل سيعود الجنود إلى المستشفى حقًّا؟ إذا كانوا يقولون إنهم سيرمون الجرحى بالرصاص ألا يجدر بنا نقلهم من هنا مع شعاع الضوء الأول؟ لكن بالكاد مضى يوم على استعادة ابن عمتك وعيه. ماذا سنفعل إذا انفكت قُطب جرحه».

ردت شابة الكافيتريا على كل سؤال من أسئلة عمتها الهامسة بصوت أكثر همسًا، «لا أعرف، يا عمتي؟».

كم من الوقت قد مضى؟! سمعت أون سوك صوتًا خافتًا قادمًا من بعيد فالتفتت نحو النافذة. علا الصوت شيئًا فشيئًا. كان صوت نسائي يتحدّث عبر مكبر صوت لكن لم يكن صوت سيون جو.

«أيها المواطنون رجاءً، انضموا إلينا أمام مبنى المقاطعة. الجيش يعاود اقتحام المدينة بينما أتحدّث إليكم».

تضخَّم الصمت داخل الحجرة مثل بالون عملاق تمدّد ليملأ كل الزوايا.

تعالى صوت انطلاق شاحنة أمام المستشفى وارتفع معه الصوت أكثر.

«لقد قرّرنا القتال حتى النهاية. رجاءً، اخرجوا إلى الشوارع وانضموا إلينا. فلنقاتل معًا».

تضاءل الصوت تدريجيًا حتى تلاشى. بالكاد مرت عشر دقائق حتى كسر الصمت صوت اقتحام الجنود المدينة. كان صوتًا لا يماثل أي صوت سمعته أون سوك في حياتها كلّها. القرع المجلجل المتزامن لآلاف الأحذية العسكرية الثقيلة على الأرض. صوت الدبابات بزئيرها الهادر الذي ينذر بتحطيم بلاط الأرصفة وتهشيم الجدران بيسر كالزجاج. دسّت أون سوك رأسها بين ركبتيها.

أتى صوت واهن من إحدى أسرّة العنبر.

«اغلقوا النافذة».

«هي مغلقة بالفعل».

«اغلقوها بإحكام أكبر».

بعد أن تجاوزت الضجة العسكرية نطاق المستشفى، أمكن سماع إذاعة الشارع مرةً أخرى، تخترق الصمت وتلفُّ قلب المدينة بصداها، مسموعةً -ولو بخفوتٍ- حتى من مسافة بضع مبانٍ.

«يا مواطني غوانغجو، رجاءً، انضموا إلينا في الشوارع. الجيش قادم».

حين وصل أخيرًا صوت الأعيرة النارية الذي لا تخطئه الأذن قادمًا من جهة مبنى المقاطعة، كانت أون سوك مستيقظة بكل حواسِّها. كان يمكنها في تلك اللحظة أن تصمَّ آذانها بيديها، أو تغلق عينيها بقوة، أو تهز رأسها يمينًا ويسارًا أو تنوح، لكن بدلًا من ذلك تذكّرتكَ يا دونغ هو. تذكّرت كيف اندفعتَ صاعدًا السلالم حين رجَتْكَ أن تصحبك إلى بيتك. تذكّرت وجهك المتجمِّد رعبًا كما لو أن التملّص من هذا التوسّل الملحّ هو أملك الوحيد في النجاة.

«دعنا نرحل معًا يا دونغ هو. علينا الرحيل معًا الآن».

وقفت هناك ممسكًا بدرابزين سلالم الطابق الثاني إذ تسري قشعريرة في جسدك. وحين تلاقت نظراتكما لمحت أون سوك جفونك ترتعش. لأنك كنت خائفًا. لأنك أردت أن تحيا.

الصفعة السادسة

«ما الذي يخطط لفعله من أجل الحصول على موافقة الرقابة؟».

تمتم المدير، وهو يفحص بطاقة الدعوة التي سلمها له شاب مُرسَلٌ من قبل مسرح السيد سيو. للوهلة الأولى بدا كأنه يطرح السؤال على نفسه لكن أون سوك علمت أن السؤال موجّه إليها.

«هل سيعيد كتابة النص كلّه من نقطة الصفر؟ لكن المتبقّي على العرض أقل من أسبوعين. متى سيقومون بالتدرّب على المسرحية بنَصِّها الجديد إذًا؟».

كانت الخطة القديمة تقتضي نشر المسرحية وضمان ظهور مراجعة واحدة على الأقل في القسم الأدبي من الجريدة، خلال الأسبوع التالي للنشر، من أجل الترويج بشكل مُرضٍ للعرض المسرحي. العرض الذي بدوره سيكون فرصة سانحة لعمل دعاية جيّدة للكتاب. اتفقوا أيضًا على تكفّل يون ببيع نسخٍ من المسرحية أمام مدخل المسرح أثناء فترة العرض. لكنٍ الآن جعلت الرقابة نشر الكتاب ضربًا من المستحيل. حتى عرض مسرحية مقتبسة عن النص الذي حُذِف جُلُّه وجُرِّد من جوهره أصبح ممنوعًا. مع هذا، لسبب ما، مضى السيد سيو وأرسل بطاقات الدعوة كأنّ شيئًا لم يكن.

انفتح الباب وخطا يون إلى الداخل بخطوات ثقيلة تحت وطأة صندوق الكتب الكبير الذي يحمله. غطَى العرق عدستي نظارتيه.

«فلينزع شخص ما النظارتين عن وجهي!».

اندفعت أون سوك نحوه ونزعت عنه نظارتيه. انحنى يون إلى أسفل وهو يلهث لينزل الصندوق على الأرض بجوار المنضدة. فتحت أون سوك الصندوق بسكين معدني صغير وأخرجت نسختين من الكتاب. ناولت إحداها إلى المدير ثم

ركّزت انتباهها على غلاف النسخة التي بين يديها. في المكان الذي توقّعت أن ترى فيه اسم المترجم الطريد وُضِع اسم أحد أقرباء الناشر كان قد هاجر إلى أمريكا. كانت أجواء المكتب مشحونة بتوتّر رهيب منذ تسليم مسودة الكتاب إلى الرقابة. لكن اتضح الآن أن ما حُذف من النص قبل إرساله إلى المطبعة لا يزيد على فقرتين.

غطت أون سوك سطح الطاولة بورق جرائد قبل أن تساعد يون في تفريغ الكتب. شرعا في وضع كل نسخة مرفقة ببيان صحافي داخل مظروف عليه شعار الدار، ثم لفّاها في طرود أنيقة تمهيدًا لتوزيعها على الصحافة في صباح اليوم التالي.

«يبدو الكتاب جيدًا». أشار المدير مرة أخرى كأنه يحادث نفسه. تنحنح ثم تكلّم من جديد برسمية، «لقد خرج الكتاب في صورة جيّدة حقًّا».

نزع نظارتَي القراءة ونهض من مكانه. فشل أكثر من مرة في دسِّ ذراعه اليمنى في كم معطفه أثناء ارتدائه. كانت حالة ذراعه المتيبسة والمؤلمة بسبب إصابتها بالروماتيزم تسوء أكثر خلال الشتاء. كفت أون سوك عمّا تفعله وذهبت لتساعده.

«شكرًا لك يا آنسة كيم».

من هذا القرب رأت عينيه المكشوفتين وقد اعتراهما خوفٌ مجهولٌ. ورأت التجعدات حول عنقه أعمق من تلك التي لدى أي شخص آخر في مثل عمره. وجدت أون سوك نفسها تسأل ما الذي يدفع شخصًا مسالمًا وجبانًا بالفطرة أن يحتفظ بعلاقات قوية مع كتّاب مراقَبين من السلطات، ولماذا يواصل نشر تلك الكتب التي تثير ريبة الرقيب؟

***

غادر المدير المبنى مباشرة قبل أن يقرر يون بدوره التوقّف عن العمل اليوم، والرحيل. وهكذا ظلّت أون سوك بمفردها في المكتب. بدلًا من العودة إلى منزلها مبكرة، ذهبت وجلست بجانب الكتب المطبوعة حديثًا. حين حاولت تذكّر ملامح وجه المترجم، اكتشفت أنها لسبب مجهول، عاجزة عن تذكّر أي ملمح من ملامحه.

لم تعد تتألّم حينما تتحسّس بأصابعها الكدمة على خدها الأيمن. وحتى عندما تضغط عليها باتت لا تشعر بأي ألم يُذكر.

كان الكتاب دراسة بحثية تناقش سيكولوجيا الجماهير. معظم الأمثلة التي استخدمتها الكاتبة البريطانية الأصل في طرحها منتقاة من التاريخ الأوروبي الحديث. الثورة الفرنسية والحرب الأهلية الإسبانية والحرب العالمية الثانية. اختار المترجم عدم تضمين الفصل الذي يتحدّث عن الحركة الطالبية في باريس العام 1968، إيمانًا منه أنه قد يؤثّر بالسلب على سماح الرقابة بنشر بقية الكتاب. مع هذا ترجم ذلك الفصل كي يضمّه إلى طبعة كاملة ومنقّحة من الكتاب يأمل نشرها في مرحلة ما من المستقبل.

كتب في المقدمة:

العامل القاطع المتحكّم في المعايير الأخلاقية للجمهور غير معروف بشكل واضح. إحدى النقاط الجوهرية في هذه القضية هي بروز اختلاف أخلاقي معيّن، بمعزل عن المعيار الأخلاقي العام للأفراد الذين يشكّلون الجمهور. فثمة جمهور لا ينتفض أمام إمكانية حدوث أفعال بشرية مثل السلب والقتل والاغتصاب، لكن على الجانب الأخر ثمة جمهور آخر يُظهر شجاعة وإيثارًا في مواجهة هذه الأفعال. رغم أنّ بعض من

ينتمون إلى ذلك الجمهور قد يجدون صعوبة في إظهار تلك القيم كأفراد.

لا توافق الكاتبة على الطرح الذي يقول إن النوع الثاني من الجمهور مكونٌ بشكل خاص من أفراد نبلاء، بل إنّ النبل صفة أساسية في البشر يمكن أن تتجلّى من خلال استمداد القوة من الجمهور ككل. أما الجانب الأول الساكت عن أفعال بشرية، كالسلب والقتل والاغتصاب، فتُمارَس فيه البربرية البشرية، لا من خلال الطبيعة الوحشية لأي من أفراده، بل من خلال ذلك التهويل الذي يحدث بصورة طبيعية بين الجمهور وتجعله يتقبل مثل هذه الممارسة.

شطب الرقيب السطور الأربعة التالية من هذه الفقرة.

مع أخذ ما سبق بعين الاعتبار، يبقى السؤال الذي يفرض نفسه علينا هو: ما هي الإنسانية؟! ماذا نفعل لنحافظ على الإنسانية بحيث تحمل مدلولًا معينًا وليس آخرَ؟

تستطيع أون سوك أن تتذكّر بدقة سمك الخط الذي ظلّل به الرقيب تلك العبارات. يمكنها تذكّر عنق المترجم الذُهنية،

وكنزته الزرقاء المهترئة، وبشرته الشاحبة، وأظافره الطويلة المُسودّة وهي تداعب باستمرار كأس الماء. تتذكّر هذا كلّه لكن مع ذلك تعجز عن تصوّر ملامح وجهه بأي شكلٍ. أغلقت الكتاب وانتظرت في مكانها. ثم التفتت لتواجه النافذة. أخذت تراقب هبوط الظلام.

لا تمتلك ذرّة إيمان بالبشرية. النظرة في عيني إنسان والمعتقدات التي يعتنقها والبلاغة التي يعبّر بها عن تلك المعتقدات لا تشكل ضمانة. تعلم أن الحياة الوحيدة التي تبقت لها محفوفة بشكوك مقلقة وأسئلة قاسية.

كانت النافورة جافة بعد ظهيرة ذلك اليوم. الجنود المدجَّجون بالسلاح يجرّون جثث من ماتوا حديثًا إلى الجدار أمام مبنى المقاطعة. تعمَّدوا سحب الجثث من سيقانها كي تحتك الرؤوس وترتطم بالأرض قبل أن يلقوها بجوار الجثامين الأخرى التي تخلصوا منها هناك آنفًا. تفتّقت أذهان بعض الجنود عن فكرة حاذقة لتسريع العملية. تجتاز مجموعة صغيرة من الجنود الفناء الداخلي لمبنى المقاطعة، يمسك كل جندي بطرف أو زاوية مشمَّع ضخم مضاد للماء تُوضع عليه جثث عشرات القتلى قبل أن يتم نقلها دفعة واحدة.

حين عبرت أون سوك بجوار المكان، اتسعت عيناها لمرأى ثلاثة جنود يندفعون إليها ويصوّبون بنادقهم نحو صدرها.

«إلى أين أنتِ ذاهبة؟».

«إلى البيت. كنت أزور عمتي. ليست بصحة جيّدة».

كان صوتها هادئًا وثابتًا لكن شفتها العلوية ارتجفت وهي تتحدّث.

غادرت الميدان امتثالًا لأوامرهم وهي تبذل قصارى جهدها للحفاظ على خطواتها ثابتة. حينما بلغت سوق داين، رأت دبابة ضخمة تسير بجلبة عالية في الشارع الرئيسي. رغم شرودها، فكّرت أن الجيش يريد إيصال رسالة إلى الجميع، مفاداها أن الأمر قد انتهى. وأن كل المتظاهرين قد سُحِقوا.

كانت الضاحية التي تعيش فيها مع والديها، رغم قربها الشديد من حي الجامعة، خالية من أي مظهر للحياة البشرية، كما لو أن طاعونًا قد اجتاحها. عندما قرعت الجرس، أتى

والدها مهرولًا. فتح البوابة الرئيسية للحظة وجيزة تسمح لها بالدخول. خبأها داخل قبو المطبخ ودفع خزانة الأطباق الطويلة لتخفي مدخله كي لا يسترعي نظر أي شخص.

بينما يشارف الصباح على الانقضاء وتقترب الظهيرة، بلغ مسامعها الوقع الثقيل لأحذية الجنود وأصوات أبواب تُفتح بالقوة وأجساد تقاوم جرَّها بالإكراه، وصوت شيء يتحطّم، وأصوات توسّلات واستجداء: « لا، لم يكن أطفالنا في التظاهرات. لم يلمسوا بندقية أبدًا».

قرع أحدهم جرس بيت أون سوك. تردّد صدى صوت والدها مجيبًا: «ابنتنا لا تزال في المرحلة الثانوية وولدانا في المرحلتين الابتدائية والإعدادية. ماذا سيفعلون في تظاهرة؟».

عندما خرجت أون سوك أخيرًا من مخبأها في القبو مساء اليوم التالي، أخبرتها أمها أن جثث القتلى قد نُقِلت بواسطة شاحنات قمامة المدينة إلى مقبرة جماعية. ليس فقط الجثث الملقاة أمام النافورة بل حتى الجثث التي لم يتعرَّف أحد على هويتها، والجثث التي كانت في قاعة الرياضة كلها تم التخلص منها.

أعادت السلطات فتح المصالح الحكومية ثم المدارس. وفتحت المتاجر أبوابها من جديد وواصلت تجارتها. لأن قانون الطوارئ لا يزال ساريًا، كان ممنوعًا تواجدُ أي شخص في الشوارع بعد السابعة مساء. أقام الجنود كمائن عشوائية على نحو تعسّفي على مدار النهار. أي شخص يلقى القبض عليه وبطاقته الشخصية ليست في حوزته، يُساق إلى أقرب مركز شرطة. لتعويض الساعات الدراسية التي ضاعت أثناء الحوادث، مدّت معظم المدارس فترة الفصل الدراسي إلى أوائل أغسطس. إلى أن جاء اليوم الذي أغلقت فيه المدارس أبوابها من أجل العطلة الصيفية، كانت أون سوك تتصل بقسم الاستفسارات والشكاوى العامة في مبنى المقاطعة كل يوم من كابينة الهاتف العمومي قرب موقف الحافلات بجوار بيتها.

«من غير اللائق أن تُشغَّل النافورة. من أجل الرب، أوقفوا عملها!».

تصبح سمّاعة الهاتف لزجة بسبب كفها المتعرِّقة. كان موظف القسم يجيبها بصبر ويطمئنها أن شكواها ستُأخذ بعين الاعتبار.

في إحدى المرات ردت على مكالمة أون سوك امرأة في منتصف العمر. كانت نبرتها متعاطفة لكن صارمة في الوقت نفسه.

«أنا آسفة لكن يجب أن تتوقفي عن الاتصال بنا. ليس بيدنا شيء لنفعله بخصوص النافورة. يبدو من صوتك أنك لا تزالين في المدرسة، أليس كذلك؟ من الأفضل لك نسيان الأمر والتركيز في دروسك.

***

خارج النافذة هزّت رفرفة ضعيفة ستار الظلام المخيّم. لقد حان وقت نهوضها ومغادرتها المكتب لكنها مكثت حيث هي من دون حركة. تساقطت ندف الثلجِ في سكون، بيضاء وناعمة مثل ذرّات أرز مطحونة حديثًا. مع هذا لم تستطع رؤية جمالها. كان اليوم هو اليوم الذي يفترض أن تنسى فيه الصفعة السادسة، لكن جُرح خدها قد التأم وبالكاد يؤلمها. لذا حين يبزغ فجر اليوم التالي لن تحتاج إلى أن تنسى الصفعة السابعة. لن يكون هناك أبدًا يومٌ لنسيان الصفعة السابعة.

ندفُ الثلجِ

بعد تغيير ديكور المسرح، أُنِيرت الأضواء من جديد في تتابع بطيء. في المنتصف على خشبة المسرح وقفت امرأة طويلة في الثلاثينيات. تنورتها البيضاء المنسوجة من خيوط القنب أعادت إلى الذاكرة الرداء الصوفي المنزلي الصنع الذي كان يُلبس تعبيرًا عن الحداد. حينما التفتت المرأة في صمت لتواجه الجهة اليسرى من المسرح، كانت تلك بمثابة إشارة متّفق عليها كي يبرز رجل طويل نحيل يرتدي الأسود من وراء الكواليس. تقدّم صوبها حاملًا هيكلًا عظميًّا بحجم بشري على ظهره. قدماه العاريتان تخطوان بخطوات حذرة مدروسة كما لو كان يخشى الانزلاق إلى العدم. في تلك اللحظة التفتت لتواجه الجهة اليمنى وهي لا تزال محتفظة بصمتها مثل دمية ماريونيت. الرجل الذي خطا هذه المرة من الكواليس كان قصيرًا وبدينًا، لكن بثيابه السوداء والهيكل على ظهره بدا مماثلًا للرجل الآخر. تقدّم الرجلان، يدنو كل منهما من الآخر كما لو كانا صورتين من فيلم قديم. واصلا التقدم بحركة متباطئة كما لو أن عامل تشغيل ماكينة عرض الأفلام قد أخذ يدير مقبض الآلة بتثاقلٍ بعد أن نال منه الإجهاد. بلغا وسط المسرح في اللحظة نفسها، لكن لم يتوقّفا بل تابعا السير نحو الجانب الآخر، كما لو كانا محرومين من الاعتراف بوجود الآخر.

لا يوجد مقعد واحدٌ خالٍ في القاعة. يشغل معظم مقاعد الصفوف الأمامية ممثلون وصحافيون، ربما لأنها ليلة

الافتتاح. بينما تشقّ أون سوك والمدير طريقهما إلى مقعدَيْهما، ألقت أون سوك نظرة على مؤخّرة القاعة. استرعى انتباهها أربعة رجال. رغم انتشارهم بين بقية المتفرّجين انتابها شيء من الشك في أنهم رجال شرطة متخفّون في ملابس مدنية. فكّرت: ماذا سيفعل السيد سيو الآن؟ عندما يسمع هؤلاء الرجال العبارات التي شطبها الرقيب تخرج من أفواه الممثلين، هل سيقفزون من أماكنهم ويندفعون إلى المسرح لإيقاف العرض؟

طيران المقعد عبر الهواء فوق المنضدة في كافتيريا الجامعة. انبثاق الدم من جبهة الصبي. طبق الكاري البارد. طافت تلك الصور في ذهنها وهي تفكّر ماذا سيحدث لطاقم الإنتاج وهم يشاهدون الموقف يتطوّر من كواليس الإضاءة؟ هل سيعتقلون السيد سيو؟ هل سيتمكّن من الفرار ليعيش مطارَدًا هاربًا وستجد حتى أسرته صعوبة في تقفّي أثره؟

***

بمجرّد أن اختفى ظلا الرجلين وراء الكواليس وخطواتهما تنزلق إلى الأمام بدعةٍ، بدأت المرأة في الحديث. على الأقل هذا ما بدا. ففي حقيقة الأمر كانت شفتاها تتحرّكان لكن لم يصدر عن فمها أي صوت. مع هذا كانت أون سوك تعرف تمامًا ما تنطق به المرأة. تعرفت على السطور من النص

المكتوب بقلم السيد سيو. النص الذي كتبته على الآلة الكاتبة بنفسها وقرأت مسودته ثلاث مرات.

بعد موتكَ، لم أستطع إقامة جنازة.....

وهكذا باتت حياتي كلُها جنازةً.

أعطت المرأة ظهرها للجمهور وتحوّلت الأضواء إلى أعلى لتنير الممشى الطويل بين المقاعد. هناك، وقف رجل ضخم في نهاية الممشى، يرتدي ثيابًا ممزقة من نسيج القنَّب. أنفاسه المتقطعة مسموعةً بينما يخطو تجاه المسرح.
على عكس الوجهَيْن الجامدين والمجرَّدَيْن من أي تعبير للرجلين اللذين عبرا خشبة المسرح منذ لحظات معدودة، كان وجه هذا الرجل يفيض بالمشاعر. رفع كلتا يديه فوق رأسه ومد ذراعيه، يتوسل من أجل شيء ما. ترتعش شفتاه بكلمات صامتة مثل سمكة تحتضر فوق أرض جافّة. مرة أخرى أمكن أون سوك قراءة ما تلهج به تلك الشفاه رغم عدم وجود اسم معين لهذا الصوت الحاد الذي يندفع من بينها.

عدْ إليَّ.

عدْ إليّ حينما أنادي اسمك.

لا تتأخّر أكثر من ذلك.

عد إليّ الآن.

بعد أن تلاشت موجة الارتباك الأولى التي سرَت بين الجمهور، لاذوا بصمت مطبق وحدَّقوا بتركيز شديد في شفتي الممثل. بدأت إضاءة الممشى تخفت في اللحظة التي التفتت المرأة على خشبة المسرح مرة أخرى لتواجه الجمهور. احتفظت بصمتها وهي تراقب بهدوء الرجل يعبر الممشى مناجيًا أرواح الموتى.

بعد موتك لم أستطع إقامة جنازة.

فباتت تلك العيون التي أبصرتك يومًا ضريحًا.

وباتت تلك الآذان التي استمعت إلى صوتك يومًا ضريحًا.

وباتت تلك الرئات التي استنشقت نَفَسَك يومًا ضريحًا.

واصل الرجل صراخه إلى العدم بعينين متسعتين لكن لا يبدو أنهما تبصران العالم أمامهما، وهو يصعد سلالم المسرح بينما بالكاد تحرك المرأة فوق خشبته شفتيها. أخيرًا أنزل ذراعيه المرفوعين ومسح على كتفي المرأة بيديه كأنما يزيل ندف الثلج عنهما.

الزهور المتفتحة في الربيع وأشجار الصفصاف وقطرات المطر وندف الثلج باتت كلها أضرحة.

النهارات المشرقة والأماسي المعتمة كل يوم باتت أضرحة.

أضيئت الأنوار فوق المقاعد فأعمت عيون المتفرّجين للحظات. حينما فتحت عينيها أبصرت أون سوك صبيًا يقف في الممشى بسترته الرياضية البيضاء وحذائه الرياضي

الرمادي ويمسك بهيكل عظميٍّ صغير في يده. يقرّبه إلى صدره ويحتضنه كما لو كان يشعر بالبرد. حين بدأ الصبي يمشي نحو المسرح، برزت مجموعة من الممثلين من الظلام عند نهاية الممشى وشرعوا في السير خلفه، منحنين بظهورهم بزاوية قائمة وأذرعهم مدلاة لأسفل، فبدوا أشبه بحيوانات من ذوات الأربع. ثمة شيء غرائبي وخارق للطبيعة يتعلّق بمنظر هؤلاء الممثلين والممثلات - نحو دزينة- وهم يتقدّمون في الممشى وشعرهم الأسود متدليًا في الهواء. رفعوا رؤوسهم إلى أعلى فكشف ذلك عن شفاه تتحرّك من دون توقف، يتمتمون ويصرخون ويتأوّهون. في كل مرة يتعالى فيها الصوت الناجم عنهم، يلتفت الصبي لينظر وراءه. جافلًا مما رآه يبطئ المسير. وهكذا تسبقه المجموعة وتصل إلى سلّم المسرح قبله.

بينما نظرات أون سوك مثبتة على المشهد وهو يتطور، كانت شفتاها تتحركان من دون أن تدرك ذلك. كما لو كانت تقلِّد الممثلين، نادت بصمتٍ على اسمٍ. يموت الصوت ثقيلًا في حنجرتها قبل أن يرى النور: دونغ هو.

التفت شاب في مؤخّرة الموكب فجأة، وخطف الهيكل من قبضة الصبي. فعل كل هذا وهو لا يزال محنيّ الظهر وذراعاه متدليتين إلى أسفل. انتقل الهيكل من يد إلى أخرى حتى وصل إلى امرأة عجوز في مقدمة الموكب. ظهرها

محنيّ لدرجة أنه كان يشبه الحرف ㄱ. تدلّت خصلات شعر رمادية لأسفل مُخفيةً وجه المرأة وهي تمسك بالهيكل بقبضة محكمة وتصعد درجات المسرح. المرأة بردائها الأبيض والرجل الضخم برداء القبقب الممزق -اللذان لم يتحرّكا من مكانهما في وسط المسرح طوال هذه الفترة- تنحّيا جانبًا لتعبر العجوز.

باتت العجوز الكيان الوحيد المتحرّك. خطوات أقدامها بطيئة جدًّا تكاد لا تحرك الهواء المحيط بها. بدا السعال المفاجئ لشخص في الجمهور كأنه قادم من عالم آخر. كما لو كانت السعلة إشارة معينة. خرج الصبي عن جموده وقفز فوق خشبة المسرح بوثبة واحدة، وعانق بقوة الظهر المحنيّ للمرأة العجوز، فبات مثل طفل يُحمل على الظهر، أو روحٍ هائمةٍ لشخص ميت. الجسدان متوافقان جدًا في تحركهما إلى درجة يستحيل معها التيقّن إذا كانا متلامسَيْن أم لا.

دونغ هو.

عضَّت أون سوك على شفتيها بينما ترفرف أشرطة متعدّدة الألوان هابطة من السقف على خشبة المسرح. قصاصات من

حرير كُتِبت عليها ترانيم جنائزية. انتصبت ظهور الممثلين المتجمّعين أمام المسرح فجأة. توقّفت المرأة العجوز في مكانها. التفت الصبي الذي كان على بعد ياردات معدودة خلفها ليواجه الجمهور.

أغلقت أون سوك عينيها غير راغبة في رؤية وجهه.

بعد موتك لم أستطع أن أقيم جنازة.

فباتت حياتي كلّها جنازة.

بعد أن لُفّ جسدك بمشمَّع وحُملتَ بعيدًا على ظهر شاحنة القمامة،

بعد أن انبثقت أعمدة المياه اللامعة من النافورة على نحو لا يُغتفر،

اشتعلت أنوار أضرحة المعبد التي شيّدتها من أجلك.

الزهور المتفتحة في الربيع. ندف الثلج. المساء الذي يعقُب كل نهار. شرارات الشموع المحترقة في زجاجات شراب فارغة.

اشتعلت كلّها.

اندفعت دموعٌ حارّة من عيني أون سوك المفتوحتين لكنها لم تمسحها. فقط أمعنت النظر في وجه الصبي. في حركة شفتيه الصامتَتَيْن.

الفصل الرابع

حديدٌ ودمٌ

(السجين 1990م)

كان قلمًا عاديًا بامتياز. قلمًا أسود ماركة مونامي بيرو. أجبروني على فرد أصابع يدي ثم لووها الواحد فوق الآخر قبل أن يحشروا القلم بينها. كانت تلك هي يدي اليسرى. فهم بحاجة إلى يدي اليمنى سليمةً حتى أتمكن من كتابة التقرير.

في البداية كان الألم بالكاد محتملًا. لكن حشرَ ذلك القلم في الموضع نفسِه كل يوم أزالَ طبقة الجلدَ كاشفًا عن اللحم أسفلها. نزَّ من مكان الجرح خليطٌ من دمٍ وصديد. ساء الوضع أكثر مع مرور الوقت حتى بات بإمكاني رؤية العظم، بريقٌ أبيضُ وسط مستنقعٍ نتنٍ. حينها فقط أعطوني قطعة قطنٍ منقوعة في الكحول لأضغطَ بها على مكان الجرح. لكن لم تكن هذه الهبة تُمنح إلا إذا برز العظمُ وصار مرئيًا.

يوجد تسعون رجلًا معي في داخل الزنزانة. أكثر من نصفهم حشروا قطعة قطن مشابهة في الموضع نفسه بين الأصابع. لم يكن تبادل الحديث مسموحًا به. يمكن لعينيك فقط أن تخطف نظرةً مُقتضبة على قطعة القماش قبل أن تلتقي بنظرات صاحبها لجزء من الثانية لكنها كافية للتعرف على هذه العلامة التي تتشاركها معه. لا حاجة لإطالة النظر.

توهّمت أنهم سيعطون الفرصة لجراحنا كي تلتئم بعد أن وصلت إلى هذه الحالة المُزرية لكني كنت مخطئًا. عوضًا عن ذلك، تعرّفتُ على نوعٍ جديدٍ من الألم عندما نُزعت قطعة القطن وحُشِرَ قلمٌ جديدٌ بين أصابعي ليسحق اللحم العاري ويحيله إلى ما يشبه اللُباب.

***

عدد الزنازين خمسٌ. تتّخذ مجتمعةً شكلًا أقرب إلى شكل المروحة. هكذا يمكن للجنود المدجَّجين بالسلاح، المتمركزين في وسط السجن على الجانب الآخر من القضبان، إبقاء عيونهم على الزنازين الخمس في الوقت ذاته.

عندما دفعونا إلى داخل الزنزانة أول مرة ثم أغلقوا الباب وراءنا، لم يجرؤ أي منا على السؤال: إلى أين أحضرونا، أو لماذا نحن هنا؟ حتى الصِّبْيَة من المدرسة الثانوية أدركوا ما يكفي كي يُبْقوا أفواهَهم مغلقة. التزمنا الصمت وتحاشينا التقاء عيوننا. احتجنا بعض الوقت حتى نستوعب التجربة التي مررنا بها ذلك الصباح. استمر ذلك الوضع لساعة مشحونة بقنوطٍ صامتٍ. كان ذلك هو آخر ما تبقى لنا من كرامة كبشر.

***

كان القلم الأسود ماركة مونامي بيرو هناك فوق الطاولة في كل مرة أُقتادُ فيها إلى حجرة الاستجواب. يرقد القلم في مكانه منتظرًا. كانت رؤية القلم هي المرحلة الأولى في سلسلة متتابعة من الحوادث التي تتكرّر بدقّة في كل مرة. العملية برمتها مُصمَّمة لإجباري على إدراك حقيقة واحدة بسيطة: إنَّ

جسدي لم يعد ملكي. إنّ حياتي قد سُلِبت تمامًا من بين يديّ، وإنَّ الشيء الوحيد المسموح لي بفعله هو أن أتألّم. ألم مبرح جدًا لدرجة شعرت معها يقينًا أنني سأفقد عقلي. ألم فظيع جدًا لدرجة أنني فقدتُ السيطرة على جسمي. كنت أتبوَّل وأتبرَّز لا إراديًا.

بمجرد أن يصل هذا التتابع إلى نهايته المعتادة، يبدأ الاستجواب وطرح الأسئلة. كان صوت الشخص الذي يطرح الأسئلة هادئًا ومتماسكًا على الدوام، لكن مهما كانت الإجابة التي أنطق بها، لم تكن النتيجة تتغير أبدًا: عقب بندقية ينزل كالصاعقة على الوجه. كنت أعجز عن مقاومة غريزتي التي كانت تدفعني إلى الالتصاق بظهري إلى جدار الحجرة، والانكماش حول نفسي وحماية رأسي بذراعيَّ، رغم أن ردة الفعل تلك كانت تُزيد الطين بلَّة. عندما ينهار جسدي على الأرض، كانوا يركلون ظهري بأحذيتهم العسكرية. فقط عندما أوشكُ على فقدان الوعي، يَقلِبون جسدي ويدوسون على ساقيَّ بدلًا من ذلك.

***

عندما تُؤمر بمغادرة حجرة الاستجواب والعودة إلى زنزانتك، قد تتخيّل للوهلة الأولى أنك تستطيع الاسترخاء الآن، وأن بإمكانك أن تتخلّى عن حذرك قليلًا. لكن سيكون هذا خطأً فادحًا. علينا أن نفترش أرضية الزنزانة بأكتاف وظهور متخشِّبة من دون أدنى حركة لعدة ساعات في المرة الواحدة.

عيوننا مثبتة إلى الأمام مباشرة نحو النافذة المُسيَّجة. سيعوي الرقيب مُحذّرًا إذا شردت نظراتك عن القضبان الحديدية. ثمة شاب يكبرني أطفأ الرقيب عقب سيجارته في حاجبه ذات مرة ليكون عبرة لبقيتنا. في مرة أخرى هرش صبيّ في المرحلة الثانوية عنقه بشكل عفوي فانهالوا عليه ضربًا حتى فقد وعيه وتكوَّم على الأرض كدمية خرقاء.

كنّا قرابة المائة. تلتصق أجسادنا قسرًا ببعضها البعض لدرجة يمكنك معها أن تشعر بركبتيّ مَنْ خلفك تضغط على أسفل ظهرك. كنا نتعرّق بغزارة فنشعر كأننا عالقون وسط زخّات مطر لا يتوقّف. حلوقنا تصرخ من شدة الجفاف لكن لا يُسمح لنا بشرب الماء سوى ثلاث مرات فقط في اليوم وبكميات محدودة مع وجبات الطعام. لا أزال أتذكّر إحساس العطش ذاك. كم كان همجيًا وحيوانيًا، حتى إنني لم أكن لأتردّد عن فعل أي شيء حرفيًّا كي أبلل شفتي. كنت لأرضى حتى بحفنة بولٍ. أتذكر أيضًا ذعري الدائم من احتمال أن أسقط نائمًا. الرعب من أن يُسحَق عقب سيجارة مشتعل في حاجبيَّ وأنا غافٍ. رعب حقيقي جدًّا يمكنني بسببه أن أشم بالفعل رائحة لحمي يحترق. ولا أنسى إحساس الجوع أيضًا. كيف كان يتشبّث بي بإصرار ولا يتزحزح أبدًا مثل بعوضة شفّافة تغرز إبرتها في مؤخرة عنقي. حينما أتذكّر تلك اللحظات الضبابية بفعل الإنهاك والجوع، أشعر كما لو كانت هذه البعوضة تمتصّ روحي ببطء وتلذّذ.

***

كانت وجبة الطعام التي تُقدَّم لنا ثلاث مرات في اليوم -وكل يوم- متشابهة تمامًا: حفنة أرز، نصف طبق حساء، وقدر ضئيل من الكِيمتشي(12). يتشارك هذه اللقيمات سجينان. الارتياح الذي غمرني حين علمت أن شريكي في الأكل هو كيم جين سو يشي بالحالة التي استحلت إليها عند تلك النقطة: حيوان وحشيٌّ تجرّد تدريجيًا من كل ما كان إنسانيًا بداخله ذات يوم. لماذا هذا الارتياح؟! ببساطة لأن جين سو بدا شخصًا لا يأكل كثيرًا. لأنه كان شاحب الوجه تحيط عينيه هالات سوداء جعلته يبدو كشخص مكانه الطبيعي المستشفى. لأن عينيه خاويتان ومجرَّدتان من الحياة.

منذ نحو شهر، حين قرأت خبر نعيه، كانت تلك العينان أول ما خطر ببالي. العينان اللتان اعتادتا على تتبّع كل حركة تصدر عني خلال تفتيشي الحثيث عن حبّات البازلاء في الحساء الأقرب في تكوينه إلى الماء. كانت عيناه ترمقانني في صمت بينما أحدِّق بكرهٍ شهواني لا أستطيع إخفاءه في كل كَسرة طعام تعبر شفتيه مدفوعًا بخوف غريب من أن يستأثر بالطعام كلّه لنفسه. تلك العينان-الباردتان الخاليتان من أي تعبير- اللتان قد يُقال إنهما تعبّران عن الإنسانية تمامًا مثل عينيّ.

***

ثمة شيء لا أستطيع حتى الآن أن استوعبه. إذا كنت قد تشاركت مع كيم جين سو الأكل وتناولت نفس وجبات الطعام التي أكلها هو كل يوم، فلماذا مات هو بينما لا أزالُ حيًا؟!

هل عانى أكثر مني؟

لا، لقد نلت أكثر من نصيبي من المعاناة.

هل لأنه لم ينعم بنفس القدر من النوم؟

لكنّ النوم كان يتمنَّع عني مثله تمامًا. حتى يومنا هذا، لا تمر ليلة واحدة أستطيع أن أنعم فيها بالنوم أكثر من سويعات قليلة من راحة كاذبة. راحة بالكاد تستحق اسمها. ولا شك عندي أن الحال سيستمر هكذا طالما تتمسّك هذه الحياة بوجودي.

تعجبت عندما اتصلت بي -أيها الأستاذ- أوّل مرة لتسأل عن كيم جين-سو. لم تتلاشَ دهشتي مع اتصالك الثاني الذي اتفقنا فيه على اللقاء. كل يوم تلا اتصالك -من دون استثناء- تردّدت فيه الأسئلة نفسها في رأسي:

لماذا ماتَ؟

لماذا أنا حيٌّ؟

***

أتتذكر -يا أستاذ - أول مرة تحدّثنا فيها حينما أخبرتني أن كيم جين-سو لم يكن بأي شكل «حالة مُنفردة»؟ بالنسبة إليك، كان احتمالًا قويًا أن يُقدِمَ الكثيرون منا - السجناء السابقون- على إنهاء حياتنا. أعتقد أن غايتك كانت مساعدتي، أليس كذلك؟ محاولةً لإنقاذ حياتي من أن تسلك نفس المسلك الأليم؟ أجل، بإمكاني أن أتصوّر جيّدًا أن تلك هي نوعية الأفكار النبيلة التي دارت بعقلك. لكن لنكن صادقين معًا هل كانت تلك الأطروحة التي كنت تخطط لكتابتها ستعود بالنفع على أحدٍ حقًا غيرك؟! استفضت في شرح مفهوم «التشريح النفسي» الذي تود أن تطبقه على حالة كيم جين-سو لكنني لم أفهم شيئًا. أردت تسجيل شهادتي، لماذا؟! هل ستعيد شهادتي كيم جين-سو إلى الحياة؟ قد نكون قد عشنا تجربتين متشابهتين لكن ما كانتا متماثلتين أبدًا، لا من قريب ولا من بعيد. ما الفائدة من مثل

هذا التشريح؟ كيف بإمكاننا أن نأمل في فهم ما مرَّ به - هو وحده؟ كيف يمكننا أن نفهم ما كتمه بداخله كل تلك السنين؟

***

صحيح أن كيم جين-سو قد تلقى عذابًا وحشيًا بشكل استثنائي مقارنة ببقيتنا. ربما لأن هناك جانبًا هشًّا بغرابة في شخصيته. جانب يكاد يكون أنثويًا. وبطريقة أو بأخرى أثار ذلك حفيظة الحراس. لكن لم استمع إلى هذه القصص إلا بعد عشر سنوات على الأقل من حدوثها. وقتها لم أكن أملك أي فكرة البتة.

ما بلغني هو أنَّ الضباط كانوا يرغمونه على إخراج قضيبه، ووضعه على طاولة ثم يتوعدونه بضربه بمسطرة خشبية. شاع أيضًا أنهم أرغموه على التعرّي وأخرجوه إلى رقعة العشب خارج مبنى السجن حيث قيَّدوا ذراعيه وراء ظهره وجعلوه يستلقي على بطنه. عبث النمل بأعضائه التناسلية لثلاث ساعات كاملة.

سمعت أنه بعد إطلاق سراحه، ظلت تراوده كوابيسُ عن حشرات زاحفة كل ليلة تقريبًا.

***

لا أعرف الكثير عنه قبل الاعتقال. كنت أراه فقط من على مبعدة يقطع الممرات في مبنى المقاطعة. في العام 1980 عندما اندلعت الحوادث، كان في سنته الأولى فقط في الجامعة. كان الشعر الذي يغطي شفته العليا لا يزيد على خط رفيع من زغب غير مهذّب. وكان له حواجب كثة سوداء تبرز بوضوح في مقابل بشرته الشاحبة. كان يبدو مستعجلًا في كل مرة لمحته فيها. يتمايل ذراعاه إلى الأمام والخلف مع حركة جسمه.

على الأقل كنتُ على دراية بنوعية الأشياء التي يضطلع بالقيام بها: التعامل مع الجرحى وترتيب الأمور المتعلّقة بالجثث. كان يقوم بتوفير الأكفان والتوابيت والأعلام، وتجهيز مراسم تشييع الموتى وما شابه ذلك.

كما تعرف، لم أكن لأتوقّع أبدًا أنه سيظل هناك حتى الليلة الأخيرة. في تلك المرحلة من الحوادث، لم يصمد سوى المتعصِّبين حقًّا للقضية. كان معظم هؤلاء من العمال. بينما طُلِب من معظم الطلاب المشاركين في الاحتجاجات إخلاء مبنى المقاطعة قبل أن يجتاح الجيش المدينة من جديد كي لا تُزهق المزيد من الأرواح هباءً. ألقى الطلاب أسلحتهم في ردهات المبنى وعادوا إلى بيوتهم. حتى حين وقعت عيناي

عليه تلك الليلة، كانت تعتريني الشكوك. ما كنت لأندهش لو كان قد تسلل مغادرًا قبل منتصف الليل.

كنا اثني عشر بمن فيهم أنا وكيم جين-سو. شكّلنا جماعة واحدة واجتمعنا في غرفة الاجتماعات الصغيرة، حيث قدّم كل منا التعريف المعتاد بنفسه رغم يقيني بأن لا أحد منا كان يتصور وقتها أن ثمة احتمالًا بأن تستمر معرفتنا ببعضنا البعض لما يتجاوز حدود تلك الليلة. ثم خطّ كل منا وصيته في عجالة. ثم دوَّنّا بإيجاز أسماءنا وعناوينا على قصاصات ورق قبل أن ندسَّها في جيوب قمصاننا كي يَسهل التعرف على هويتنا. رغم أن كل تلك الأشياء التي انهمكنا في وضع خططٍ لها تحسّبًا لوقوعها كانت وشيكة الحدوث في أي لحظة، لم تبدُ لنا واقعية أبدًا. على الأقل حتى سمعنا من خلال اللاسلكي خبر انتشار الجيش في المدينة من جديد. حينها فقط توتّرت أعصابنا جميعًا.
استدعى قائد ميليشيا المدنيين جين سو إلى ممر مبنى المقاطعة قرابة منتصف الليل، وطلب منه إخلاء المبنى من النساء. كان لهذا الرجل صوتٌ جهوريٌّ مميّز لذا تمكنا من سماع كل كلمة تفوّه بها من مكاننا داخل حجرة الاجتماعات. أدركت وقتئذ أن القائد قد انتقى جين سو بالتحديد كي يتأكّد من سلامة النساء لأنه قرّر أن فرصنا في الصمود لن تتأثّر كثيرًا في حالة غياب مثل هذا الشاب الهشّ البنية. أتذكّر رؤية جين سو يضع البندقية على كتفه، ويغادر الغرفة بخطوات عسكرية، بينما

يضغط على شفتيه لينطق بعبارة مقتضبة: جار التنفيذ. فكرتُ: لو كنتُ مكانكَ لعثرتُ على مكانٍ آمنٍ، واختبأَت فيه وما قلقت أبدًا بشأن العودة سريعًا.

لهذا انتابني الذهول عند عودته. خلال العشرين دقيقة التي غاب فيها، اختفى التوتّر عن محَيّاه لكن بالكاد كان يقوى على إبقاء عينيه مفتوحتين. توجَّه مباشرة صوب النافذة وتمدّد على أريكة من جلد صناعي أسفلها. سرعان ما داهمه النوم. عندما ذهبت إليه وهززته كي أوقظه، لم يفتح عينيه حتى. اكتفى بالتمتمة معبّرًا عن آسفه ومدى تعبه. لسبب ما بدا أن شعور الإرهاق قد انتقل منه إلينا كالعدوى، مستنزفًا طاقتنا. وهكذا تهاوينا على الأرض واحدًا تلو الآخر، واستندنا إلى أقرب جدار. حتى أنا لم أكن محصَّنًا. لم أستطع مقاومة التكوّم بجوار جين-سو على الأريكة. كيف أشرح الأمر؟ في الوقت الذي كان ينبغي علينا أن نتحلى بأقصى درجات اليقظة، سمحنا لأنفسنا بأن نخضع لشهوة النوم مغلقين عيوننا وآذاننا.

مع هذا تسلل صوت الباب وهو يُفتح بحذرٍ شديدٍ إليّ بشكل ما عبر ضبابية اللاوعي. فتحت عينيّ لأبصرَ صبيًا ينسل إلى داخل الحجرة -طالبًا في المدرسة الإعدادية-. يمكنني معرفة ذلك من قصّة شعره القصيرة. زحف ليصعد فوق الأريكة ليجلس.

«من أنت؟». كان صوتي متحشرجًا من أثر النوم، «من أنت، ومن أين أتيت؟».

كان قد أغمض عينيه بمجرّد أن اتخذ مجلسه. أجابني من دون فتحهما.

«أنا مُتعَب جدًّا. سأنام لدقيقة أو اثنتين فقط هنا بجوار جين سو».

كان جين سو نائمًا كالقتيل لكن صوت الصبي أيقظه فزعًا.

«دونغ-هو؟» سأل بهمس مكتوم وهو يحكم قبضته على ذراع الصبي. «ألم أطلب منك أن تعود إلى البيت؟ ألم تعدني بأن تفعل ذلك؟». كان صوته يتصاعد حدةً. «ماذا جئت تفعل هنا بحق الجحيم؟! هل تعرف كيف تطلق الرصاص من البندقية حتى؟».

بادر الصبي قائلًا: «لا تغضب مني، يا جين سو»، تعالى صوت أشبه بالحفيف بينما يهم من استيقظ بسبب المناقشة المحتدمة بالوقوف في تأففٍ.

«سوف تستسلم عند أول بادرة». أصرّ جين-سو من دون أن يحرِّر ذراع الصبي. «ستستلم، فهمت؟ ستخرج من هنا رافعًا يديك لأعلى. من المستحيل أن يعتدوا على صبي يرفع يديه في استسلام».

***

في العام 1980 كنتُ في الثانية والعشرين، وقد عدت إلى الجامعة بعد أن أتممت خدمتي العسكرية. بعد التخرّج كنت أخطط للحصول على وظيفة معلم في مدرسة ابتدائية. ربما لهذا السبب وقع اختيارهم عليَّ لأكون قائد جماعتنا في تلك الليلة -لأني كنت أكبر في العمر قليلًا ورابطَ الجأش-. معظم من قرّر البقاء في مبنى المقاطعة كان صعب المراس ولم يكن ثمة مجال كبير لفرض أي نوع من الانضباط. كنا أشبه بعصابة من الغوغاء أكثر من فرقة عسكرية منظّمة. الغالبية لا تزال في سن المراهقة، بل كان هنالك صبي، يرتاد الفصول المسائية بعد عمله، يأبى تصديق أنه إذا حشا بندقيته بالرصاص وضغط على الزناد، فإن ثمة طلقة قاتلة ستندفع

حقًّا من ماسورتها. خرج إلى الفناء وأفرغ خزّان البندقية في سماء الليل ليتأكّد بنفسه.
الصِّبْية في عمر المدرسة احتجّوا على فكرة إرسالهم إلى بيوتهم. كانت رؤوسهم متحجّرة للغاية، واستلزم الأمر حديثًا مطولًا لإقناعهم بالرحيل. أصرّ قائد الميليشيا المدنية على مراجعة «خطط المقاومة» معي، رغم أنه سيتضح لاحقًا أنها كانت واهية ومليئة بالثغرات، بحيث بالكاد ينطبق عليها وصف «خطة». كان من المتوقّع وصول قوات الجيش إلى مبنى المقاطعة في نحو الثانية صباحًا لذا بدأنا في التجمّع في الممر في الواحدة والنصف صباحًا. تمركز البالغون أمام النوافذ، بينما رقد الصِّبْية الأصغر سنًا منبطحين على بطونهم في المساحة الفاصلة بين نافذة وأخرى، متأهبين لأخذ موقع الشخص الأقرب منهم في حالة إصابته. لم يكن لديَّ معرفة عن طبيعة المهمات الموكلة إلى الفرق الأخرى، أو إذا كانت استراتيجيتنا تمتلك أي فرصة واقعية في النجاح. ظل القائد يؤكّد على أنّ هدفنا يقتصر فقط على الصمود حتى بزوغ الفجر، الموعد الذي سيخرج فيه الآلاف من مواطني غوانغجو إلى الشوارع ويتجمهرون أمام النافورة.

حينما أفكر في الأمر الآن يبدو ذلك ساذجًا، لكن وقتها صدَّقنا -ولو جزئيًا-تلك الكلمات. نعم، علمنا أن ثمة احتمالًا أننا قد نموت لكن بداخلنا آمنّا أننا سنكون بخير. توقّعنا الهزيمة، لكن في الوقت نفسه أملنا أن ننجو في النهاية بطريقة ما. لم أكن

وحدي من تملّكه هذا الشعور. فبالنسبة لمعظمنا، خاصّة الأصغر سنًا، طغت آمالنا على مخاوفنا. لم نكن على دراية أن ممثّلًا للمقاومة الطالبية قد التقى في اليوم السابق بصحافيين أجانب، واعترف أنّ هزيمتنا مؤكّدة. أخبرهم أننا جميعًا نعلم أننا سوف نموت لكننا لا نهاب الموت. مثل تلك التصريحات النبيلة تسمو فوق كل معاني الخوف، لكن الحقيقة المجرّدة تحتّم عليَّ أن أقول إن تلك لم تكن الكيفية التي فكّرت بها.

أما عن رأي كيم جين-سو في هذه القضية، فأنا لست مؤهلًا للحديث عن ذلك. هل كان يستشعر بأن قراره بالعودة بعد أن تأكّد من سلامة النساء سيقود إلى حتفه؟ أم كان مثلي يميل إلى الجانب المتفائل -معتقدًا أن الموت ليس قاب قوسين أو أدنى-. وأننا رغم كل المتناقضات سنتمكن من الصمود داخل مبنى المقاطعة، وسيكتب لنا العيش ما تبقى من حياتنا متحرِّرين من قيود العار؟

***

لا يعني هذا أننا كنا نجهل حقيقة أن الجيش يفوقنا عددًا وعتادًا ببون شاسع. لكن الغريب في الأمر أننا لم نبالِ. منذ نشوب الانتفاضة شعرت بشيء ما يجتاحني ويسري في كياني كله، لا يقل قوة عن أي جيش.

الضمير.

الضمير هو الشيء الأكثر رعبًا في العالم.

في ذلك اليوم الذي وقفت فيه كتفًا إلى كتف مع مئات الألوف من المدنيين محدّقين من دون رهبة في فوّهات بنادق الجنود. في ذلك اليوم الذي وُضِعت فيه جثامين أول اثنين قُتلا في عربة تجَرُّ باليد قبل أن تُدفع مخترقة صفوف المتظاهرين، صعقني اكتشافُ غياب ما بداخلي: غيابُ الخوف. أتذكّر إحساسي بالتصالح مع فكرة الموت. شعرت بدماء عشرات الألوف من القلوب تتدفّق معًا في شريان واحد عملاق، نقية ونظيفة. شعرت بالضخامة المهيبة لقلب واحد ينبض دافعًا الدم خلال ذلك الشريان العملاق ومنه إلى شرياني. للحظة تملّكتني الجرأة للإحساس أنني جزء منه.

عند الواحدة بعد الظهر، بينما يعزف المتحدّث أمام مبنى المقاطعة النشيد الوطني، فتح الجنود أبواب نيرانهم. كنت أقف في منتصف صفوف المتظاهرين، لكن عندما تطاير الرصاص، التفتّ بجسدي وبدأت أركض. ذلك الشعور العظيم الذي تخللني، ذاك القلب الضخم الذي شعرت لوهلة أنني جزء

منه تهشَّم إلى شظايا تناثرت على الأرض كالقمامة. لم يقتصر إطلاق النار على الميدان فقط، بل تمركز القنّاصة فوق أسطح المباني المحيطة. على جانبيَّ وأمامي تهاوى البشر على الأرض لكني واصلت الركض. فقط حين تيقّنت من ابتعادي بمسافة كافية عن الميدان، تركت نفسي أبطئُ حتى توقّفت. كنت مقطوعَ الأنفاس. خلت أن رئتَيَّ ستنفجران. اختفى وجهي خلف قناع من العرق والدموع. انهارت ركبتايَ فوق سلالم تقود إلى باب متجر مقفَل. تجمعت مجموعة صغيرة في الشارع. سمعتهم يتحدّثون عن مداهمة أقسام الشرطة وثكنات ضباط الاحتياط للحصول على الأسلحة. كانوا مصنوعين من مادة أكثر صلابة منّي بكل تأكيد.
نحن مكشوفون لهم كالبط. سيصطادوننا بسهولة. الكثيرون منّا. لقد داهم رجال المظلّات البيوت في منطقتي. شعرت بخوف شديد حتى إنني نمت وسكين المطبخ بجوار وسادتي. إطلاق مئات الطلقات هكذا في وضح النهار. دعني أقل لكم: لقد جن جنون العالم!

هرول أحدهم كي يجلب شاحنته. لم أبرَح مكاني على السلالم حتى عاد الرجل وهو يقود الشاحنة. فكّرت إذا كنت أمتلك القوة بداخلي حقًّا كي أحمل سلاحًا وأصوّبه باتجاه إنسان يتنفّس وأسحب الزناد.

حين عادت الشاحنة التي استقليتها إلى مركز المدينة، كنا في ساعة متأخّرة من الليل بالفعل. كنا قد سلكنا منعطفًا خاطئًا مرتين وعندما بلغنا الثكنات، كانت البنادق قد نُهِبَت كلّها. كانت رحلة عديمة الفائدة. في تلك الأثناء لم تكن لديَّ أي وسيلة لمعرفة عدد مَنْ سقطوا في التظاهرات. كل ما أتذكّره هو مدخل المستشفى في اليوم التالي. الطابور اللانهائي للبشر المصطفين من أجل التبرّع بالدم. أطباء وممرضات يجتازون الشوارع المخرّبة، ومعاطف بيضاء ملطخة بالدم، وأيادٍ تحمل النقّالات، ونساء يوزِّعن كرات أرز زنخة ومياه وحبات فراولة على ركاب الشاحنة، التي كنت أركبها، وشذرات من النشيد الوطني و«أريرانغ»(13) التي كان يغنيها الجميع بملء صوتهم. تلك اللحظات الخاطفة التي كنا نبدو فيها كأننا نخطو بمعجزة خارج حدود قوقعة ذاتنا -الجلد الرقيق لإنسان يلامس جلد إنسان أخر- منحتني شعورًا كأنها -كل لحظة- تعيد ربط أوتار قلب ذلك العالم، وترمِّم الشقوق التي يتسرَّب منها الدم كي تجعله قادرًا على أن ينبض من جديد. ذلك هو ما أسرني، وظلّ برفقتي منذ ذاك الوقت. هل خَبِرت شيئًا كهذا يا أستاذ - تلك الحِدّة المرعِبة، ذلك الإحساس كأنما أخضعت ذاتك إلى نوع فريد من الخيمياء، فتطهَّرت روحك وباتت نقيّة غير مدنّسة؟ رونق تلك اللحظة المتفرّدة، النقاء المبهر للضمير في أسمى صوره.

من المحتَمَل أنّ الصِّبْية الذين آثروا البقاء في مبنى المقاطعة ذلك اليوم قد مرّوا بشيء مشابه. ربما اعتبروا الموت ثمنًا عادلًا لجوهرة الضمير تلك. لكن الآن إثبات وجود مثل هذا اليقين غير ممكن. كان الصبية يربضون قرب النوافذ ويعبثون ببنادقهم، ويشتكون بين الحين والآخر من الجوع، سائلين إذا كان من المسموح لهم بالهرولة إلى حجرة الاجتماعات ليجلبوا الكعك الإسفنجي، وزجاجات مشروب الفانتا التي تركوها هناك.

ما الشيء الذي يمكن أن يكونوا قد عرفوه عن الموت وجعلهم يُقدِمون على هذا الاختيار؟

حينما وصل تحذير عبر اللاسلكي أن الجيش سيبلغ مبنى المقاطعة في غضون عشر دقائق، أسند جين-سو بندقيته إلى الحائط ووقف قائلًا: «من الممكن أن نصمد حتى الصباح ونخاطر بأرواحنا في سبيل ذلك، لكن ذلك ليس خيارًا مطروحًا للصغار هنا». تصرَّفَ كما لو كان رجلًا بالغًا محنَّكًا في الثلاثين أو الأربعين من عمره، وليس صبيًا بالكاد أنهى الدراسة في المدرسة. «لا خيار أمامنا سوى الاستسلام. لو بدا أن الموت هو النتيجة الوحيدة الأخرى، ارموا بنادقكم فورًا وابحثوا عن طريقة أخرى للحياة».

***

لا أرغب في الخوض في ما حدث بعد ذلك.

لا يملك أي أحد الآن الحق في أن يطلب مني تذكّر أي شيء، وهذا يشملك يا أستاذ؟

لا، لم يطلق أيّ منّا الرصاص.

لا، لم يقتل أيٌّ منّا أيَّ أحد.

حتى حين اندفع الجنود صاعدين السلالم وبرزوا أمامنا في عتمة الظلام، لم يقوَ أيّ أحد في جماعتنا على استخدام البنادق. كان من المستحيل أن يسحب أي منا الزناد عالمًا أن ثمة إنسانًا قد يموت إذا فعل ذلك. كان معظمنا صغارًا. وقد زوَّدنا أطفالًا بالبنادق. بنادق غير قادرين على استخدامها.

***

اكتشفت لاحقًا أن الجيش كان مزوَّدًا بثمانمائة ألف رصاصة ذلك اليوم. كان عدد سكان المدينة وقتها نحو أربعمائة ألف. بمعنى آخر كان معهم من الرصاص ما يكفي لإصابة جسد كل شخص في المدينة بطلقتين. لديَّ إيمان كامل بأن قادة عملية الاجتياح ما كانوا ليتورَّعوا عن إعطاء الأوامر للجنود في الميدان بفعل ذلك. لو كنا جميعًا قد فعلنا كما قال ممثل المقاومة الطالبية وألقينا أسلحتنا في ممر مبنى المقاطعة في استسلام كامل، لكنّا نخاطر باحتمال أن يوجّه الجنود نفس تلك الأسلحة نحو مدنيين عزل. كلّما تذكّرت الدماء التي تدفّقت في الساعات الأخيرة من تلك الليلة -بكل ما تحمله كلمة تدفّق من معنى- منبثقة فوق درجات السلالم في الظلام الحالك، يجتاحني شعور أن تلك الأرواح التي زُهقت لم تكن ملكًا لمن ماتوا فقط، بل كل روح كانت بمثابة ثمن يُدفع كي لا يموت الآخرون. كان الثمن هو دماء آلاف مؤلّفة من الشهداء. دماء آلاف القلوب.

أمكنني بزاوية عيني أن ألمح الدماء تنثال في صمت من أشخاص كنت أتبادل معهم الحديث قبل لحظات فقط. انبطحت أرضًا في الممر ووجهي ملتصق بالأرضية عاجزًا عن تحديد من مات ومن نجا. شعرت بشخص يكتب على ظهري بقلم تحديد: عنصر خطير: حيازة سلاح. أخبرني بما كُتِب لاحقًا إحدى السجناء عندما ألقوا بنا داخل زنازين الأكاديمية العسكرية.

***

اعتُبِر من لم يحمل السلاح عند اعتقاله مجرد متواطئ، وأطلق سراحهم على دفعات حتى شهر يونيو. لم يبق في سجن الأكاديمية بعد ذلك سوى تلك «العناصر الخطرة» الذين قُبِض عليهم وهم يحملون السلاح. تزامن ذلك مع دخول أساليب التعذيب إلى مرحلة مختلفة. بدلًا من الضرب المبرح، لجأ سجّانونا إلى أساليب أكثر منهجية لإيلامنا. أساليب غير مُجهِدة جسمانيًا بالنسبة إليهم. طريقة « دبوس الشعر» حيث يقيَّد الذراعين خلف الظهر وتثبَّت قطعة ضخمة من الخشب بين المعصمين المربوطين ومؤخّرة الظهر، وطريقة الإيهام بالغرق، والتعذيب بالكهرباء، والطريقة المعروفة بـ«الدجاجة المشوية» التي تتضمّن تعليق الضحية في السقف بواسطة حبال وضربه، بينما يدور جسده في الهواء من دون توقّف.

قبل ذلك كانوا يعذّبوننا كي ينتزعوا منا اعترافات بجرائم فعلية. أما الآن فكل ما يريدونه هو اعتراف ملفّق يتيح لهم تضمين أسمائنا بعناية في تحقيقات مُفبركة.

واصلتُ وكيم جين-سو استلام صينية واحدة عند كل وجبة وتشارك فتات الطعام في ما بيننا. تطلَّبَ وضع ما مررنا به

منذ ساعات قليلة داخل حجرة الاستجواب وراء ظهورنا. وتطلّب غمس ملعقتينا في صمتٍ قاسٍ مقاومين إغراء الانقضاض كالحيوانات على حبة أرز أو مزقه كيمتشي، إرادة حديدية.

في إحدى المرات صفع رجل صينية طعامه صارخًا في وجه شريكه: «لا يمكنني التحمّل أكثر من ذلك. ماذا سيحدث لي إذا التهمتَ حصّتي وحصّتكَ بمفردك؟ هل تسمي هذا أكلًا؟!».

بينما يمسك الرجل بتلابيب شريكه، سارع صبي إلى التفريق بينهما وانفجر قائلًا: لا تفعل ذلك!

اندهشت. كانت أول مرة أرى فيها هذا الصبي الهادئ الخجول ظاهريًا يفتح فمه.

«ألم نكن مستعدين للموت؟!».

في تلك اللحظة رفع كيم جين سو رأسه لتلتقي نظراته الخالية من أي تعبير بنظراتي. في تلك اللحظة استوعبت الحقيقة التي يهدف كل هذا التعذيب والتجويع إلى تفجيرها بداخلنا:

سنجعلكم تدركون كم كانت فعلتكم حمقاء، تلويحكم بالعلم وغناءكم النشيد الوطني. سنثبت لكم أنكم لستم سوى أبدان عفنة وقذرة. إنكم لستم أحسن من جثث الحيوانات التي تموت جوعًا.

***

الصبي الذي صرخ كان يدعى يونغ شاي. كان اسمًا ردَّده كيم جين سو باستمرار بعد ظهيرة الأيام التي تلت ذلك الشجار. في الدقائق العشر بعد انتهاء فترة تناول الغداء التي يميل فيها الحرس إلى تخفيف مراقبتهم علينا، كان كيم جين سو يوجّه حديثه إلى الصبيّ بنبرة ودّية رقيقة:

«لا بدٍ أنك جائع، يا يونغ شاي. كيم يونغ شاي؟ تحمل نفس لقبي إذًا. من أين عائلتك؟ أنا من جيمهاي أيضًا. عائلتك من أي فرع؟ أنت في الخامسة عشرة، صحيح؟ حسنًا لا حاجة لاستخدام أسلوب التوقير في حديثك معي. أكبرك بأربعة أعوام

فقط. لا أشبه سنّي الحقيقي، أليس كذلك؟ إذا كان لا بد من ذلك فنادني «عمي»، ففي النهاية يبدو أننا أقرباء من بعيد».

من خلال الاستماع إلى محادثاتهم، عرفت أن الصبيّ لم يكمل تعليمه بعد المرحلة المتوسّطة ليتعلّم النجارة في متجر للأعمال الخشبية يمتلكه عمه. التحق بميليشيا المقاومة المدنية متبعًا خطى ابن عمه الذي كان يكبره بعامين وكان ينظر إليه دائمًا كمثل أعلى. قُتل ابن العم ذاك في تلك الليلة الأخيرة في جمعية الشبان المسيحيين(14).

«أحب أكل الكعك الإسفنجي كثيرًا مع زجاجة من مشروب سبرايت».

كانت عينا يونغ شاي جافَّتَين بينما يروي قصة ابن عمه الميت، لكن حينما سأله جين سو عن طعامه المفضل ليغير دفَّة الحديث قليلًا، أجبِر الصبي على فرك عينيه بقبضتيه ليخفي دموعه. في الحقيقة استخدم قبضة يده اليمنى فقط. ظلت يده اليسرى في حِجره. حدقت فيها طويلًا. في قطع القطن البارزة من بين أصابعها المطبقة.

***

بحثت داخل عقلي باستمرار لأني أردت أن أفهم بشدّة. كنت في حاجة ماسّة بطريقة أو بأخرى أن أجد معنًى لما مررت به.

إفرازات مائية، وصديد لزج، ولعاب عفِن، ودماء، ودموع، ومخاط، وبَوْل وبراز يلطِّخ أسفل بنطلوني. هذا هو كل ما أملكه الآن. لا، بل هذا ما تقلّصت ذاتي إليه. لست سوى مجموع تلك الأشياء. لم أكن سوى كتلة من لحم عفن تنزّ تلك الأشياء منها. حتى الآن أجد الصيف صعب الاحتمال. حالما تتصبَّب أنهار العرق على صدري وبطني، وتلسعني مثل عضّات حشرة، يداهمني من جديد فجأة شعورٌ بأنني لست سوى كتلة لحم. الشعور نفسه من دون أي تغيير. حينها تتوقّف الحياة. أرغم نفسي على أخذ نفَسٍ عميقٍ، أضغط على أسناني بقوة، ثم آخذ نفَسًا آخر.

***

في اللحظة التي تُثبتُ فيها هراوة خشبية مربعة الشكل بالقوة ما بين لوحَيْ كتفيَّ وتُلوّى في مكانها، بحيث تُرغِم مفاصلي التي تصرخ ألمًا على التباعد لأكبر مسافة ممكنة، يسمح بها التركيب التشريحي لجسمي، في اللحظة التي ينثني فيها جسدي ويتلوّى ألمًا وتتقيأ شفتاه تلك الكلمات: «من أجل الربِّ، توقّف!

لقد أخطأت»، تتداخل الثواني مع لهاثٍ مضطربٍ ومرتعشٍ في اللحظة التي يحشرون فيها ريشة المثقاب تحت أظافر يديَّ وقدميّ، وتندفع الكلمات بسرعة مع أنفاسي: «من أجل الرب توقّف. لقد أخطأت»، تختلط الثواني بآهات متقطّعة سرعان ما تعلو حتى تصبح عويلًا: «يا إلهي، دع جسدي يختفي. فلتمحه تمامًا عن ظهر الأرض».

***

منذ ذلك الصيف حتى الخريف التالي أثناء الفترة التي أُرغمنا فيها على كتابة تقارير تديننا، شيَّدوا مبنى من طابق واحد على أراضي الثكنات العسكرية، من أجل استخدامه لعقد المحاكمات العسكرية، ليتمكّنوا من تمرير الأحكام علينا من دون أن يتكلّفوا معاناة نقلنا إلى أي مكان آخر.

في الأسبوع الثالث من أكتوبر عندما هبَّت موجة باردة، بدأت جلسات المحاكمة. حينها كان قد مضى عشرة أيام على كتابتنا التقارير. كانت الأيام العشرة تلك أول مدة نقضيها من دون تعذيب في السجن. بدأت الجروح المنتشرة في أجسادنا تلتئم ببطء وتتشكّل فوقها قشور حمراء داكنة.

أتذكّر أن المحاكمة استمرت لخمسة أيام، جلستان كل يوم. كان يصدر حكم على نحو ثلاثين شخصًا في الجلسة الواحدة. كان عدد المدَّعى عليهم كبيرًا جدًّا. ملأنا صفوف المقاعد حتى مؤخّرة القاعة. انتشر بيننا على مسافات متساوية جنود يُبقون أيديهم على بنادقهم.

«انحنوا جميعًا».

انحنيت برأسي إذعانًا لأمر الرقيب.

«إلى الأسفل أكثر».

دنوت برأسي من الأرض أكثر.

«سيصل رئيس المحكمة في أي لحظة. لو صدر عن أيٍّ منكم صوتٌ ولو حتى صرير فسيُقتل في مكانه، فهمتم؟ كل ما عليكم فعله هو إبقاء رؤوسكم منكّسة إلى الأسفل وأفواهكم مغلقة حتى تنتهي المحاكمة. فهمتم؟!».

كان الجنود يتسكّعون بين المقاعد بأسلحتهم المحشوَّة بالرصاص. إذا أحسّوا أنّ أحدنا قد استرخى لثانية فسيهبط عقب البندقية على مؤخرة رأسه. من خارج مبنى المحكمة كان يصلنا دوي أصوات الجراد لينبئنا بتبدل الفصول. كانت ثياب السجناء التي نرتديها قد أعطيت لنا صباح ذلك اليوم، لذا كانت لا تزال تفوح منها رائحة مسحوق الغسيل. بينما أحافظ على ثبات جلستي، فكّرت في تلك الكلمات: « ستُقتل في مكانك». كتمت نفسي كما لو أنني أتوقّع أن أُعدم في أي لحظة. في تلك اللحظة بدا الموت بالنسبة إليّ شيئًا منعشًا مثل إحساس ارتداء ذلك الزي الجديد والنظيف. لو كانت الحياة هي ذلك الصيف الذي انتهى للتوّ، لو كانت الحياة جسَدًا مُدنَّسًا بالعرق وصديد دموي، لو كانت الحياة محض ثوانٍ متحجِّرة ترفض المرور، لو كانت الحياة حبّات بازلاء حامضةٍ لا تغني من جوع بل تزيد آلامه حدّة، فالموت هو ضربة فرشاة نظيفة تمحو كل هذا بضربة قاضية واحدة.

«لقد وصل السيد رئيس المحكمة!».

في اللحظة نفسها التقطت أذناي صوتًا غريبًا قادمًا من الصفوف الأمامية. كنت مطأطأ الرأس بحيث تكاد ذقني تلامس صدري، لكن دفعني ذلك الصوت إلى رفع رأسي إنشًا

واحدًا بالكاد أتاح لي مسح الصفوف الأمامية بعينيّ. كان أحدهم يغنّي رغم أنّ الصوت كان أقرب إلى أنين مكتوم. كان المقطع الافتتاحي من النشيد الوطني. في اللحظة التي أدركت فيها أن المغنّي هو الفتى يونغ شان، كانت أصوات أخرى قد انضمَّت إلى الإنشاد. رغمًا عني، خرج صوتي من حنجرتي. لسبب ما سُمِح لنا -نحن الذين كنا محنيّي الرأس كما لو كنا موتى بالفعل، نحن الذين كنا نجلس في مكاننا مثل كتل رخوة من عرق ودم- بمواصلة غنائنا الهادئ من دون قمع. لم يصرخ الجنود في وجوهنا، أو يهوون بأعقاب بنادقهم على رؤوسنا، أو يدفعوننا بقوة في مواجهة أقرب جدار، ويفتحون نيران بنادقهم كما هدَّدونا. تركونا ننهي غناءنا. كان الصمت الذي يفصل مقطعًا عن الآخر لحظاتٍ من هدوء ملغم وسط الهواء الدافئ داخل قاعة المحكمة ممتزجة بصدى صراخ الجراد.

حُكِم عليَّ بالسجن تسع سنوات وعلى كيم جين سو بسبع سنوات. بالطبع كانت تلك الأحكام بلا قيمة فعلية. واصلت السلطات العسكرية إطلاق سراحنا على دفعات. بما في ذلك الذين حُكِم عليهم بالإعدام أو بالسجن مدى الحياة، إلى أن أخلوا سبيلنا جميعًا بحلول عيد الميلاد في العام الذي تلا الحوادث. دائمًا كان يتم تبرير إطلاق سراحنا رسميًا بعذر «العفو السياسي». لكن في الحقيقة هذا العذر كان بمثابة اعتراف ضمني بغرابة الاتهامات وجزافية الأحكام.

***

بعد عامين من إطلاق سراحنا، وبينما تقترب السنة من نهايتها، رأيت كيم جين سو مرة أخرى.

كان ذلك في وقت متأخّر من الليل. وكنت أخطو خطوات متعثّرة في طريق عودتي إلى البيت، بعد أمسية طويلة من احتساء البيرة مع زميل دراسة من المرحلة الإعدادية. لمحت رجلًا شابًّا يجلس داخل كوخ رَثّ على قارعة الطريق، وقد انكبَّ على صحن يحوي بقايا حساء. لفت انتباهي المنظر فتسمَّرت في مكاني. كانت وضعية جسده مألوفة لي بشكل مؤلم. الرأس المحنيّة على حبات أرز الحساء، واليد القابضة على الملعقة بشدة، والانهماك في الأكل الذي يشبه تركيز الصغار في أداء واجباتهم المدرسية. عيون خالية من أي تعبير، تظللها رموش كثيفة وطويلة، تحدِّق بإمعان في قاع الحساء كما لو أن حلقات الزيت القرمزية اللون ستتجمّع معًا لتشكّل أحجية سيظل فك طلاسمها عصيًا إلى الأبد.

عندما دخلت الكشك وجلست أمام كيم جين سو، نظر إليَّ نظرة باردة وفاترة. تحت تأثير الدوار الناتج عن الشرب، ابتسمت وانتظرت أن يظهر عدم اعتراضه على ثمالتي.

انتظرت شبح ابتسامة تظهر على وجهه. ابتسامة شخص استفاق للتو من نوم عميقٍ. بينما يسأل كل منا الآخر عن أحواله، تبادلت عينانا نظرات أشبه بقرون استشعار غير مرئية، تفحَّصت بدقة الظلال التي طفت على وجه الآخر، وآثار المعاناة التي لا يمكن لأي بهجة مصطنَعة أن تحجبها.

عجز كلانا عن العودة إلى الجامعة، وما زال كل منا يعيش عالة في بيت عائلته. عمل جين سو في متجر للأدوات الكهربائية يمتلكه زوج أخته بينما تقلدتُ وظيفة في مطعم قريب، لفترة وجيزة، لكن كلانا ترك العمل منذ مدة. أخبرته أنني أفكّر في الانتظار حتى بداية السنة الجديدة للالتحاق بعمل في شركة خاصة بسيارات الأجرة، وربما أدَّخر مبلغًا من المال لأشتري سيارة أجرة خاصّة بي في وقت ما من المستقبل. أنصت من دون أي تعليق قبل أن يقول بنبرة جافّة: «نصحني زوج اختي بفعل شيء مماثل. قال لي إنه ينبغي عليّ التعلّم من أجل الحصول على رخصة قيادة شاحنات النقل الثقيل. ففي النهاية لا أمتلك أي فرصة للحصول على وظيفة مكتبية. لكن كيف سأحصل على رخصة قيادة؟ الآن حتى أبسط العمليات الحسابية تصيبني بالصداع. ثمة أيام أواجه فيها صعوبات في تسوية حسابات المتجر التي تتضمّن عمليات جمع بسيطة. نوبات الصداع تلك عنيفة جدًا. من المستحيل أن أحفظ أي شيء من أجل الاختبار».

أخبرته عن معاناتي من ألم متكرِّر في الأسنان لا يبدو أن له أي سبب عضوي، وأنه نادرٌ ما يمر يوم لا أتناول فيه مسكنًا للألم.

«تستطيع النوم؟»، سألني بفتور.

«لا أستطيع. لهذا أنا في الخارج أثمل. لقد تناولت زجاجتي سوجو الليلة. لا تحب أختي أن أشرب في البيت. أعني، هي لا تثور أو أي شيء من هذا القبيل. تكتفي فقط بالبكاء. لكنَّ بكاءها يدفعني إلى احتساء كأس أخرى».

رفع رأسه عن حسائه وقال: «ما رأيك في كأس الآن؟ كأس واحدة فقط؟».

مكثنا هناك، نحتسي الشراب حتى بدأت الشوارع في الازدحام من جديد برجال ونساء يهرعون إلى عملهم. ياقات معاطفهم الصوف مرفوعة لأعلى اتقاء للبرد. احتسينا كأسًا وراء الأخرى من كحول صافٍ مركَّز، يعترينا أملٌ بائس بأن ذلك سيساعدنا على النسيان. ما أتذكّره من تلك الليلة لا يعدو

مجموعة من ومضات متفرّقة تلاشت تمامًا هي الأخرى لاحقًا. لا أتذكّر متى افترقنا ولا كيف تمكّنت من العودة إلى البيت. الشذرات الوحيدة التي انغرزت في رأسي هي إحساسي بالسائل البارد يقطر فوق بنطلوني المخمل عندما أوقع جين سو الزجاجة، ورؤيته يحاول بشكل أخرق مسح السائل المنسكب بكم كنزته. تلك اللحظة التي لم يعد فيها قادرًا على إبقاء رأسه معتدلة واضطراره لإراحة جبهته على الطاولة.

***

بعد تلك الليلة استمررنا في اللقاء من وقت إلى آخر، حيث كنا نحتسي الشراب طوال الليل. مرت سبع سنوات بهذه الطريقة. كان كل منا يرى في الآخر انعكاسًا لحياته المزرية: الفشل في نيل أي مؤهلات، والتعرّض لحادث سير، والانغماس في الديون، والابتلاء بإصابة أو مرض، ولقاء نساء رقيقات تجعلنا نتوهّم للحظة أن معاناتنا قد انتهت أخيرًا، فقط كي نرى تلك العلاقات تنهار أمام عيوننا لا بسبب أي أحد سوانا. وهكذا كنا ننتهي وحيدين من جديد.

مثقلون بكوابيس وأرق وتبلّد في المشاعر بسبب مسكّنات الألم والمنوّمات، أدركنا أننا لم نعد شبابًا. لم يعد ثمة أحد يقلق علينا أو يذرف الدمع شفقة على حالنا. بدأنا نحن حتى في ازدراء أنفسنا. كانت ذكرى حجرة الاستجواب في ذلك الصيف مغروسة داخل ذاكرتنا ومستقرّة بعمقٍ داخل أجسادنا. ذكرى قلم مونامي بيرو الأسود والبريق الشاحب للعظم المتعرّي،

والإيقاع المألوف غير المنتظم لأصوات باكية يائسة تستجدي الرحمة.

أثناء إحدى لقاءاتنا خلال السبع سنوات تلك قال لي جين سو: «أتدري، لقد كان لديَّ قائمة بأشخاص كنت مصمّمًا على قتلهم». راقبتني عيناه الداكنتان بتركيزٍ لم يشوّشه الكحول تمامًا بعد. «فكّرت أنه متى جاء وقتٌ موتي فإنّ عليّ أخذ أرواحهم معي».

ملأتُ كأسه في صمت.

«لكن لم تعد تراودني تلك الأفكار. أصبحت خائر القوى».

ناداني بـ«أخي هيونغ!»، لكن بدلًا من أن يرفع عينيه لتلتقي بعينيَّ أبقى رأسه محنية على كأس الكحول الرائق كأنما أي كلمة قد أقولها موجودة بداخله.

«لقد كنا نحمل السلاح، أليس كذلك؟»، كان يسأل كمن لا ينتظر إجابة. «تخيّلنا أن تلك الأسلحة ستحمينا، أليس كذلك؟».

ابتسم كيم جين سو ابتسامة شاحبة وهو ينظر إلى كأسه كما لو كان معتادًا على تلقّي الإجابة على أسئلته منها. «لكننا عجزنا حتى عن إطلاق الرصاص».

***

في سبتمبر الماضي التقيت به صدفة في وقت متأخّر من الليل أثناء رجوعي إلى البيت بعد انتهاء مناوبة اليوم على سيارة الأجرة. كان أحد أيام الخريف التي يهطل فيها مطر خفيف. حالما انعطفت عند زاوية الطريق، لمحت من أسفل إطار مظلتي كيم جين-سو ينتظرني. كان يرتدي قلنسوة معطفه الأسود المقاوم للمطر فوق رأسه. ربما بسبب اندهاشي في تلك اللحظة أتذكّر الآن رغبتي الملحّة مدفوعًا بسخط غريب في أن ألكم ذلك الوجه الشاحب كالأشباح. أو ربما ليس لكمه، فقط دعكه بيدي كي أمحو ذلك التعبير الذي رأيته. لم يكن تعبيرًا عدائيًا. بدا كيم جين سو منهكًا للغاية لكن لم يكن ذلك خارجًا عن المألوف، فنادرًا ما رأيته في حالة مغايرة خلال العقد المنصرم. لكن كان ثمة شيء آخر في الظلال التي تحوم حول وجهه تلك الليلة. شيء مختلف. شعور يتعذّر تفسيره، ليس استسلامًا أو حزنًا أو حقدًا صرفًا. كان مرئيًّا أسفل رموشه الطويلة. ظاهرًا بشكل جزئي كالثلج المغمور في الماء.

قدته عبر الشوارع المظلمة إلى بيتي. لم يتفوَّه بكلمة طوال الطريق. « ما الأمر؟»، سألته بمجرّد وصولنا إلى البيت وتبديل ثيابي المبللة. خلع معطف المطر وطواه ووضعه على الأرض بجوار الحصيرة. جلس بجانبه منتصب الظهر، مرتديًا قميصًا خفيفًا من القطن. جلسته تلك أعادت إليَّ ذكرى السجن فتصاعد بداخلي غضب لا حدود له. كان ظهره محدودبًا شيئًا ما. باستثناء ذلك كان منظره مماثلًا لذلك الذي كنت أراه عليه كل يوم في ذلك الصيف قبل تسع سنوات. اخترقت الرائحة النتنة لعرقه منخاري. بينما يجلس هناك وعيناه مثبتتين عليّ، بدا وجهه الداكن خليطًا مقزّزًا من الاستسلام والخنوع والتبلّد.

«لا يمكنني شم أي رائحة كحول تفوح منك. كم من الوقت انتظرتني في هذا الطقس الماطر؟».

في النهاية فتح فمه وأجاب: «عُقِدت محاكمة بالأمس».

«محاكمة؟» كرّرت كلمته.

«تتذكّر كيم يونغ شاي؟ كان معنا في الزنزانة نفسها».

جلست في مواجهته. في البداية جلست منتصب الظهر محاولًا محاكاة جلسته لكن سرعان ما أدركت سخافة ذلك، فأسندت ظهري إلى الحائط البارد.

«الصبي الذي كان يتلجلج في الكلام. الذي تجمعني به صلة قرابة من بعيد».

«أجل، أتذكّره». لسبب ما كنت لا أرغب في الاستماع إلى ما سيقوله جين-سو.

«لقد انتهى به الأمر في مصحّة نفسية».

«تمام». نهضت على قدمي وذهبت لألقي نظرة على الثلاجة ولأمنح نفسي بعض الوقت. كانت الرفوف خالية تقريبًا ما عدا أربع زجاجات سوجو مصفوفة في رف الخضار - مخزون للطوارئ يكفي ليومين-.

«على الأرجح لن يُسمح له بالخروج».

أخرجت زجاجتين ووضعتهما على صينية مع كأسين. أمسكت الزجاجة من عنقها لأزيل الغطاء فبللت قطرات ماء باردة تكثفت على سطحها كفي يديّ.

«أخبرونا أنه كاد يقتل شخصًا».

أخرجت بعضًا من سمكات الأنشوفة نصف المقلية من حاوية ووضعتها في طبق وأضفت إليها بعض البازلاء المسلوقة في صوص الصويا. كان ذلك هو كل ما أملكه. خطرت ببالي فجأة فكرة وضع مشروب السوجو في فريزر الثلاجة. فكرت في إحساس طحن مكعبات السوجو المتجمّدة بأسناني، وصوت انسحاقها في فمي.

«أعذرني لا أملك الكثير من المُشهّيات»، قلتُ وأنا أضع الصينية بجوار الحصيرة لكن لم يبدر عن جين سو أي ردة فعل. تابع الحديث بوتيرة تتسارع تدريجيًا.

«المدعي العام يقول إنّ يونغ شاي حاول قطع شرايينه ست مرات في العشر سنوات الأخيرة، وأنه يتناول المنوِّمات ويثمل كل ليلة كي يتمكّن من النوم».

ملأت كأس جين سو.

ببعض الحظ سأتمكن من شرب كأس واحدة معه، ثم أفرد المرتبة واستلقي أملًا في أن أحظى ببعض النوم. سأخبره أن بإمكانه مواصلة الشرب كما يشاء ثم يعود إلى البيت متى توقّف المطر. لم أطلق العنان لخيالي كي يتصور كم مرة التقى فيها جين سو بذلك الصبي في التسع سنوات التي مضت على إطلاق سراحنا، أو كيف كانت حياته خلال تلك الفترة. فمهما كان ما أتى جين سو ليقوله لم أكن راغبًا في سماعه.

أخذ ضوء الفجر الشاحب يتسلل إلى السماء، لكن لا تزال قطرات المطر تتساقط والظلام سائدًا خارج النافذة كأنه المساء.

في النهاية فردت المرتبة فوق الحصيرة وتمدّدت عليها.

«فلتنعم ببعض النوم»، قلت له باختصار. «تبدو عيناك كما لو لم تعرفا النوم منذ سنة».

أعاد ملء كأسه وتجرَّعها. بينما أتقلّب في مضجعي وقد سحبت اللحاف على وجهي، تابع هو الكلام. سيل متواصل من كلمات متدفّقة وثرثرة عشوائية. أردت بقوة ألّا أنصت إليه لكني فعلت.

***

حين أتأمّل حياة ذلك الفتى، أتساءل ما كنه هذا الشيء الذي نسمّيه روحًا؟ مجرد فكرة لا أساس لها؟ أم شيء لا وجود ماديًّا له؟ أم إنّ الروح أشبه بنوع معيّن من الزجاج. زجاج شفّاف وهَشّ، أليس كذلك؟ تلك هي الصفات الأساسية للزجاج. ولهذا علينا أن نتعامل مع كل ما هو مصنوع من الزجاج بحرص. فلو تهشّم أو تشقّق أو انكسر، بات عديم الفائدة، صحيح؟ ليس أمامك حينها سوى التخلّص منه.

في السابق امتلكنا روحًا، نوعًا من الزجاج غير قابلٍ للكسر. حقيقة صلبة وواضحة لدرجة تبدو معها أنها مصنوعة أيضًا من الزجاج. لذا حين أفكر في الأمر، أدرك أنّنا لم نتثبت من

امتلاكنا روحًا إلا عندما تحطمنا. وقتها فقط تأكدنا أننا كنا بشرًا حقًّا. بشرًا مصنوعين من زجاج.

***

كانت تلك هي آخر مرّة رأيت فيها كيم جين سو على قيد الحياة. رأيت نعيه في الجريدة في العام نفسه. لا أملك أي فكرة عمّا حدث له خلال الشهور الثلاثة -التي أفسح فيها الخريف الطريق من أجل قدوم الشتاء- بين لقائنا الأخير وموته. أتذكّر أنه ترك لي ذات مرةٍ رسالةً هاتفيةً في مكتب سيارات الأجرة الذي أعمل فيه لكن لم يكن مسموحًا لنا بأن نُجري مكالمات شخصية أثناء ساعات العمل، وعندما اتصلت به بعد انقضاء مناوبتي لم يردّ عليّ.

تساقط المطر ذلك الخريف بكميات كبيرة غير معتادة، ومتى توقّف المطر أعقبه هبوط حاد في درجات الحرارة. في كل مرة أثناء عودتي إلى البيت بعد مناوبة ليلية كنت أبطئ تلقائيًا قبل أن أنعطف عند زاوية ذلك الشارع متوقّعًا رؤيته. حتى الآن رغم علمي أنه ميت، لا أزال أفعل الشيء نفسه. كلما اجتزت ذلك المنعطف، خاصّة حين تمطر، أستطيع رؤيته في ذهني يقف هناك بوجهه الشاحب كالأشباح في عتمة الليل ومعطف مطره الأسود.

كانت جنازته منظمة ومهيبة. تعرفت على جفونه الغائرة ورموشه الطويلة في وجوه عائلته. تعرفت حتى على تعبير الخواء في أعينهم الذي يشي بعمق غامض. أخته التي لا بدّ أنها كانت تتمتّع في شبابها بجمال فاتن لا تزال تحتفظ بشيء من سحره، صافحتني بآلية قبل أن تشيح بوجهها سريعًا. لم يكن يتوافر عدد كافٍ من الحمّالين لنقل التابوت لذا تطوّعت ورافقت الأسرة حتى محرقة الجثث. مكثت فقط حتى رأيت الكفن يدخل الفرن.

في طريق عودتي، أتذكّر عدم وجود حافلة توصلني إلى البيت مباشرة لذا هبطت من الحافلة عند تقاطع الطريق الثلاثي ومشيت آخر ثلاثين دقيقة من الرحلة.

***

لم تتح لي الفرصة أبدًا للاطلاع على رسالة انتحاره.

هل عثروا على تلك الصورة بجوار الرسالة حقًّا؟ لم يذكرها في حديثه إليّ أبدًا. ولا حتى بكلمة. بالطبع كنا مقرّبين من بعضنا بشكل أو بآخر لكن حين أقلّب الأمر في رأسي، كم كنا مقرَّبين حقًا من بعضنا؟ نعم، كان كل منا يلجأ إلى الآخر

ويعتمد عليه، لكن أحيانًا كان كل منا يرغب في تحطيم رأس الآخر. في محو وجود الآخر. في طرد الآخر من حياته إلى الأبد. وتريدني حقًّا أن أفسِّر لك هذه الصورة، يا أستاذ؟

لكن كيف؟ ومن أين أبدأ؟

الأشخاص في الصورة موتى. قُتلوا بالرصاص وانسكبت دماؤهم على الأرض. أرض الساحة أمام مبنى المقاطعة. لا بد أنّ صحافيًا أجنبيًا التقط الصورة فلم يكن يُسمح للمراسلين الكوريين بتغطية الحوادث.

انتظر! ربما أعرف ما حدث حقًا -لا بد أن جين سو عثر عليها في مجموعة صور وانتزعها-. كان التقاط الصور الجماعية لضحايا الحوادث منتشرًا في تلك الفترة. لا بد أنك شاهدت واحدة بنفسك.

تريد مني الآن أن أخمِّن سبب احتفاظ كيم جين سو بهذه الصورة معه حتى آخر لحظة من حياته؟ لماذا عُثر عليها مع رسالة الانتحار؟ تريدني أن أخبرك يا أستاذ عن هؤلاء الفتيان الموتى الراقدين في صف مستقيم بابتذال كأشجار مبتورة؟

قل لي من أعطاك الحق لتطلب مني ذلك؟

***

منبطحين على الأرض، أبقينا وجوهنا ملاصقة لسجادة الممر داخل مبنى المقاطعة امتثالًا لأوامر الجنود. قرب الفجر أرغمونا على الوقوف وقادونا إلى الساحة حيث جعلونا نركع على الأرض في صف وظهورنا إلى الجدار وأيدينا مقيَّدة خلفنا. أتى ضابط. كان يمشي نحونا باختيال واضح. داس بحذاء الجيش على ظهورنا دافعًا رؤوسنا في الطين بينما يطلق سيلًا من اللعنات: «كنت في فيتنام يا أبناء العاهرات. قتلت ثلاثين من أعضاء الفيتكونغ(15) بيديي هاتين أيها الشيوعيون الملاعين الأوساخ!».

كان جين سو راكعًا بجواري. حين داس الضابط على ظهره، سمعت صوت احتكاك وجهه بالحصى. رأيت خيوطًا رفيعة من الدم عالقة بجبهة جين سو عندما رفع الضابط قدمه أخيرًا عن ظهره.

في تلك اللحظة نزل خمسة فتيان من الطابق الثاني للمبنى رافعين أيديهم فوق رؤوسهم. أربعة منهم طلاب في المرحلة الثانوية.

عندما أمطر الجنود المبنى بوابل عشوائي من رصاص بنادقهم الآلية تحت نور شعلات ضوئية أطلقوها في السماء، ساطع كشمس الظهيرة، أمرتُ هؤلاء الفتية بالاختباء في داخل خزانة حجرة الاجتماعات. خامسهم كان دونغ هو طالب المرحلة الإعدادية الذي دخل في ذلك الجدال المقتضب مع كيم جين سو. ربضوا في مخبأهم حتى لم يعد يصلهم صوت الرصاص، ثم رموا أسلحتهم وخرجوا من المبنى لتسليم أنفسهم. تمامًا كما أخبرهم جين سو.

«انظروا إلى أولئك اللقطاء!»، صرخ الضابط. تجمَّع الزَبد عند فمه، وتطاير البصاق منه أثناء صياحه. «تريدون تسليم أنفسكم، أليس كذلك أيها الشيوعيون الملاعين؟ تريدون أن تنقذوا أرواحكم الثمينة؟!».

بينما لا يزال يضع إحدى قدميه على ظهر جين سو، رفع بندقيته إم 16، ووجَّه فوهتها نحو الهدف وضغط على الزناد. اخترقت الطلقات أجساد الفتية من دون هوادة.

ارتجّت رأسي بعنف إلى أعلى لا إراديًا. رأيت أسنانه البيضاء المصطفة باستقامة في تجويف فمه بينما ينعق في وجه جنوده: «كما في الأفلام، صحيح؟».

هل تفهم الآن؟! الفتيان في الصورة لا يرقدون جنبًا إلى جنب لأن جثثهم قد صُفّت هكذا بعد موتهم. لا، بل لأنهم في آخر لحظة من حياتهم كانوا يمشون في صف. يمشون في خط واحد رافعين أذرعهم لأعلى في الهواء. تمامًا كما أخبرناهم أن يفعلوا!

***

بعض الذكريات لا تشفى أبدًا. فبدلًا من أن تتلاشى مع مرور الوقت، تصبح تلك الذكريات الشيء الوحيد الذي يبقى حين يمَّحي كل شيء آخر. شيئًا فشيئًا يُظلِم عالمي مثل مصابيح كهربية ينطفئُ الواحد تلو الآخر. أدرك الآن أنني لست إنسانًا آمنًا.

هل صحيح أنّ البشر قساة بالفطرة؟ هل القسوة هي الشيء الوحيد الذي نتشاركه نحن-الجنس البشري-؟ هل الكبرياء الذي نتشبّث به ليس سوى وهم يخفي عن أنفسنا هذه الحقيقة الواضحة: إنّ كلًا منا قادرٌ على أن يُختزل في صورة حشرة،

وحش كاسر، كتلة لحم؟ هل مصير الجنس البشري الذي أكد التاريخ حتميته هو أن يُذَلَّ ويُدَمَّر ويُذبَح؟!

قابلت ذات مرةً شخصًا كان جندي مظلات خلال انتفاضة بوسان. حكى قصته لي بعد أن استمع إلى قصّتي. أخبرني أن الأوامر أتت باستخدام أقصى درجة ممكنة من العنف في قمع المدنيين. ومن اقترف أبشع الجرائم في حق المدنيين كُوفئ بمئات الألوف من الوون من قبل قادة الجيش. سأله زميل له باستغراب عندما أبدى اعتراضه في إحدى المرات: « ما المشكلة؟ يمنحوننا المال ويقولون لنا أن نوسِع أحدهم ضربًا، لماذا لن ننفّذ الأوامر؟».

سمعت ذات مرة قصة عن فرقة في الجيش الكوري حاربت في فيتنام. عن إرغامهم نساء وأطفال وشيوخ قرية هناك على إخلاء بيوتهم، والتجمع في ساحتها الرئيسية قبل أن يُضرمِوا النيران فيها. بعض من كُلِّف بذبحنا، فَعل ذلك وفي ذاكرتِه ذكرى المرات السابقة التي اقترف فيها تلك الأفعال في زمن الحرب، وظفره بمكافأة مغرية نظير ذلك. حدث ذلك في غوانغجو كما حدث في جزيرة جيجو(16) وفي كوانتونغ(17) ونانجينغ(18) وفي البوسنة، وفي كل أنحاء القارة الأمريكية عندما كان لا يزال يُطلق عليها اسم العالم الجديد، باستخدام

عنفٍ يكاد يكون متطابقًا كما لو أنه جزءٌ لا يتجزأ من شيفرتنا الجينية.

لا أسمح لنفسي بأن أنسى أنّ كل شخص أقابله هو عضو من أعضاء الجنس البشري، وهذا يتضمنك أيضًا يا أستاذ، وأنت تستمع إلى هذه الشهادة -بل ويشملني أنا نفسي-.

كل يوم أفحص الندبة على يدي. الموضع الذي كان يبرُز منه العظم والجرح المتقيح الذي كان يخرج منه إفرازٌ أبيض حليبيّ. كل مرة تقع فيها عيناي على قلم مونامي بيرو عادي، أعجز عن التنفس.

أنتظرُ الزمنَ كي يجرفني معه كتيار مياه مُوحلة. أنتظر الموتَ كي يأتي ويطهّرني، أن يعتقني من الذكرى اللعينة لمن ماتوا، والتي لا تكفُّ عن مطاردتي ليلَ نهار.

أصارعُ. وحيدًا أصارع كل يوم. أصارع عارَ أنني نجوت. أصارع حقيقة كوني إنسانًا. أصارع فكرة أنَّ الموت هو الطريقة الوحيدة للهروب من هذه الحقيقة.

فلتخبرني يا أستاذ ما الأجوبة التي لم أجدها، وتستطيعَ -أنت- أن تمنحها لي؟ ففي النهاية أنت -مثلي تمامًا- محضُ إنسانٍ.

الفصل الخامس

عينُ الليلِ

(فتاةُ المصنعِ 2002)

تتذكّرين

حين أخبرَتكِ أن القمر يُدعى عينَ الليل.

كنتِ في السابعة عشرة حين سمعت ذلك الوصف. كان ذلك في ليلة أحدٍ ربيعية اجتمعت فيها مجموعتك الصغيرة من فتيات الاتحاد العمالي في بيت سونغ هي. كانت تعيش في الطابق الأخير لذا بعد انتهاء الاجتماع صعدتنَّ إلى السطح، وجلستنَّ في دائرة فوق أوراق الجرائد، وأكلتن ثمار الخوخ.

كانت سونغ هي في العشرين من عمرها. طبيعتها الرومانسية الحالمة يُؤجِّجُها الشِعرُ باستمرار. «ألا يبدو القمرُ كذلك؟»، قالت وهي تحدِّق في القمر المكتمل. عينٌ باردة وشاحبة في كبد السماء السوداء تنظرُ إليكِ، «كعين الليل». كنت الصغرى بينهنّ، ولسبب ما أخافتك تلك الكلمات. «تبدو كلماتُك مرعبةً حين تسميه كذلك، يا سونغ هي»، قلتِ. حينها انفجرت جميع الفتيات ضاحكاتٍ. «لم أرَ أبدًا قطة خائفة مثلك»، قالت لك إحدى الفتيات الضاحكات، وهي تدسّ شريحة من الخوخ داخل فمك. «ما الشيء المخيف إلى هذه الدرجة بخصوص القمر؟».

الآن

تُخرِجين سيجارة، وتضعينها بين شفتيك. تُشعلينها، وتسحبين منها نَفَسًا عميقًا، وتحسين بعضلات حلقك المشدودة تئنُّ ألمًا.

أنتِ وحدكِ في المكتب بالطابق الثاني. حجرة أكبر قليلًا من عشرين بيونغ(19). جميع النوافذ مُغلَقة. تلفحُ وجهك حرارةُ ورطوبةُ أمسية من أمسيات شهر أغسطس وأنت تجلسين أمام الكومبيوتر. كنتِ قد فرغتِ لتوّك من حذف رسالتين من

بريدك الإلكتروني. ما زلتِ لم تضغطي لفتح آخر رسالة في صندوق الوارد.

شعرك المقصوص قصيرٌ. ترتدين بنطلون جينز وحذاءً رياضيًّا لازوَرديّ اللون. أكمام قميصك الرمادي الفاتح طويلة بشكل يكاد يكفي لتغطية مرفقيك. تحوَّل لون قميصك المبلَّل بالعرق في أعلى ظهرك إلى لون أسود كالحبر. بالرغم من ملابسك التي لا تحمل أي طابع أنثوي، فإنَّ جسمك الصغير وعنقك النحيل يمنحانك مظهرًا رقيقًا، يكاد يكون هشًّا.

العرق العالق بخصلات شعرك خلف أذنيك يزحف إلى أسفل فوق فكِكِ ثم يتساقط على ياقة قميصك. مرَّرت أصبعًا بطول شفتكِ العلوية لتزيلي الحبيبات الندية قبل أن تضغطي على الرسالة الواردة حديثًا. تقرأينها ببطء ثم تعيدين قراءتها. تغلقين المتصفّح وتطفئين الكومبيوتر. بينما يتلاشى وهج الجهاز الأزرق، آخر ضوء في الحجرة المعتمة، تسحبين أنفاسًا متتابعة من سيجارتك وتنفثين الدخان في تيارٍ منتظم. دخَّنت نصف السيجارة فقط قبل أن تطفئيها في المنفضة، وتنهضين. تدسّين كفَّيْكِ المتعرّقتين واللزجتين في جيبَيّ بنطلونك. بينما تمشين نحو النافذة، تشعرين بالهواء داخل المكتب المغلق يحيط بك بشكل خانق. تبدو المسافة من المكتب إلى النافذة طويلة. حركتك متثاقلة كما لو كنتِ تخوضين بجسدك في

الماء. حتى أقل قَدْرٍ من الجهد يجعل جسدك كله يتصبّب عرقًا. قطرات العرق اللّامعة تتجمّع كحبات خرَزٍ فوق خصلات شعرك المقصوص. تقفين أمام النافذة وتريحين جبهتك على زجاجها المعتم. الانعكاس الوحيد المتكوِّن عليه هو صورتك. الزجاج مبلَّلٌ قليلًا وباردٌ بانتعاش. تنظرين إلى أسفل نحو الأزقَّة المقفرة والمظلمة التي تتخللها نقاط تمثّل مصابيح الشارع الخافتة الإضاءة. تستقيمين في وقفتكِ وتلتفتين لتلقي نظرة على الساعة المعلّقة على الحائط المقابل ثم كما لو كنت تشكّكين في دقّتها، تقارنين وقتها بالوقت في ساعة يدكِ.

انتفاضة

كنت أستمعُ إلى ذلك الصوت.

***

أيقظني الصوتُ لكن لم أمتلك الشجاعة كي أفتح عينيّ. أبقيتهما مغلقَتَيْن وركزت كي أنصت في الظلام.

***

خطوات أقدام خافتة جدًا تكاد تكون غير مسموعة. قدمان يحدّدان مرور الزمن بخطواتهما شديدة الخفة أشبه بخطوات طفلٍ يتعلم رقصة جديدة وصعبة.

***

شعرتُ بحبل من الألم تضيق عقدته بداخلي. ما استطعت أن أميّز إذا كان الشعور الذي ينتابني الآن خوفًا أم فرحًا.

في النهاية، نهضتُ.

مشيتُ باتجاه الصوت. توقفت أمام الباب. هناك رأيت المنشفة المُبللة التي علّقتها على مقبض الباب في محاولة مني لترطيب الجو قليلًا، كتلة شاحبة في قلب الظلام.

***

ذاك كان مصدر الصوت.

قطرات الماء تتساقط بانتظام لتتشرَّبها الأرضية الورقية للحجرة.

الآن

تضعين جهاز التسجيل أمامك على المكتب بجوار ثلاثة شرائط كاسيت فارغة صغيرة على كل منها ملصقٌ أبيضُ. كنت واعية تمامًا بوجهك اللامع بقطرات العرق وبتنفّسك العميق والمنتظم - رغم عينيك المفتوحتين على اتساعهما- الأشبه بتنفس شخص نائم.

قبل عشرة أعوام عندما اتصل بك يون أول مرة، كنتِ لا تزالين تعملين في منظمة الحقوق العمالية التي تديرها سونغ هي. فقط بعد تمكّنه من التواصل معها، نجح يون في الحصول على رقمك. استمعت في صمت إليه وهو يشرح موضوع الأطروحة التي يعمل عليها الآن، وهو يذكر لك أسماء أفراد ميليشيا المدنيين الذين اختارهم كي يكونوا بؤرة دراسته حول التشريح النفسي.

«سأفكر في الأمر، وأعاود الاتصال بك».

حين هاتفتِه مرة أخرى بعد ساعة، ورفضت إجراء المقابلة التي طلبها منك، قال يون ببساطة أنه يتفهّم الأمر. في الربيع التالي أرسل لك نسخة من بحثه لكنك لم تقرأيه.

قبل عدة أيام، اتصل بك يون لأول مرة منذ عشر سنوات، وقال إنه يريد رؤيتك بشدة ولو مرة واحدة فقط. كانت كلماته ونبرته متحفظة وملحَّة. قال إنه سيرضى حتى بحوار هاتفي.

«الأطروحة التي أرسلتها لك منذ مدة، هل سنحت لك الفرصة لقراءتها؟».

«لا».

بدا مصعوقًا شيئًا ما بسبب ردّك هذا لكنه استعاد رباطة جأشه بسرعة.
أخبرك أنه أجرى المزيد من التحقيقات بخصوص أفراد ميليشيا المدنيين العشرة الذين حاورهم من أجل أطروحته، ليكتشف أن اثنين منهم قد انتحرا. من بين الثمانية المتبقّين، وافق سبعة على إجراء حوار آخر. قام بتسجيل هذه الحوارات، وقرر أن يضمَّها إلى خاتمة الكتاب الذي يعمل

عليه حاليًا، وأضاف أن الأطروحة التي كتبها قبل عشر سنوات ستشكل فصلًا من فصوله.

بعد أن أنهى حديثه، سكت لفترة ثم قال: « هل ما زلتِ تسمعينني؟».

«أجل، أسمعك».

اعتدت في كل مرة تتكلمين فيها عبر الهاتف على تدوين أي رقم يُذكر خلال المحادثة. كتبت في مفكرتك الصغيرة بجوارك تلك الأرقام 10، 8،2،7.

«كان هناك الكثير من السيدات اللاتي احتُجزن في ذلك الوقت لكنني أجد صعوبة في الوصول إلى شاهدة مناسبة. حتى اللاتي رحَّبن بإعطاء شهادتهنّ، كانت تلك الشهادات مقتضبة جدًا وبسيطة جدًا. تجنّبن التطرّق إلى أي شيء مؤلم. رجاءً، قدّمي لي هذه المساعدة. أحتاج إليك، آنسة ليم سيون جو. أحتاجك كي تكوني الشاهدة الثامنة من أجل هذا الكتاب».

هذه المرة لم تطلبي حتى وقتًا للتفكير.

«آسفة لكن لا يمكنني مساعدتك». لم يشِ صوتك بأي مشاعر.

رغم هذا، بعد عدة أيام أرسل يون طردًا إلى مكتبك. بداخله كان جهاز التسجيل والشرائط الفارغة التي تنظرين إليها الآن مصحوبة برسالة. كان خط يده رديئًا جدًا إلى درجة يصعُب معها فهم الكلمات، لكنك بذلت قصارى جهدك لتقرئيها حتى آخرها.

«أتفهم عدم رغبتك في مقابلتي وجهًا لوجه لكن قد يمكنك تسجيل شهادتك بدلًا من ذلك، وإرسال الشرائط إلي؟».

كانت بطاقة عمله مثبتة في نهاية الرسالة بمشبك أوراق.

أغلقتِ الرسالة لتبدو كأنكِ لم تفتحيها أبدًا ثم دسستِها في خزانتك. كانت الأطروحة لا تزال في مكانها منذ وضعتِها هناك قبل سنوات طويلة. أخرجتِها، وتصفحتها بتمعّن. قرأتِ

كل نصٍّ من نصوص الحوار التي تضمّنها الملحق مرتين أثناء بقائك وحدك في المكتب. بمجرد أن يغادر زملاؤك المكتب يعمّه الهدوء. قبل عودتهم تعيدين الأطروحة إلى مكانها السابق بالضبط وتغلقين الخزانة بإحكام كما لو كنت ترغبين في إخفاء حقيقة أنك قد قرأتِها عن نفسكِ.

انتفاضة

كم كان ذلك غريبًا.

***

كان الصوت هو صوت قطرات الماء المتساقطة وحسب، مع هذا تتذكّرين الأمر دائمًا كما لو أن شخصًا قد أتى حقًّا ووقف أمام باب حجرتك.

***

في تلك الليلة الشتوية بدا كأنما خطوات الأقدام المتخيَّلة تلك التي تسببت في عُقدة الألم بداخلك هي الواقع اليقِظ بينما الأرضية المبللة والمنشفة التي تتقاطر منها المياه جزء من حلم ما.

الآن

وضعتِ الشريط داخل جهاز التسجيل.

سيظل اسمكِ مجهولًا، كتب لك يون ليطمئنك. اسم أي شخص أو مكان قد يمُكِّنُ أي أحد يقرأ نصَّ شهادتك من التعرف عليك سيستبدل بحروف مختصرة تُنتقى بعشوائية. تسجيل شهادتك بهذه الطريقة لن يجنبك فقط اللقاء المباشر بل ما كان مريحًا بشكل خاص في ذلك هو قدرتك على مَحو أي جزء تريدين محوه متى شعرت بحاجتك إلى ذلك، ثم إعادة تسجيله إلى أن ترضي عنه.

مع هذا، لم تضغطي على زر التسجيل مباشرة. عوضًا عن ذلك، مرَّرت أصابعك بحرص على زوايا الجهاز البلاستيكية الملساء كأنما تبحثين عن عيب ما في التصميم.

***

بالصدفة البحتة، كانت التسجيلات الصوتية هي بالضبط ما تتعاملين معه في المكتب كل يوم. فوظيفتك هي تفريغ تسجيلات الاجتماعات والمنتديات غير الرسمية على الورق،

وتصنيف صور حوادث معيّنة مع التقارير والمحاكمات والشهادات المتعلّقة بها - أي شيء يتعلّق بقضايا البيئة- وحفظها في حجرة الأرشيف. بالنسبة إلى الحوادث ذات الأهمية الخاصّة، تقومين بصنع ثلاث أو أربع نسخ من فيلم التسجيل الأصلي -سواء كان مرئيًا أم مسموعًا- ثم تقومين بتعديله وتنسيقه على حسب الغرض الذي سيُستخدم من أجله الفيلم لاحقًا. تلك المهمات مُستهلِكة للوقت ورتيبة، ولا تحظى بتقدير خاص لكنها مهمات تتطلّب منك قضاء معظم وقتك بمفردك. حِملُ العمل الملقى على كتفيك أثقل بالطبع مقارنةً بزملائك لكن لم يكن ذلك مشكلة بالنسبة إليك، فقد أصبحت معتادة على العمل في الأمسيات والعطلات. بدلًا من الحصول على راتب شهري ثابت، تحصلين على أجر مقابل كل عمل تؤدّيه. قدر المال الذي تكسبينه بهذه الطريقة لا يكفي حتى لتغطية تكاليف حياتك الأساسية، لكن الوضع المالي كان أسوأ من ذلك أثناء عملك في المنظمة العمالية.

تعملين في وظيفتك الحالية منذ أكثر من عشر سنوات. كل حالات القتل المشتبه بها والتي تقضين أيامك في أرشفتها، حالات موتٍ بطيء جدًا. عناصر مشعَّة بنصف عمر طويل. مواد مُضافة إلى الأغذية تحتاج إمَّا إلى التحريم، أو أن استعمالها محرَّم، لكن لا تزال تُستخدم بطرق غير شرعية. مخلّفات صناعية سامة وكيماويات زراعية وأسمدة تسبب

اللوكيميا (سرطان الدم) وسرطانات أخرى. ممارسات هندسية تدمّر النظام البيئي.

شرائط التسجيل في حوزة يون تتعامل مع عالم مختلف كليةً.

تتخيلين مكتب هذا الرجل الذي لم ترينَ وجهه أبدًا. تتخيلين شرائط التسجيل المصفوفة فوق رفوف مكتبته. كل شريطٍ مُدوَّن على ملصقِهِ الأبيض بخط يون الرديء اسم وتاريخ. تتخيلين كل حالات الوفاة التي ستُطبع على لفائف الشريط البنية الملساء، والأصوات الحية التي ستروي قصصها -قصص الموت-: عالمٌ يعجُّ ببنادق وحراب وهراوات وعرق ودماء ولحمٍ بشريٍّ ومناشف مبللة وريش مثقاب وأنابيب من حديد. لا تفتَقد قصص الموت تلك لعامل الإثارة.

تضعين جهاز التسجيل فوق المكتب مرة أخرى، وتنحنين إلى الأمام وتفتحين خزانتك. تُخرِجين أطروحة يون، وتفتحينها على الصفحة التي يبدأ فيها نص أول حوار.

أرغمونا على الانحناء برؤوسنا طوال الوقت كي لا نعرف إلى أين تتجه الشاحنة. مع هذا كان يمكننا الإحساس حين

صعدت الشاحنة تلًّا. عندما توقفت الشاحنة في النهاية وجرّونا خارجها، كان من الجليّ أننا ابتعدنا عن المدينة بمسافة كبيرة. كان هناك مبنًى لكن لم أستطع تمييز طبيعته. ثم بدأوا في العقاب التهذيبي -تعلم، مثلما يفعلون في الجيش لكن أسوأ بكثير-. ركلونا وشتمونا بأفظع اللعنات وانهالوا علينا ضربًا بأعقاب بنادقهم. أتذكّر أحدنا. رجل ممتلئ الجسم في الأربعينات من عمره لم يحتمل وبدأ في الصراخ بجنون: «فقط اقتلوني وانتهوا من الأمر». أثار ذلك سخطهم حقًّا. اندفع الجنود نحوه وبدأوا بضربه بهراواتهم بكل عزمهم. ضربوه بقسوة بدا معها أنهم لن يتوقّفوا حتى يميتوه. استحال سعار الرجل في لحظة واحدة إلى خمود تام. حتى قدماه توقفتا عن الارتعاش. رشوا عليه دلو ماءٍ بارد ثم التقطوا صورة له. كانت الدماء تقطر من وجهه. دماء مختلطة بالماء. ما جَرُؤ أي منا على فعل أي شيء سوى كتم أنفاسه.

لم تكن هذه هي المرة الأخيرة لحدوث شيء كهذا. قضينا ثلاثة أيام هناك في الردهة الرئيسية داخل هذا المبنى. لم يبدُ أنه مكان تابع للجيش. كانت ردهة عادية يمكنك أن تجدها في أي مبنى عام. كان معظم الجنود يرحلون أثناء النهار ولا يبقى سوى اثنين لحراستنا. أعتقد بأنهم كانوا يعودون إلى مركز المدينة لقمع أي متظاهرين متبقّين. في المساء كانوا يعودون سُكارى. حينها تبدأ جولة أخرى من العقاب التهذيبي. الويل لمَنْ تجرّأ على فعل أي شيء غير الانكماش في مكانه بصمتٍ

تام. أي شخص يغيب عن الوعي، يُركل إلى زاوية حيث يقوم جنود بشده من شعره، وضرب رأسه بالحائط بقوة. حالما يتوقّف عن التنفس، حرفيًا، من شدة الألم، يرش الجنود المياه على وجهه ويلتقطون صورًا له ثم يأمروننا بجرِّ جسده بعيدًا.

صليتُ كل ليلة. لم أتلُ أي صلاة معروفة. لم أحضر في حياتي أي قداس في معبد أو كنيسة. اكتفيت فقط بالتوسّل كي أُعتق من هذا الجحيم. كما ترى، استُجيب لدعواتي. كان نحو مائتين منا قد احتُجزوا هناك. بعد ثلاثة أيام، أطلقوا سراح نصفنا وأنا كنتُ من بينهم. وقتها لم أمتلك أدنى فكرة عمّا يحدث، لكن لاحقًا، اكتشفت أنَّ الجيش كان على وشك تنفيذ خطة انسحاب استراتيجي إلى أطراف المدينة، ففكروا أن وجود عدد كبير من السجناء قد يعوق خطتهم. كان اختيارهم لمن سيُطلق سراحه ومن سيبقى في الاعتقال عشوائيًا تمامًا. ببساطة، كان حظًا أعمى.

أمرونا بالإبقاء على رؤوسنا منكسة إلى أسفل بينما تهبط بنا الشاحنة التل. لكن كما تعلم، كنت صغيرًا وقتها وأظن أن الفضول غلبني. كنت جاثيًا عند حافة الشاحنة مباشرة فلويت رقبتي كي أستطيع إلقاء نظرة إلى الخارج عبر الشق بين ألواح الشاحنة الجانبية.

لم أتخيَّل أبدا أنهم كانوا يحتجزوننا داخل الجامعة.

كان المبنى الذي تركونا فيه كل هذه الفترة هو قاعة محاضرات جديدة تقع مباشرة خلف الملعب الرياضي حيث كنت ألعب وأصدقائي كرة القدم في العطلات. الآن مع احتلال الجيش للحرم الجامعي لم تكن هناك أي إشارة أخرى على وجود حياة بشرية. باستثناء اهتزاز الشاحنة أثناء انطلاقها، كان الطريق صامتا صمت القبور. ثم وقعت عيناي عليهما ترقدان على رقعة من العشب على جانب الطريق. بدتا نائمتين للوهلة الأولى. طالبتان ترتدي كل منهما بنطال جينز وكنزة جامعية وتحملان أمام صدريهما لافتة، كل واحدة تمسك بإحدى نهايتيها. كُتبت الحروف بقلم ماركر سميك لذا أمكنني قراءة اللافتة من مكاني داخل الشاحنة:

أوقفوا قانون الطوارئ

كان أمرًا استثنائيًا حقًّا كيف انحفرت صورة هاتين المرأتين ووجهيهما في ذاكرتي بذلك العمق. ففي النهاية لم أرَ سوى لمحة خاطفة لهما. لكن الآن كلما استغرقت في النوم أو استيقظت، أرى وجهَيمها. بشرتَاهما الشاحبتَان وفمَهما

المطبقان وسيقانهما الممدودة إلى الأمام. أرى صورتهما واضحة جدًا وحيّة جدًا كما لو كانتا أمامي حقًا. تمامًا كما انطبع وجه الرجل الذي يتساقط الدم من فكه وعينيه نصف المغلقتين بداخل جفوني حيث لا يمكنني بلوغها. حيث لن أستطيع خدشها أبدًا.

تعج أحلامك بمشاهدَ مختلفةٍ إلى حدٍّ ما عن تلك التي تطارد المشاهد الأولى.

في ذلك الوقت من الانتفاضة، كنتِ على دراية وثيقة أكثر من الغالبية بالجثث المُشوهة بوحشية، مع هذا لم تراودك أحلام تعج بمناظر الدماء طوال العشرين سنة الماضية إلّا في عددٍ قليلٍ من المرات. على العكس، كانت أحلامك تنزع إلى أن تكون باردة وصامتة. مشاهد يكون فيها الدمُ قد جفَّ تمامًا، وتكون العظام قد استحالت إلى رمادٍ.
وهَجُ مصابيح الشارع الواهنة غلّفها بهالة رمادية، لكن بعيدًا حيث لا يصل ضوؤها، كان الليل حالكَ الظلام. ليس من الآمن أن يهيم المرء خارج حدود هذا المكان المضاء، تفكّرين. لا تعرفين ما قد يختبئ في الظلام. ستكونين على ما يرام طالما لم تتحركي من مكانك قيد أنملة. لا تجازفين بالخروج من دائرة الضوء. فقط تنتظرين، وجسمك متيبّس من التوتر. فلتنتظري الشروق وتلاشي الظلام الخارجي. لقد صمدتِ حتى

هذه اللحظة ولا يمكنك التردد الآن. من الأسلم أن تُبِقي قدميك ساكنتين تمامًا بدلًا من أن تَخطي خطوة خاطئة.

حين تفتحين عينيك، لا يزال الظلام مقيمًا. تنهضين من فراشك، وتضيئين المصباح بجانب السرير. هذا العام ستبلغين الثانية والأربعين. ثمة فترة زمنية واحدة فقط في حياتك البالغة بأكملها عشت فيها مع رجل. لم تتمكني من الحفاظ على تلك العلاقة ولو لسنة واحدة حتى. العيش بمفردك يعفيك من التفكير في إيقاظ شخص آخر ينام بجوارك. تمشين مباشرة صوب الباب، وتضيئين النور. تضيئين كل الأنوار في الحمام والمطبخ ومدخل البيت ثم تملئين كأسًا بماء بارد. ترتجف يدك ارتجافة طفيفة جدًا لكنك تدركيها قبل أن تشرعي في شرب الماء.

الآن

نهضتِ من مقعدك أثر سماعك بوضوح صوتَ شخص ما يديرُ مقبض باب المكتب. تنحنين وتدسّين بسرعة الأطروحة في مكانها في الخزانة وتهتفين: «من»؟ كنتِ قد أغلقت الباب من الداخل.

«إنه أنا. بارك يونغ هو».

تمشين حتى الباب، وتديرين المفتاح في القفل وتفتحين الباب.

«تعملين -تعمل- حتى هذه الساعة؟!».

هتفتما بنفس السؤال في التوقيت نفسه تقريبًا فانفجرتما ضاحكين.

ألقى قائد الفريق بارك نظرة غير مكترثة من فوق كتفك على المكتب. لا تزال آثارُ الضحك عالقةً حول فمه، لكنك تلاحظين الريبة تطل من عينيه. جسمه قصير وغليظ، وبطنه بارزة، وغرة شعره تغطي جبهته في محاولة منه لإخفاء خط شعره المُنحسر.

«لا زلتُ هنا بالطبع بسبب لقاء الغد الخاص بمصنع كوري(20). لا تزال تنقصنا بعض المستندات». ألقى بارك حقيبته بجوار مكتبه وشغَّل الكومبيوتر. واصل محاولة تبرير

وجوده مثل شخص يقوم بزيارة إلى بيت شخص آخر من دون ميعاد مسبق.

«لقد طرأ أمر جديد مما يعني أن عليّ التوجّه إلى المصنع بنفسي. على أية حال، أحتاج إلى كل ملف نمتلكه كي أُقنعهم بغلق المفاعل. كنت مندهشًا جدًا لرؤية الأنوار مضاءة». تابع بنبرة ودودة إلى حدٍّ مفرط. «من الطبيعي أن أعتقد أنَّ المكان سيكون خاليًا في مثل هذا التوقيت». صمت فجأة ونظر حوله وقد علا وجهه ارتباك شاحب، «لماذا المكان حارٌّ هكذا؟». مشى نحو الحائط وفتح النوافذ على مصراعيها ثم أدار كلتا المروحَتَين قبل أن يعود إلى مكتبه وهو يهز رأسه في تعجّب. «هل تفكرين بتأجير المكان كحمام بخار (سونا)».

***

«أنتِ أكبر الموظفين هنا. الموظفون الأحدث منك يتصرّفون من حولك بتحفظٍ شديدٍ. ربما ترهبهم الطريقة التي تتقوقعين بها على نفسك، وتركيزك التام في إنجاز المهمات المنوطة بك. ينادونك دائمًا بصيغة الاحترام»يا أستاذة»، لكنك تردّين بلغة مُهذبة بالقدر نفسه محافظةً على مسافة ثابتة بينك وبين الجميع. حين يفشلون في العثور على شيء، فأنتِ من يلجأون إليه دائمًا. أبحثُ عن الوثيقة الفلانية العائدة إلى عام كذا. لقد بحثت في حجرة الأرشيف لكن لم أعثر سوى على أوراق

مبعثرة هنا وهناك. ألا يوجد كتيّب يحوي نصوص كل الأحاديث؟». تبحثين في ذاكرتك ثم تشرحين: « هذا المنتدى بالتحديد نُظِّم في آخر لحظة لذا لم يكن هناك وقت لطباعة كتيّب. سُجِّلت الأحاديث ثم دوِّنت على الورق لكن في نسَخٍ مُنفردة. لم يُطبع أي شيء بشكل رسمي».

من حين إلى آخر، يحب قائد الفريق بارك ممازحتك قائلًا: «أنت محرّك بحث بشري، يا آنسه ليم».

***

يقف بارك الآن في منتصف حجرة المكتب منتظرًا طباعة المستندات أن تنتهي. عيناه الحادّتان تمسحان محتويات مكتبك. كومة من مناديل مبلَّلة متراكمة في المنفضة وأعقاب سجائر وفنجان قهوة. جهاز التسجيل وشرائط الكاسيت. بدأ الكلام في اللحظة التي قاطعتِ فيها نظرته المتفحّصة كأنما هو واعٍ بحاجته لاختلاق الأعذار لنفسه.

«تبدين كشخص يستمتع بعمله حقًّا، آنسه ليم. أعني، أنني أنظر إليك وأفكر: هذا أنا خلال عشرين عامًا لو واصلت العمل في هذه الوظيفة».

تدركين أنه يفكر في تلك اللحظة في الراتب البخس والمهمات الشاّقّة غير الثابتة ذات المكافآت التي لا تُسمِن ولا تغني من جوع، وفي يديك العظمية والعروق البارزة بطول ظهرَيهما. صمت بارك لبرهة قصيرة لا يُسمع خلالها سوى الأزيز المتعاقب الخافت لطابعة الليزر، وهي تلفظ الأوراق خارجها.

«جميعنا فضوليون بشأنك، يا آنسه ليم»، تابع كلامه. اللطف في نبرته أكثر وضوحًا من ذي قبل. «بالكاد تتاح لنا الفرصة كي نتحدّث معك. لا تتناولين العشاء معنا بعد العمل أبدًا، ولا تدَعين أي أحد يعرف في ماذا تفكرين».

دبَّسَ بارك الأوراق المطبوعة معًا ثم عاد إلى مكتبه. لم يجلس بل اكتفى بالعبث بفأرة الكومبيوتر قبل أن يعاود الانتظار بجوار الطابعة.

«سمعت أنكِ كنت منخرطة في الحركة العمالية قبل قدومك إلى هنا. شيء له علاقة بالحوادث الصناعية، أليس كذلك؟ وفي ذات المنظمة التي كانت تعمل فيها كيم سونغ هي. سمعت أيضًا أنكما مقرَّبتان جدًّا».

«لسنا مقربتين كما قد تتخيّل». أجبتِ واعية بتلك الصداقة التي لا يمكنك الادعاء أنها لا تزال قائمة. «لكنها كانت عونًا عظيمًا لي لمدة طويلة».

«أنا من جيل مختلف لذا كيم سونغ هي بمثابة أسطورة حيّة بالنسبة إليّ. أواخر السبعينات والأيام الأخيرة لنظام يوشين(21) وكل إجراءات الطوارئ التي فرضها الرئيس بارك. لقد تربيت على تلك الحكايات. أتذكّر سماعي عن وقفة عيد الفصح الاحتجاجية على جزيرة يوييدو حين قفزت كيم سونغ هي على المنصة، وأمسكت بميكروفون محطة سي بي إس الذي كانوا يستخدمونه من أجل البث الحيّ، وهتفت: «نحن بشر. ونطالب بمنحنا حقوقنا»، قبل أن تُجَرَّ هي ورفيقاتها بالإكراه بعيدًا عن المنصّة. مجموعة من فتيات بالكاد بلغن بداية العشرينات من عمرهن. كنتِ هناك أيضًا، أليس كذلك، يا آنسه ليم؟».

كان صوت بارك مزيجًا من الإعجاب والجدية. هززت رأسك.

«لا، لم يكن لي أي دور في ذلك. لم أكن في سيول في ذلك الوقت»..

«آهة. أرى ذلك. الأمر فقط أنني سمعت أنكِ قد قضيت بعض الوقت في السجن، وقد خمَّنت دائمًا أن ما حدث في يوبيدو هو السبب في ذلك. هذا ما يظنّه باقي الزملاء أيضًا».

اندفعت رياح محمَّلة بالرطوبة عبر النافذة المعتمة. ارتطمت بك بصورة غامضة مثل شهيقٍ طويلٍ. كما لو ان الليل كائنٌ عملاقٌ فتح فمَه، وزفر نفَسًا نديًّا قبل أن يشهق فيمتص كل الهواء الخانق في أرجاء المكتب إلى داخل رئتيه السوداوين.
سيطر عليك الإنهاك فنكّستِ رأسك. للحظات قليلة حدّقت في تفل القهوة المترسِّب في قاع الفنجان. ترفعين رأسك وتبتسمين تلك الابتسامة التي تعلو محيّاك دائمًا عندما تعجزين عن التفكير في جواب مناسب. لاحت ظلال تجاعيد دقيقة ممتدة من زوايا فمك.

انتفاضة

لستِ مثلي يا سونغ هي.

تؤمنين بوجود إلهي وبهذا الشيء الذي نسميه إنسانية.

لم تنجحي أبدًا في إقناعي بذلك.

ما كنت لأستطيعُ أبدًا الإيمان بوجود كائن يراقبنا من أعلى بحبٍّ مثاليّ.

لم أكن أستطيع حتى إتمام صلاة للرب من دون أن أشعر بالكلمات جافّة ثقيلة في حلقي.

(واغَفرْ لنا خَطَايانا كَما نَغفِرُ نحنُ أيضًا للمُذنِبين إلينا)

لن أغفرَ لأحد، ولا أطلب غفرانًا من أحدٍ.

الآن

ألقت لافتة موقف الحافلات بضوئها الخافت عليكِ حيث تقفين في الأسفل. بداخل حقيبة ظهرك مفكِّرةٌ وقلم حبرٍ جافٍّ وآخر رصاص، ومستحضرات العناية الشخصية الخاصة بك، وقنينة مياه صغيرة وجهاز التسجيل والشرائط.

موقف الحافلات بعيد قليلًا عن الطريق العام لكن ثلاث حافلات تقطع خط السير تأتي إلى هنا. توقفت بالفعل حافلتان وأقلَّت الركاب والآن أصبحت بمفردك.

تنظرين في صمت إلى بلاط الرصيف الذي يمتد خارج حدود إضاءة المصباح. تدورين وتمشين مبتعدة عن اللافتة. حزاما حقيبتك يضغطان على كتفيك بشكل موجع لذا تدسّين يديك أسفلهما لتخفيف الألم. ليالي الصيف خانقة. الهواء الساخن يُثقِل حركتك. تتقدّمين خطوات قليلة في اتجاه ثم تلتفتين وتمشين في الاتجاه المعاكس. تمشين إلى الأمام حيث حافّة الطريق ثم تعودين إلى الوراء وهلم جرًّا.

***

حين جمع بارك أغراضه كي يغادر المكتب، حملتِ حقيبة ظهرك على كتفيك ورافقتِه إلى الخارج. مشيتما معًا حتى

موقف الحافلات، تتنقّلان من حديث إلى آخر بلا هدف قبل أن تفترقا عند وصول حافلة بارك. صعد على متنها ووجد مقعدًا قبل أن يومئ في اتجاهك بارتباك عوضًا عن كلمات الوداع الرسمية. أومأتِ له بدورك.

ماذا كنت ستستطيعين أن تحملي نفسك على فعله لو لم يظهر بارك ويقاطع خلوتك؟ تساءلت.

هل كنت ستقدرين على استحضار القدر الكافي من الشجاعة كي تضغطين على زر «تسجيل»؟

هل كنت ستتمكنين من نسج خيط متصل من الكلمات ولحظات الصمت والسعال المفتعل والتردّد لتشكل هذه الخيوط في النهاية نسيجًا يحوي كل ما أردتِ قوله؟

ستحاولين إقناع نفسك بتصديق أن الإجابة نعم، كان بإمكانك فعل ذلك كلّه. لهذا أتيتِ إلى المكتب اليوم، يوم الإجازة الرسمية لعيد التحرير الوطني. ولهذا قررتِ البقاء طوال الليل لو اقتضى الأمر ذلك. ولهذا أحضرت معكِ أدوات العناية الشخصية.

لكن هل كنت ستمضين في ذلك حتى النهاية حقًّا لو لم تُقاطَعي؟ لو عدتِ الآن إلى حجرتك الضيّقة الخانقة، هل ستتمكّنين من وضع جهاز التسجيل على الطاولة الصغيرة أمامك، وتبدأين كل شيء من جديد مرة أخرى؟!

***

بمجرّد أن سمعت الأخبار عن سونغ هي يوم الاثنين الماضي، بادرتِ إلى الاتصال بها. انتظرتِ ساعة قبل أن تعاودي الاتصال. في محاولتك الرابعة تمت المكالمة أخيرًا. أول محادثة بينكما منذ عشر سنين كانت مقتضَبة وجافّة. كتمتِ أنفاسك وأنصتِّ بإمعان إلى الصوت الذي بات أجشَّ بسبب العلاج الإشعاعي.

«مضى وقت طويل». قالت بصوتٍ متحشرجٍ.

«كنت أتساءل عن حالتك الصحية»..

لم تخبريها برغبتك في القدوم لزيارتها في المستشفى، لذا لم تكن هناك حاجة كي تعترض على ذلك. كان وصول الطرد من يون إلى مكتبك في اليوم التالي مباشرة لحديثكما صدفة بحتة لكن الآن حين تفكرين في الأمر يبدو هذان الحدثان متشابكين بشكل معقَّد كتشابك عقدة الأسلاك الشائكة. تزامنهما معًا يكاد يفوق قدرتك على الاحتمال.

تسجيل شهادتك ورؤية سونغ هي.

التسجيل الذي يجب أن تفرغين منه قبل رؤية سونغ هي.

تَحمُّل الأشياء هو أكثر شيء تجيدينه في الحياة. تكزِّين على أسنانك، وتتحملين أي شيء مهما كان.

كان لا يزال عامٌ متبقيًا على إنهاء المدرسة الإعدادية حين تركتِ الدراسة من أجل الحصول على عمل. كنت دائمًا إنسانة مجِدّة وكتومة. العمل بالنسبة إليكِ ضمانة للحفاظ على عزلتك. من خلال عيش حياة عزلة، يمكنك تسليم نفسكِ للروتين المنتظم لساعات العمل الطويلة المتبوعة بفترة راحة مقتضبة

كي تمضي بكِ الأيام. لا وقتَ للخوف من الظلام خارج حدود دائرة الضوء التي تلفّين نفسك بها.

تتذكّرين

العمل الذي امتهنته في مراهقتك كان مختلفًا.

كنت تعملين خمس عشرة ساعة في اليوم مع يومي إجازة فقط في الشهر. «العطلات الأسبوعية» لم تكن كلمة موجودة في قاموسك. الرواتب كانت نصف ما يتقاضاه الرجال نظيرَ أداء العمل نفسه، ولم يكن هنالك أجر على ساعات العمل الإضافية. تناولتِ حبوبًا لتُبقيك يقظةً، لكن اجتاحك الإجهاد كموج البحر. تتذكّرين تورّمَ باطني ساقيك وقدميك الذي كان يؤلمك، بينما يمضي الصُبح وتأتي الظهيرة. الحرس الذين أصروا على تفتيش العاملات كل ليلة قبل عودتهن إلى بيوتهن. أيديهم التي كانت تتباطأ عمدًا حين تلامس حمّالة صدرك. إحساسك بالعار والمهانة. نوبات السعال الجاف. نوبات النزيف الأنفي. نوبات الصداع. الخيوط السوداء في البلغم الذي كنت تبصقينه.

نحن نبلاء.

كان ذلك أحد الأقوال المفضّلة لدى سونغ هي. كل يوم أحد،/ كونه إجازة، تحضر سونغ هي محاضرات عن القانون العمالي في مكاتب اتحاد شيونغجي لعمال الغزل والنسيج، ثم تقضين الليل في تدوين كلّ شيء سمعته خلالها على الورق. الأوراق التي استخدمتها لاحقًا من أجل اجتماعاتكن. لم يكن لديك فهم واضح للهدف من تلك الاجتماعات حين بدأت حضورها، فكل ما ذكرته سونغ هي عنها أنها من أجل تعلم الهانغا(22). كان ذلك صحيحًا على أرض الواقع، فقد كنت والفتيات الأخريات تتعلّمن الهانغا في كل مرة تلتقينَ فيها. علينا معرفة ألف وثمانمائة حرف إذا أردنا قراءة جريدة بشكل صحيح، كانت سونغ هي تقول. كان النشاط الأول في كل أمسية هو كتابة كل واحدة منكنّ ثلاثين حرفًا في دفترها وحفظها. بعد ذلك تبدأ سونغ هي في إلقاء محاضرتها عن الحقوق العمالية.

وذلك يعني... أننا نبلاء. لم تكن سونغ هي متحدّثة مُفوَّهة وضعيفة القريحة. وكلما فقدت حبلَ أفكارها أو عجزت عن تذكَّر كلمة معينة، كانت تستخدم هذه المقولة كحلٍّ مؤقتٍ ريثما تستعيد السيطرة على زمام الحديث.

وفقًا للدستور نحن نبلاء. نبلاء كأي مواطن آخر. ومثل أي شخص آخر، لنا حقوقٌ وفقًا لنص القانون العمالي. صوتها الرقيق الرنان يذكِّركِ بإحدى معلّمات المدرسة الابتدائية. لقد مات جيون تاي-إيل(23) من أجل هذا القانون.

***

صوَّت الاتحاد العمالي بغالبية ساحقة ضد اتحادٍ تهيمن عليه الشركات. في اليوم الذي أتت فيه قوات فض الإضراب ورجال الشرطة لاعتقال الأعضاء القياديين في الاتحاد، شكَّلت مئات من فتيات المصنع اللاتي كنّ في طريقهن من مساكنهنّ إلى المصنع من أجل المناوبة اليومية الثانية حائطًا بشريًا بأجسادهنّ. معظمهنّ كنّ في سن المراهقة. أكبر فتاة كانت في نحو الواحدة والعشرين أو الثانية والعشرين. لم تكن ثمة هتافات أو شعارات متّفق عليها. فقط «لا تقبضوا علينا. لا يحق لكم القبض علينا».

هاجم أفراد قوات فضّ الإضراب الفتيات اللاتي كن يهتفن، وانهالوا عليهنّ بهراوات خشبية. لا بد أنه كان هناك نحو مائة شرطي مدجّجين بالأسلحة ويرتدون خوذات ودروعًا بالإضافة إلى مدرَّعات خفيفة الوزن، نوافذها مغطاة بشبكة من الأسلاك.

عبرت تلك الخاطرة في رأسك في ذلك الوقت: لِمَا كل هذا؟! نحن لا نستطيع القتال ولا نحمل أي سلاح.

«اخلعن ثيابكنّ».. صاحت سونغ هي. « فلنخلع ثيابنا جميعًا». كان من المستحيل تحديد من استجابت أولًا لهذا الصراخ المُحرِّض لكن في غضون لحظات، كانت مئات الفتيات يلوِّحن ببلوزاتهنّ وتنانيرهنّ في الهواء ويهتفن: « لا تقبضوا علينا!».

الجميع ينظر إلى الأجساد العارية للفتيات العذارى على أنها شيء نفيس، يكاد يكون مُقدَّسًا، لذا اعتقدت فتيات المصنع أن الرجال لن ينتهكوا أعراضهنّ بوضع أيديهم على أجسادهنّ الآن، وهن يقفن هناك بحمالات صدر وسراويل داخلية على جلدهنّ العاري. مع هذا لم يتورّع الرجال عن جرِّهن إلى أسفل على الأرضية المُوحلة. خدش الحصى اللحمَ العاري، وتدفّقت الدماء. تشابك الشعر بسبب الشدِّ وتمزّقت الملابس الداخلية. « لا يحق... لا يحق لكم اعتقالنا». وسط الصراخ الذي يصمُّ الأذان، تعالى صوت ارتطام الهراوات بالأجساد العارية العزلاء والجنود يدفعن الفتيات داخل عربات مكافحة الشغب.

كنتِ وقتها في الثامنة عشرة. أثناء تملُّصِكِ من يدين تحاولان الإمساك بك، إذ انزلقتِ ووقعت فوق الحصى وجرحت ركبتيك. توقّف شرطي بملابس مدنية عن اندفاعه الوحشي إلى الأمام كي يدوس على معدتكِ ويركلكِ في جنبك. أثناء رقودكِ على الأرض ووجهك في الوحل، كانت تصلك أصوات الفتيات صراخًا تارة وهمسات تارة أخرى، بينما يتأرجح ذهنك بين الوعي واللاوعي.

نقلوك إلى حجرة الطوارئ في أقرب مستشفى حيث خضعتِ لجراحة من أجل علاج تمزق في أمعائك. استلقيت هناك على سرير المشفى، بالكاد تستمعين إلى التقارير الطبية عن حالتك.

حين سُمح بخروجكِ، كان بوسعكِ مواصلة المعركة والوقوف كتفًا إلى كتف مع رفيقاتكِ، لكن عوَضًا عن هذا، عدتِ جنوبًا إلى بيت والديك قرب غوانغجو. بمجرّد أن حظي جسدُكِ بوقتٍ كافٍ للالتئام، ذهبت إلى أنشيون وحصلت على وظيفة في مصنع منسوجات آخر لكن طُردتِ من العمل في غضون أسبوع. وضع الأمن اسمك على القوائم السوداء. خبرة سنتين من العمل في مصنع منسوجات باتت لا تساوي شيئًا. اضطر أحد أقربائك لاستغلال بعض نفوذه كي يجد لك وظيفة عاملة ماكينة في محل خياطة في غوانغجو. كان الأجر أسوأ حتى من أجرك حين كنتِ فتاة مصنع لكن في كل مرة تراودك

فيها فكرة الاستقالة والاستسلام، تتذكّرين صوت سونغ هي: وذلك يعني... أننا نبلاء. كتبتِ لها وخاطبتها بـ«أونّي»، أختي الكبيرة:

«تسير أموري على ما يرام يا أونّي. لكن يبدو أنني سأحتاج إلى بعض الوقت كي أتمكّن من تعلم كيف أكون عاملة ماكينة خياطة جيدة. الأمر ليس أنَّ تعلُّم طريقة استخدامها صعبٌ، لكن الأمر فقط أنه لا يوجد أحد يهتم بتعليمي على النحو الصحيح. لكن في النهاية عليّ أن أتحلّى بالصبر، أليس كذلك؟».

بذلتِ قصارى جهدك كي تكتبي كلمات مثل « طريقة الاستخدام» و«الصبر» بحروف الهانغا، وألّا تعتمدين فقط على نطق حروف الهانغل(24). أخذتِ وقتَك في كل جرَّة قلمٍ تستخدمينها لرسم تلك الحروف التي تعلمتيها في الاجتماعاتٍ في بيت سونغ هي. كانت الردود التي تصلك منها مقتضبة على الدوام. «أجل، هذا صحيح. أنا واثقة أنك ستؤدّين بشكل جيّد في أي وظيفة كانت».

استمر الوضع على هذا الحال لنحو سنة أو اثنتين، ثم بدأ عدد الرسائل بينكما يتقلّص شيئًا فشيئًا حتى توقّفت تمامًا.

تطلب منك الأمر ثلاث سنوات كي تصبحين أخيرًا عاملة ماكينة خياطة جيّدة. في ذلك الخريف حين بلغتِ الحادية والعشرين، ماتت فتاة مصنع أصغر منك في اعتصامٍ في المقرِّ الرئيسي لحزب المعارضة. تقرير الحكومة الرسمي صرَّح بأنَّها قد قطعت شرايين رسغيها بشظايا زجاجة سبرايت، ثم قفزت من الطابق الثالث. لم تصدقي كلمة واحدة من هذا التقرير. مثل محاولة تجميع قطع بازل، كان عليك أن تمعني النظر عن كثبٍ في الصوّر المرفقة في أوراق التقرير التي تتحكّم في حيثياته الحكومة، وأن تقرأي ما بين سطور افتتاحية التقرير التي تدين الانتفاضة بلهجة غاضبة وشديدة.

لم تنسَيْ يومًا وجه الشرطي ذي الملابس المدنية الذي داس على جسدك العاري. لم تنسيْ يوما أن الحكومة هي التي سعت لتدريب ودعم قوات فضّ الإضراب. لم تنسيْ يوما أنه على قمة هرم العنف هذا يقف الرئيس بارك شونغ هي نفسه، جنرال في الجيش استولى على السلطة بانقلاب عسكري. استوعبتِ أخيرًا معنى البند التاسع من قانون الطوارئ الذي يُجرِّم بأغلظ العقوبات، ليس فقط الدعوات بإسقاط دستور يوشين، بل أيضًا يجرِّم عمليًا أي انتقاد يوجَّه للحكومة، وأي شعار يهتف به حشود الطلبة المعتصمين أمام البوابة الرئيسية للجامعة. جمعتِ خيوط المعلومات المضلّلة والكاذبة المنشورة

في الجرائد كي تُمنطِقي الحوادث التي تعاقبت بعد ذلك في بوسان وماسان. كنت متيقنة أن ثمة نمطًا ثابتًا في صور كابينات الهواتف العمومية المحطّمة، وأكشاك رجال الشرطة المحترقة، والجماهير الغاضبة التي تقذف الحجارة، يفضح زيفها. لاحظت العبارات المحذوفة عمدًا من المقالات والتي كان عليك ملؤها من مخيلتك.

حين اغتِيل الرئيس بارك في شهر أكتوبر من ذلك العام، سألت نفسك: إذا كان قد أُسِقط الرأس فهل سينهار هرم العنف كلّه؟ هل سيتوقّف الآن اعتقالُ فتيات مصنع عراة عزَّل لا يفعلون شيئًا سوى الصراخ؟ هل سيُحرَّمُ على الشرطيين الدوسَ على أجسادهن وتمزيق أحشائهن؟ من خلال الجرائد، تابعت الصعود الذي بدا حتميًا لتشيون دو هوان، الجنرال الشاب الذي كان أثيرًا لدى الرئيس السابق. يمكنك أن تريه بالفعل في مخيلتك على متن شاحنة تجوب شوارع سيول، كما لو كان في موكب انتصار روماني أثناء اقترابه الهادئ والسلس من الاستيلاء على أعلى منصب في الحكومة المركزية. سرت قشعريرة في ذراعيك وعنقك. أشياء مرعبة على وشك الحدوث، فكرتِ.

اعتاد مالك محل الخياطة، رجلٌ في منتصف العمر على مداعبتك قائلًا: «لا تفترقين عن تلك الجريدة أبدًا كما لو كانت

عشيقك الجديد يا آنسة ليم. يا لها من نعمة أن تكوني شابّة وقادرة على قراءة خط الجرائد الصغير من دون نظارات».

ثم شاهدتِ تلك الحافلة.

كان نهارًا ربيعيًّا منعشًا. اصطحب مالك محل الخياطة ابنه -كان طالبًا في الجامعة- ليمكث فترة مع أقاربه في يونغام وهكذا حصلتِ على يوم إجازة غير متوقَّع. كنت تتمشّين في الطرقات حين لمحتها، حافلة عادية في طريقها إلى وسط المدينة.

«أوقفوا قانون الطوارئ! أكفلوا الحقوق للعمال». كانت الكلمات المكتوبة بقلم ماركر أصفر تكاد تقفز من اللافتات البيضاء التي كُتِبت عليها، والتي تمتد خارج نوافذ الحافلة. كانت الحافلة ممتلئة بعشرات الفتيات من مصانع النسيج في البلدات الريفية بزيّ عملهنّ. وجوههنَّ الشاحبة ذكَّرتكِ بفطر عش غراب لم ير ضوء الشمس أبدًا. كانت الفتيات يخرجن أذرعتهنّ من النوافذ ويطرقن على جسم الحافلة بعصيٍّ صغيرة بينما يغنين. وصلت أصواتهنّ بوضوح إلى حيث تسمّرتِ في مكانك. تتذكّرين أصواتهنّ الآن كما لو كانت صادرة من حنجرة طائر من نوع ما.

«نحن نحارب من أجل العدالة. نحارب.. نحارب.

نعيش معًا ونموت معًا. نعيش معًا ونموت معًا.

نفضِّل الموت واقفين على أقدامنا عِوض الحياة راكعين.

نحن نحارب من أجل العدالة».

كل مقطع من الأغنية جليّ جدًا في ذاكرتك. مأسورة بتلك الأغنية، سرتِ بخطوات متخبّطة -من دون أن تفكّري- في الاتجاه نفسه الذي سلكته الحافلة. حشود كبيرة من البشر نزلت إلى الشارع وشرعت في المسير باتجاه الميدان الرئيسي أمام مبنى المقاطعة. لا يمكنك رؤية الطلاب الذين كانوا يتجمهرون أمام البوابة الرئيسية للجامعة منذ بداية الربيع في أي مكان. أولئك الذين فاضت بهم الشوارع: كبارٌ في السن وأطفالٌ في عمر المدرسة الابتدائية، وعمال مصانع بزيّ عملهم، وموظفون شبّان، وموظفون يعقدون ربطات عنق، ونساء يرتدين سترات عمل وتنانير، وينتعلن أحذية بكعوب عالية،

ورجال في منتصف العمر يرتدون كنزات يزيّنها شعار حركة «قرية جديدة»(25)، ويلوِّحون بمظلات طويلة في أيديهم كما لو كانوا يعلنون عن نيتهم في استخدامها كأسلحة. في مقدّمة هذه الصفوف الطويلة من البشر، كانت تُدفع جثتا الشابين اللذين قُتلا برصاص الجيش أمام المحطة فوق عربة يد باتجاه الميدان.

الآن

تصعدين السلالم الضيّقة وتخرجين من محطة المترو. البرودة المنعشة المتدفّقة من تكييف القطار قد جفّفت العرق المتصبب على بشرتك، لكن الآن عاود الهواء الرطب التكثّف فوق جسمك المكشوف. كانت ليلة استوائية خانقة. رغم أن الوقت الآن يدنو من منتصف الليل، إلا أنَّ الرياح لا تزال مُثقلة بالحرارة.

تتوقّفين أمام لوحة البيانات قرب مدخل المستشفى. بينما تمرِّرين يديك أسفل حزامَي حقيبة ظهرك تتفحّصين بسرعة جدول مواعيد انطلاق حافلات الإياب، لتكتشفي أنها تعمل فقط أثناء النهار. تتنفسين ملء رئتيك من الهواء الفاتر، ثم تلتفتين مبتعدة وتشرعين في المشي صاعدة التل. بين فينة وأخرى،

تحرّرين إحدى يديك من أسفل حزامي حقيبتك لتمسحي العرق اللزج الذي يتساقط أسفل عنقك. رسم أحدهم ببخّاخ لونٍ جرافيتي بدائي على مصراع متجر مغلق. يلهو بعض الشبان أسفل مظلة أمام متجر بقالة -يعمل أربعًا وعشرين ساعة-. يركلون صفائح بيرة فارغة فيما بينهم. تنظرين إلى أعلى صوب المبنى الرئيسي لمستشفى الجامعة التي تربض فوق أعلى نقطة من التل. تسمعين صوتَ غناء الفتيات المُرتحلِ عبر السنين، المنبعثِ من تلك الحافلة، قادمًا من ماضٍ بات مشوَّشًا بفعل الزمن، وهو يشقُ طريقه حتى يبلغ هذه الليلة حيث أنتِ الآن.
نفضِّل الموت واقفين على أقدامنا عِوضَ الحياة راكعين. فلننضم جميعًا من أجل دقيقة صمت إجلالًا لهؤلاء الذين دفعوا أرواحهم بالفعل ثمنًا لهذا. فلنتبع خطاهم ونواصل القتال حتى النهاية لأن.... لأننا نبلاء.

***

تتجاوزين البوابة الرئيسية إلى داخل مُجمع المستشفى، وتسيرين بطول الممر الممتد حتى المبنى الرئيسي بعد أن يتفرَّع، أولًا في اتجاه المبنى الملحق وقاعة التأبين. مُحيطُه المُمهَّد يَحدُّه من كلا الجانبين صفٌّ من مصابيح الإنارة. تصطف أكاليلُ الزهور بطولِ المسافة بين المدخل وقاعة التأبين. يقف قُربها شبّانٌ يدخّنون. تلتف شاراتٌ صفراءُ حول أذرعتهم فوق قمصانهم البيضاء.

الوقت متأخِّر لكنك في كامل يقظتك. حزاما حقيبة الظهر منغرسان في لحم كتفك، وظهرك مشبعٌ بالعرق لكنك لا تبالين. تواصلين المشي، وسيل من الأحلام التي اختارت هذا التوقيت بالذات كي تطفو على السطح، ينطلق كالسهم في رأسك.

سُقوطُك الحرُّ من على سطح ناطحة سحاب، مرتدية سترة واقية تتصل بها مئات الصفائح الحديدية. رغم ارتطام دماغك بالأرض، لا تموتين. تنهضين وتصعدين سلالم الطوارئ ثم تمشين مباشرة حتى حافة السطح وتقفزين من فوقها. لا تموتين هذه المرة أيضًا. تكرّرين الأمر صاعدة السلالم لتسقطي من جديد. تتلاشى إحدى طبقات الحلم لتجدي نفسك واعية بالموقف بشكل كافٍ كي تتساءلي: ما الفائدة من ارتداء سترة واقية إذا كنت أسقط من مثل هذا العلو الشاهق؟! لا تستيقظين، بل تمضين إلى طبقة أخرى من الحلم. تشعرين بكتلة جليدية عملاقة تجثم فوق جسمك. تتمنّين لو كنت تستطيعين التدفّق من تحتها، أن تصبحي سائلًا: ماء بحر أو زيت أو حمم بركانية، وأن تتخلّصي من تلك الحدود الصلبة المحكَمة التي تُغلِّفَك كتابوت. قد يمكنكِ بتلك الطريقة فقط العثور على نوعٍ ما من التحرر. تُمزَّق هذه الطبقة من الحلم نفسها أيضًا وتتلاشى بنعومة من حولكِ، كاشفة عن جوهر الحلم الأساسي. تقفين في دائرة الضوء الرمادي لمصابيح الشارع، وتتأمّلين الظلام

المُتجمِّع خارجها. يفقد الحلم طابعه الوحشي تدريجيًا بينما تقتربين أكثر من اليقظة. ينحسر النوم ويصبح هشًّا كورقة كتابة ثم ينهار كليا. في الزوايا الهادئة لذهنك الواعي تنتظر الذكرياتُ. ما تستدعيه تلك الذكريات لا يمكن قصر تسميته على كلمة كوابيس.

تتذكّرين

لقد نجحتِ، أليس كذلك؟ نجحتِ في وضع كل هذا ورائك. نجحتِ في إبعاد أي شخص هدَّد بإصرارِه على استدعاء الماضي بالتسبّب بأقل قدر من الألم لك، عن حياتك.

تتذكّرين ضغطك على الكلمات المندفعة عبر أسنانك المطبقة. «أي حق تمتلكه كي تحكي قصتي للآخرين؟!». تتذكّرين صوت سونغ هي الهادئ يسألك إذا كان عرض قصتك على الملأ سيكون بهذه الصعوبة حقًّا. حتى مرور عشر سنوات ما كان كافيًا بالنسبة إليك لتسامحيها على ذلك. كيف قالت لك: لو كنتُ مكانكِ، لما اختبأت. لما تركت ما تبقى من حياتي يتسرّب من بين يديَّ بسبب انشغالي الشديد بحماية ظهري من الماضي.

الآن

كانت الأنوار جميعها مطفأة في ردهة مبنى المستشفى الرئيسي حيث توجد معظم العنابر. على خلاف ذلك، كانت الأنوار مُضاءةً من مدخل المستشفى حتى جناح الطوارئ بجوار المبنى الملحق. أمام المدخل توقفت سيارة إسعاف تابعة لمستشفى المقاطعة، كشّافاتها تُومض وأبوابها الخلفية مفتوحة على مصراعَيْها، كما لو أنَّ حالة حرجة قد تم نقلها بسرعة من السيارة إلى داخل المستشفى منذ لحظات قليلة فقط.

أبواب المستشفى الرئيسية مفتوحة على آخرها. تخطين عبرها وتشرعين في المشي في الممر. تسمعين أصواتًا هامسة مستعجلة تتخلّلها صرخاتٌ، وصوت الطنين الآلي للأجهزة الطبية، وصرير عربات المشفى وعجلاتها تندفع بطول الأرضية المغطاة بمشمع. تجلسين على أحد المقاعد التي لا ظهر لها في ردهة الاستقبال.
«ما سبب تواجدك هنا؟»، سألتك امرأة تجلس خلف منضدة الاستقبال.

«أنا في زيارة مريضة هنا»..

ذلك ليس صحيحًا. لم تخطِّطي لأي لقاء. تعلمين أن ساعات الزيارة خلال الصباح فقط. وحتى وقتها لا تمتلكين أدنى فكرة إذا كانت سونغ هي ستوافق على رؤيتك.

دخل إلى ردهة الاستقبال رجلٌ في منتصف العمر يرتدي ملابس تخييم كاملة، يمشي بصعوبة. كان يتكئ على ذراع رجل آخر يحمل ما بدا أنه حقيبة ظهر الرجل المصاب بالإضافة إلى حقيبته هو. بالنظر إلى الجبيرة البدائية المؤقتة حول ذراع الرجل المصاب، بدا أنه أُصيب أثناء تخييم ليلي.

«لا تقلقْ، سيكون كل شيء على ما يرام. « طمأنه صديقه. «نحن هنا الآن». التعبير الذي يكسو وجهَيْهما متشابه بشكل مذهل. حين دقَّقتِ النظر، أدركتِ أنَّ ملامح وجهَيْهما متشابه أيضًا لذا من المحتمل أنهما ليسا صديقَيْن، بل شقيقَان.

«لم يتبق الكثير الآن. سيكون الطبيب هنا في أي لحظة. سيكون الطبيب هنا في أي لحظة».

ظللتِ في مكانك، تجلسين على حافة مقعدك وظهركِ متصلّبٌ، تستمعين إلى الرجل غير المصاب، يكرّر تلك الكلمات كما لو كانت تعويذة ما. سيكون الطبيب هنا في أي لحظة.

تتذكَّرين

تتذكَّرين الفتاة التي أخبرتكِ ذات مرة منذ سنوات طويلة أنها تريد أن تكون طبيبة.

كان حدوث ذلك مستحيلًا. كان ذلك جليًا لك فجونغ مي لن تصبح أبدًا مثل هؤلاء الأطباء المحترفين الأذكياء والواثقين بأنفسهم، الذين يسيرون بحيوية داخل وخارج عنابر المستشفى. أخبرتكِ عن أخيها الأصغر جونغ داي، عن حاجتها للعمل المتواصل حتى تراه يتخرّج من الجامعة. فكّرتِ أنه بحلول الوقت الذي سيتخرج فيه أخوها من الجامعة، ستكون هي قد بلغت منتصف العشرينات، وحتى لو ذاكرتِ باجتهاد لاجتياز امتحانات المدرسة الإعدادية مباشرةً بعد ذلك فلن.... لكن من تحاولين أن تخدعي هنا... لا، سيكون العمل في المصنع قد التهمها، وبصق ما تبقى منها قبل ذلك بكثير. فقد كانت جونغ مي تعاني بالفعل من نوبات متكررة من نزيف

الأنف وسعال عنيف لا تستطيع التخلّص منه. تتجول بين ماكينات الخياطة بساقَيْها النحيلتين كفجلتين صغيرتين، وتخطف ما يتسنى لها من دقائق شحيحة من وقت إلى آخر للنوم مُستندةً إلى عمود قبل أن تنزلق مُرتمِيةً على الأرض حين ينفجر بداخلها إحساس مفاجئ بالخدر من شدة الإجهاد. كيف يمكن النجاة وسط مثل هذا الضجيج الدائم؟ كانت تهتفُ لكِ. لا يمكنني حتى سماع أفكاري. عيناها متسعتان من الرعب وقد صُدمت من الضجة المهولة الصادرة عن ماكينات الخياطة في أول يوم لها في ذلك العمل.

الآن

تخترق منخاريكِ رائحةُ منظّف نفّاذة حين تدخلين إلى مرحاض المستشفى. تفتحين الصنبور. تأخذين رشفة من قنينة المياه ريثما يمتلئ الحوض. بعد أن تفرغي من غسل وجهك، تفرشين أسنانك جيّدًا. غسيل شعرك بصابونة يد وتجفيفه بالمنشفة ذكّرك بالاعتصامات التي اعتدت على الذهاب إليها برفقة سونغ هين حين كنتِ تُحضِرين معك في حقيبة مستحضرات النظافة الشخصية القطنية الخاصة بك عيّنة من كريم ما. تمزِّقين العبوة وتدهنين بالكريم خدَّيكِ الشاحبَيْن.

حين تحدّثت مع سونغ هي عبر الهاتف يوم الاثنين الماضي، بدا صوتها متغيِّرًا لدرجة أنك عجزتِ في الوهلة الأولى عن تخيّل وجهها. فقط بعد أن انتهت المكالمة، تمكّنتِ من استحضار صورة عينيها اللامعتين المشرقتين، وقطعة اللبان الوردية التي تبرز من فمها كلما ابتسمت. لكن بالطبع مضت عشر سنوات، ولا بدَّ أن وجهها تغيّر وكذلك صوتها بعد أن أضناهما المرض والكِبَر. في هذه اللحظة لا بدَّ أنها نائمة، وأنَّ تنفسها خافتٌ ومُرهَقٌ، يقطعه شخيرٌ يشبِه صوت أنفاسِ حيوانٍ عليلٍ.

تتذكّرين

تتذكّرين تلك الليلة في قلب الشتاء في حجرة العلية في منزل من طابقَيْن يملكه قسيس أمريكي كان مفوَّضًا للتبشير بالمسيحية بين عمال المصنع. مكان لا يمكن للشرطة اقتحامه متى شاؤوا. مكان كانت تلوذ سونغ هي إليه كلما شعرت بالخطر لعدة سنوات خلال عشريناتها. مكان كنتِ تتجرَّدين فيه من أيّ إحساس بالخجل، وتنامين، وجسدك مكوَّم بجوار جسدها. تتذكّرين شخير سونغ هي طوال الليل الذي كان صادمًا مقارنة بالانطباع المعتاد الذي تمنحه سونغ هي للآخرين بجديتها الرقيقة. حاولتِ ليلتها الالتصاق بجسمك إلى الحائط، حاولتِ سحب اللحاف الذي تفوح منه رائحة سم

الفئران لتغطي رأسكِ، لكن ما نجح أي شيء في أن يحجبَ عنكِ صوتَ شخيرها الذي يصمُّ الآذان.

الآن

مستندةً بظهركِ إلى الزاوية حيث يلتقي صَفّان من المقاعد وأنتِ تحتضنين حقيبة ظهرك، استغرقتِ في غفوة. في كل مرة يُفزِعكِ فيها صوتٌ خارجي وينحسِر تأثيرُ النوم، تُومِض في ذهنكِ الكلمات المُكرَّرة في البريد الإلكتروني الذي أرسله يون إليك، وصورة عازف بيانو ينقر بقوة على مفاتيح البيانو نفسها، كوميضِ مؤشِّرٍ على شاشة كومبيوتر.

شهادة. معنى. ذاكرة. من أجل المستقبل.

انبعثت الحياة في الأعصاب التي تخترق مقلتَيْ عينيك، رفيعة جدًّا كالأسلاك الدقيقة بداخل مصباح كهربائيٍّ في نفس اللحظة التي انفتح فيها جفناكِ. تلتفتين بعضلات وجهكِ التي لا تزال مُثقلةً بالنعاس لتتفحَّصي الردهة الخافتة الإضاءة، والسَّوادَ العميق خلف الباب الزجاجي. تعيشين مرة أخرى اللحظة نفسها التي التحمت فيها ملامحُ المعاناة التي خَبِرتها

من ذي قبل لتتكشّفَ أمامك بوضوحٍ، وضوح أكثر برودة وقسوة من أي كابوسٍ يمكن أن يحلمٍ به إنسان. اللحظة التي تجدين فيها نفسك مجبرة على الاعتراف بأن ما مررت به لم يكن محض حلم.

طلب منك يون أن تتذكّري. أن تواجهي تلك الذكريات. أن تمتلكي القوة كي تكوني شاهدة عليها.

لكن كيف قد يكون شيء كهذا ممكنًا؟

هل من الممكن أن أكونَ شاهدةً على حقيقة أنَّ مسطرة خشبية بطول قدم قد دُفعت بالإكراه بشكل متكرّر داخل مهبلي حتى الوصول إلى الجدار الخلفي لرحمي؟ أن عقب بندقية كان ينهال على مؤخرة عنقي كالهراوة؟ هل من الممكن أن أكون شاهدة على حقيقة أنه حين كان النزيف لا يتوقّف لدرجة يُغمى عليّ فيها، كان عليهم نقلي إلى المستشفى من أجل نقل الدم؟ هل من الممكن أن أواجه حقيقة نزيفي المتواصل خلال العامين التاليين؟ أن أواجه الجلطة الدموية التي تكوَّنت بداخلي في قناتَيْ فالوب وجعلتني عقيمة إلى الأبد؟ هل من الممكن أن أكون شاهدة على حقيقة أن الأمر قد انتهى بي إلى الإصابة بنفورٍ مرضيّ من أي تواصل جسديّ، خاصّة مع الرجال؟ هل

من الممكن أن أكون شاهدة على أن مجرّد ملامسة شفتَيْ شخص لشفتيَّ، أو مسّ أيديهم لوجنتي، أو حتى مجرّد نظرة عابرة تتفقد ساقيَّ المكشوفتين في أيام الصيف، كانت كما لو أن جلدي يُدمغ بوسم من حديد؟ هل من الممكن أن أكون شاهدة على حقيقة أنني قد أصبحت أمقتُ جسمي، الكيان المادي لذاتي؟ هل من الممكن أن أكون شاهدة على أنني قد دَمَّرتُ عمدًا أي دفء أو حُبٍّ حاول أن يمنحني إياه أي إنسان، قد تكون قوَّته أكبر من قدرتي على الاحتمال، وأنني لذتُ بالفرار إلى مكان أكثر برودة، إلى مكان أكثر أمانًا. لماذا؟ فقط كي أبقى على قيد الحياة.

***

لا يمكنكِ أن تري من مكان جلوسك سوى جانب فقط من قسم الطوارئ ينيره باستمرار التوهّج المزعج لإضاءة خافتة. يبدأ شخصٌ ما في التأوّه طفلة أو شابّة. يصعبُ عليكِ التمييز. ثم تليه الأصوات المرتفعة لزوجين في منتصف العمر -في هما في الغالب والدَيّ المريضة-. ثم صوت خطوات مهرولة قبل أن تشاهدي ممرضةً تركض.

تحملين حقيبة ظهرك على كتفيك وتنهضين. تسيرين إلى الخارج. تقف سيارتا إسعاف مصابيحهما الخاّصة بالطوارئ

مطفأة، متجاورتَيْن أسفل ضوء بارد. فقدت الرياح دفئها الرطب وخمدت الحرارة أخيرًا.

تمشين بمحاذاة الطريق الأسفلتي لبرهة قبل أن تخطين إلى الجانب فوق العشب الذي يُفترض أنَّ السير فوقه ممنوعٌ. تسلكين مسارًا مائلًا يخترق العشب متّجهة صوب المبنى الرئيسي. جوربك الرياضي القصير يترك كاحليك مكشوفَيْن مرة أخرى تلامسهما حوافُ العشب المبللة. تأخذين نفَسًا عميقًا. المطرُ الذي يُوشِك على الهطول ينشر الرائحة القوية للطمي المترسِّب في التربة. حين تقطعين نصف المسافة عبر العشب مرة أخرى يبدأ وجها الفتاتين في التسلل إلى رأسك وهما تستلقيان جنبًا إلى جنب مرة أخرى ولافتة تستقر فوق صدريهما. وجهاهما الناعسان وهما ترفعان اللافتة فوق رأسيهما قبل أن تنحّياها جانبًا وتقفان على أقدامهما وتخطوان بخفة فوق العشب.

حلقُكِ جافٌّ. ثمة مذاق مرٌّ في مؤخرة فمك رغم أنك قد فرشيت أسنانك منذ ساعة فقط. تشعرين كأنّ ما يقبع تحت العشب الداكن، ما تواصلين الدَّوْسَ عليه بقدميك ليس تربة بل شظايا دقيقة وحادة من الزجاج.

انتفاضة

بعد تلك الليلة امتنعتُ عن تعليق المنشفة المبللة على مقبض الباب.

مع هذا طوال ذلك الشتاء وحتى في الربيع، حين لم يعد الهواء جافًّا جدًّا، وانعدمت الحاجة إلى منشفة مبللة، واصلتُ الاستماع إلى ذلك الصوت الذي يبدو أنه قادمٌ من الجانب الآخر للباب مباشرة.

حتى الآن، في المرّات التي أتمكّنُ فيها من الاستيقاظ من نوم خالٍ من الكوابيس، أسمعُ ذلك الصوت. في كل مرة تنفتح فيها عيناي المرتجفتان لأواجه الظلام.

من؟!

من هناك؟!

من الذي يسعى للوصول إليّ، وله مثل خطوات الأقدام الخافتة تلك؟

تتذكّرين

مصاريع أبواب كل المباني مغلقة. جميع النوافذ مقفلة ومظلمة. معلقًا فوق الشارع المظلم، يتدلّى قمر اليوم السابع عشر في السماء كمُقلة عين مصنوعة من الثلج، تحدق إلى الأسفل نحو الشاحنة التي تستقلينها. غالبية من يركبون الشاحنات ويجوبون المدينة بمكبّرات الصوت من أجل البث الإذاعي في الشوارع كنّ من الطالبات. لكن حين نال الإنهاك تمامًا من كل الفتيات اللاتي كنّ معك داخل الشاحنة، وقلن إنهن يشعرن كأن حناجرهنّ قد سُدَّت ولم تعد قادرة على إصدار أي صوت أعلى من الهمسِ، قمتِ - أنتِ- بالبث الإذاعي لأربعين دقيقة متواصلة. أخواني وأخواتي، رجاءً، أشعلوا الأنوار. كانت تلك هي نوعيّة الكلمات التي استخدمتِها لتخاطبي النوافذ المظلمة والأزقّة المقفرة. من أجل الرب، رجاء أشعلوا الأنوار فقط.

***

لم تفهمي إلا لاحقًا سبب سماح الجنود لكنّ بالتجوال بالشاحنة في المدينة، وبالبث الإذاعي طوال اليوم، وانتظارهم حتى منتصف الليل قبل إجباركنّ على الهبوط من الشاحنة واعتقال كل ركابها. كانوا ببساطة لا يرغبون في الكشف عن تحرّكاتهم. الفتيات اللاتي قمن بالبث الإذاعي بالفعل تم اقتيادهن إلى الزنازين في قسم شرطة غوانجسان بينما اقتيد الرجل الذي كان يقود الشاحنة إلى المدرسة العسكرية. كان بحوزتك مسدسٌ عند اعتقاللكِ لهذا فصلوكِ عن النساء الأخريات، ونقلوكِ إلى الحبس في السجن العسكري.

كانوا يشيرون إليك هناك بـ«العاهرة الشيوعية» لأنك كنت فتاة مصنع في الماضي، وانخرطتِ في الحركة النقابية العمالية. أشار التقرير الذي صاغوه أنَّ فترة الأربع سنوات التي قضيتِها في محل الخياطة فيما أطلقوا عليه « مدينة نائية»، كانت مجرّد ستار يخفي وراءه حقيقةَ أنك جاسوسة أرسلها الشمال الشيوعي.

كي ينتزعوا منك اعترافًا لتأكيد تلك الاتهامات، أرغمُوكِ على الاستلقاء فوق طاولة في حجرة الاستجواب يومًا تلو الآخر. «أيتها العاهرة الشيوعية القذرة، اصرخي كما تحبين فمن سيأتي راكضًا لنجدتك؟!».

ومض أنبوب الإنارة المعلّق بطول سقف حجرة الاستجواب. أسفل السطوع الضعيف لذلك الضوء غير المؤذي على الإطلاق، واصلوا تعذيبهم لك، واستمر نزيفك لوقت طويل جدًّا، حتى تجرَّدتِ تمامًا من أي إحساس.

بعد قرابة عام من خروجك من هناك، رأيتِ سونغ هي مرة أخرى.

ذهبتِ إلى الكنيسة التبشيرية الصناعية لتسألي عن مكانها. تمكّنتِ من الاتصال بها وترتيب موعد للقاء في مطعم معكرونة صغير في غيرو-دونغ. بدت مصعوقة وهي تستمع إلى قصتك.

«لم يخطر ببالي أبدًا أنك قد تكونين في السجن. لقد ظننتُ أنكِ تعيشين حياة هادئة في مكان ما، وتحاولين وضع الماضي وراءكِ».

فترات طويلة قضتها إمَّا سجينة أو طريدة، تُعتقلُ ثم يُطلق سراحها فقط كي يلاحقوها من جديد لـ«ارتكابها المزيد من

الأعمال التحريضية»، تركت وجنتي سونغ هي ضامرتين جدًا لدرجة يصعب معها التعرّف على أنها الشخص ذاته. كانت في السابعة والعشرين حين التقيتها في ذلك الوقت، لكن كان من السهل أن يخمن أيٌّ أحدٍ بالخطأ أنها أكبر من ذلك بعشر سنوات.

صمتت لبرهة بينما يتصاعد البخار من طبق المعكرونة الباردة أمامها.

«اختفت جونغ مي في ذلك الربيع، تعرفين ذلك؟». هذه المرة حان دورك لتعلو وجهك الدهشة. «سمعت أنها قدّمت العون إلى الاتحاد العمالي لبرهة. كنا جميعًا في القائمة السوداء بالطبع لذا استقالت من عملها في المصنع قبل أن تسنح الفرصة لهم لطردها. بعدها لم أسمع أي شيء عنها. في الحقيقة لم أسمع عن اختفائها إلا مؤخرًا. المرأة التي أخبرتني بذلك كانت معتادة على حضور فصول ليلية برفقتها حين كانتا تعملان معًا في مصنع منسوجات في غوانغجو».

حدقتِ في صمت في الأشكال التي يكوِّنُها فم سونغ هي. كما لو أن لغتك الأم باتت طلاسم غير مفهومة. فوضى لا معنى لها من الأصوات.

الكلمات التي صارعتِ للنطق بها، أبت الخروج. لا يمكنكِ حتى تذكّر وجه الفتاة بأي وضوح. جهدك من أجل التذكر يتآكل. مجرّد شذرات تطفو إلى السطح للحظة فقط كي تختفي من حيث أتت. بَشَرة شاحبة. صَفَّان متراصَّان من أسنان بيضاء صغيرة. أريد أن أكون طبيبة.

ثم لا شيء.

انتفاضة

عدتُ إلى غوانغجو كي أموت.

لفترة قصيرة بعد خروجي من السجن، سمح أخي الأكبر لي بالبقاء معه في الريف، لكن الشرطة كانت تمتلك عنوانه في ملفي. زيارتهم إلى منزله مرتين في الأسبوع كانت أمرًا لا يُطاق بالنسبة إليّ.

ذات نهار في أوائل فبراير، قبل أن تُشرقَ الشمس، ارتديتُ أفضل ثياب أمتلكها، وحزمت حقيبة ظهري بضروريات

أساسية قليلة ثم خرجت لأستقلّ إحدى الحافلات التي تتنقّل بين المدن.

من النظرة الأولى، بدت المدينة كأنها لم تتغيّر كثيرًا، لكن لم يمضِ وقتٌ طويل قبل أن أدركَ أنه لم يعد أي شيء في الحقيقة كما كان. كانت هناك ثقوب خلَّفها الرصاصُ في الجدار الخارجي لمبنى المقاطعة. ثمة شيء غريب الأطوار بشأن وجوه كل البشر السائرين في الشوارع بثيابهم الكئيبة الألوان كما لو كانت مُشوَّهة بندباتٍ غير مرئية. مشيتُ وسطهم، وكتفاي يحتكّان بأكتافهم. لم أشعر بالجوع ولا العطش، ولم تبرُد قدماي. شعرتُ كأنَّ بإمكاني مواصلة المشي طوال ذلك النهار وخلال الليل حتى تشرق الشمس من جديد.

كان ذلك حين رأيتك دونغ هو.

كنت أنظرُ في صوَر بعض الطلبة التي ألصقت على حائط المركز الكاثوليكي على الطريق الرئيسي المؤدّي إلى مبنى المقاطعة. كانت الشرطة تهديدًا دائمًا لي. حتى وقتها، كنت أشعر بأنَّ أحدهم قد يكون مختبئًا في مكان قريب، يراقبني. سحبتُ إحدى الصور بسرعة، وطويتها بإحكام وأطبقت عليها بداخل كفّي. اجتزتُ الشارع الرئيسي وتواريتُ في زقاق.

لمحتُ لافتة مقهى مُوسيقي، فقفزتُ السلالم حتى الطابق الخامس. جلستُ داخل الحجرة الفسيحة المعتمة الإضاءة ككهف، وطلبتُ فنجان قهوة. بقيتُ في مكاني ساكنة من دون أي حركة حتى عاد النادل، ووضع فنجان القهوة أمامي وتركني بمفردي، كانت الموسيقى تصدح بقوة في مكان واسع كهذا، لكنني بالكاد كنت واعية بأي نوتة موسيقية. كنت كما لو أنني قد غطست داخل مياه عميقة. في النهاية حينما تيقنت أنني وحدي تمامًا، أرخيت قبضتي وفردت الصورة.

كنتَ -يا دونغ هو- مستلقيًا على جنبك في ساحة مبنى المقاطعة. قوة الأعيرة النارية باعدت بين أطرافك. وجهكَ وصدركَ مكشوفان للسماء بينما ركبتاك ملتصقتان بالأرض. يمكنني أن أتصوّرُ كم عانيت في تلك اللحظات الأخيرة من الطريقة الخرقاء التي يتلوّى بها جسدك في الصورة.

عجزتُ عن التنفس.

عجزتُ عن الكلام.

في ذلك الصيف تشاركنا شيئًا ما من دون أن نعي ذلك. كنتَ -أنتَ- ميتًا. بينما لا تزال الدماء تتدفّق بغزارةٍ من جسدي، كان العفن يشقُ طريقه بوحشية داخل جسدكَ المكوَّم على الأرض.

ما رأيته في الصورة أنقذني. لقد أنقذتني، يا دونغ هو. لقد جعلتَ دمائي تغلي باعثًا فيها الحياة من جديد. انبثقت قوة المعاناة التي عشتَها عبري في سخطٍ عارمٍ بدا أنه سيفجّرُ قلبي.

الآن

كانت الأنوار مضاءة في كشك الأمن أمام مدخل موقف سيارات المبنى الرئيسي. تحدّقين في الحارس المسنّ النائم خلال الليل، ورأسه تميل إلى الوراء على أعلى مقعده الدوَّار، وفمه يتدلّى مفتوحًا. يتدلّى من سقف الكشك مصباحٌ مغطى بالتراب. تناثر ذباب ميت هنا وهناك على الأرضية الإسمنتية. تشارفُ الشمس على الإشراق. ستزداد الشمس سطوعًا شيئًا فشيئًا وهي تحدِّق بقوة إلى أسفل حيث تقبع المدينة التي تخضعُ لجبروتها. في النهاية سيتعفّن كلّ شيء فقدَ الحياة التي امتلكها

يومًا بسرعة، وستتصاعد موجات من رائحة نتنة كريهة من كل زقاق قد رُمِيَت فيه القمامة.

تتذكّرين الحديث الهامس الذي دار بين دونغ هو وأون سوك منذ سنوات طويلة. لماذا يغطّون الجثث بالتايجوكي؟ أراد دونغ هو أن يعرف، ولماذا يغنّون النشيد الوطني؟ لا تتذكّرين إجابة أون سوك ولا تتذكّرين إذا كان قد وجّه السؤال إليكِ أيضًا؟ لكن سؤاله يتردّد في رأسك كما لو كان يطرحه عليكِ الآن. نلفُّ الجثامين بالعلَم لأننا نريد أن نفعل كل ما بوسعنا على الأقل من أجلهم. ولهذا احتجنا النشيد الوطني. ولهذا احتجنا دقيقة الصمت. كي نجعل من تلك الجثث التي نغنّي لها شيئًا أكثر من مجرّد كتل لحمٍ مذبوحة.

عشرون سنة تفصل بين ذلك الصيف والآن. أيتها العاهرات الشيوعيات، سنمحو الكثير منكن عن وجه الأرض. لكنكِ أدرتِ ظهركِ عن ذلك كلّه. أدرتِ ظهرك عن اللعنات المتطايرة والصفعات العنيفة للمياه الباردة حين تلامس الجلد. لقد أغلقتِ الباب المؤدّي إلى ذلك الصيف بإحكام. حرصتِ على التأكّد من ذلك. لكن ذلك يعني أن الطريق الذي قد يقود إلى الوقت الذي يسبقُ ذلك صار مغلقًا أيضًا. لا طريق للعودة إلى العالم ما قبل التعذيب. لا طريق للعودة إلى العالم ما قبل المذبحة.

انتفاضة

لا أعرف لمن تعودُ خطواتِ الأقدام تلك.

هل كان دائمًا الشخصَ نفسه أم شخصًا مختلفًا في كل مرة.

ربما لم يكن الأشخاص يتجسّدون تجسّدًا كاملًا في كل مرة. ربما ما يأتي إليَّ هو مجرد شيء معيَّن خلَّفُوه وراءهم، وهكذا باتت هوياتهم الآن تتجسّد في صورة كيانٍ بالكاد له كتلةٌ محسوسةٌ، ولا يصدرُ عن حدودِه الخارجية سوى أقلُّ رعشةٍ ممكنةٍ. كياناتٌ لا حصر لعددها، تتفرّق في العتمة مثل قطرة حبر في الماء.

تتذكّرين

أحيانًا فقط، بين الفينة والأخرى، تجدين نفسكِ تتساءلين.

بعد ظهيرة عطلة أسبوعية، والمشهد المغمور بأشعة الشمس خارج النافذة يبدو ساكنًا بغرابة، وصورة دونغ هو ترفرفُ في مخيلتك، تجدين نفسكِ تتساءلين: ألا يمكن لهذا الشيء الذي يحوم أمام عينيك أن يكون ما يطلقون عليه «روحًا»؟ في الساعات الأولى من النهار حين الأحلام التي تعجزين عن تذكّرها تجعل خدَّيْكِ مبلَّلَيْن، وتتشكّل ملامح ذلك الوجه بوضوحٍ شديدٍ، تجدين نفسك تتساءلين: ألا يمكن لهذه الاضطرَاب أن يكون بسبب ظهور روح؟ هل المكان الذي تبرز منه الأرواح ثم تتمايل بعد ذلك عائدة إليه أسودُ كالسواد الحالك لستار الليل أو الغسق؟ هل الجثث التي غسلتماها -يا دونغ هي وجين سو- بأيديكما وألبستماها، مجتمعة هناك في ذلك المكان أم إنها قد قُطِّعت إلى أجزاء عديدة مبعثرة؟

تدركين أنك -كشخص- لا تمتلكين الشجاعة ولا القوة. بعد أن داس ذلك الشرطي على بطنك، آثرت ترك الاتحاد العمالي. وبعد خروجك من السجن، انضممتِ إلى سونغ هي لفترة في الحركة العمالية لكنك خالفت نصيحتها، وانتقلت للعمل في المنظمة البيئية التي تختلف في طبيعتها إلى حدٍّ بعيدٍ عن طبيعة العمل في اتحاد سونغ هي العمالي. بعدها، آثرتِ ألا تجهدين نفسك بالبحث عنها مرة أخرى رغم علمك أن ذلك سيجرحها. جهاز التسجيل والشرائط في حقيبة ظهرك التي

تؤلم كتفيك سوف تُرسَل بالبريد إلى يون بمجرّد أن تتمكني من الوصول إلى مكتب البريد صباح يوم الاثنين، غير مُستعملة.

في الوقت نفسه تعرفين أنه لو أتى وقت مثل ذلك الربيع مرة أخرى، وبرغم معرفتك بما تعرفينه الآن فقد ينتهي بكِ المطاف متخذة قرارات مشابهة للتي اتخذتها في ذلك الوقت. مثل تلك المرّات أثناء مباراة كرة الخادعة(26) في المدرسة الابتدائية حين كنت تتمكّنين من تفادي خطر اصطدام الكرة بجسدك برشاقةٍ حتى لا يتبقى أي أحد من أفراد فريقك على أرضية الملعب غيركِ، ويصبح لزامًا عليكِ مواجهة تحدي التقاط الكرة. ومثل المرة التي قادتك فيها قدماك إلى الميدان يشدُّكِ إليه الصوت الرنّان لغناء الفتيات في الحافلة رغم علمك أن جنودًا مسلحين يكمنون هناك. ومثل تلك الليلة الأخيرة في مبنى المقاطعة حين سُئلتنّ من منكنّ على استعداد للبقاء حتى النهاية فرفعت يديك بهدوء. لا يجب أن نسمح لأنفسنا بأن نصبح ضحايا. كانت سونغ هي تقول. لا يجب أن نسمح لهم بطردنا هكذا. وتلك الليلة الربيعية وعين القمر الحارسة تشهد في صمت على فتيات يجتمعن فوق السطح. من التي دسّت شريحة الخوخ بين شفتيكِ؟ لا تستطيعين التذكّر.

الآن

تسيرين مبتعدةً عن المبنى الرئيسي للمستشفى. ضوء النهار البِكر يزحفُ فوق العشب أثناء اجتيازك له في الاتجاه المعاكس. تدسّين يديك أسفل حزامَي حقيبة ظهرك بحمولتها التي تشعرين بثقلها ككتلة حديد. أو كطفلٍ تحمليه على ظهرك، بينما تسند يداك حقيبة ظهرك كما لو كانت حمّالة الكتف المثبت بها الطفل إلى جسمك.

أنا المسؤولة، أليس كذلك؟ توجّهين سؤالك إلى الظلام المُخضَّب بالأزرق، المتموِّج من حولك. لو طلبتُ منكَ العودة إلى البيت يا دونغ هو، لو توسلتُ إليك بينما نأكل الكيمباب، كنت لتفعل مثلما طلبت منك، أليس كذلك؟ ولهذا تأتي إليّ الآن. لتسألني لماذا ما أزال على قيد الحياة. أثناء مشيكِ، تبدو الهالات الحمراء حول عينيك كما لو كانت منحوتة بنصلٍ حادٍّ. تركضين عائدة إلى قسم الطوارئ.

ثمة شيء واحد أحتاج أن أقوله لكِ يا أونّي إذا سمحتِ لي بذلك. إذا سمحت -رجاءً- لي بذلك.

مصابيح الإنارة التي تحدُّ الطريق الذي يتفرّع إلى قاعة التأبين وقسم الطوارئ، والمبنى الرئيسي والمبنى الملحق

انطفأت كلّها في التوقيت نفسه. بينما تسيرين بطول الخط الأبيض المستقيم الذي يخترق وسط الطريق، رفعتِ رأسك نحو المطر المنهمر.

لا تموتي.

فقط لا تموتي.

الفصل السادس

حيثُ الزهورُ المتفتِّحةُ

(والدة الصبي 2010)

في اللحظة التي لمحتكَ فيها، يا دونغ هو، تَبِعتكَ.

كنت تسير بهمّةٍ بينما وهنُ الشيخوخة يُرغِمُني على المشي بخطوات بطيئة مُترنّحة هذه الأيام. هل سألحق بكَ؟ لو التفتَّ برأسك إلى جانبك قليلًا فقط لتمكّنتُ من رؤية ملامح وجهك

لكنك واصلت المشي من دون إبطاء كما لو أن ثمة شيئًا ما يحفّزك.

انتشرت صيحة الشعر القصير بين صبية المدرسة الإعدادية في تلك الأيام، أليس كذلك؟ لكن يبدو أنها قد باتت موضة قديمة الآن. هكذا عرفتُ أنه أنت. يمكنني التعرف على رأسك الصغيرة المُدوَّرة الكستنائية الشعر. كنت أنتَ بلا شك. كان زي المدرسة القديم الخاص بأخيك فضفاضًا جدًّا عليك. فقط حين بلغت السنة الثالثة من المدرسة، بات الزي يناسبك أخيرًا. كنت أراقبك كل صباح، وأنت تخطو خارجًا من البوابة الرئيسية للبيت حاملًا حقيبة كتبك، وثيابك مهندمة ونظيفة جدًّا. يمكنني أن أشاهد هذا المنظر طوال اليوم. لكن الصبي الذي يسير أمامي لم يكن يحمل حقيبة كتب، فيداه المتمايلتان على جانبيه خاليتان. لا بدَّ أنك قد تركتها في مكان ما. لا يمكنني أن أخطئ هذين الذراعَيْن الرفيعَيْن كمسواك الأسنان، والبارزتَيْن من كمَّيْ قميصك القصيرَيْن، وكتفيك الضيقتَيْن، وطريقتك الخاصّة في المشي متبخترًا كشادن(27) برأسك التي تسبق جسدك إلى الأمام قليلًا. كنت أنتَ بكلّ تأكيد.

لو عدتَ إليّ هذه المرة. لو عدتَ وسمحتَ لأمك أن تلقي نظرة خاطفة عليك. لكن لا، لم تتمكن هذه المرأة العجوز الواهنة أن تلحق بك.

بحثتُ عنك لساعة كاملة بين أكشاك السوق في الأزقة، لكن ما كان لك أثرٌ. كانت ركبتاي ترتعشان من الألم، وشعرت بدوارٍ كما لو كنت في دوامة لذا انهرتُ في مكاني على الأرضِ حيث كنتُ. لكني كنتُ أعرف أنه إذا لمحني أحدٌ من الحي بهذه الوضعية فسوف يثير ضجّةً فنهضتُ واقفة رغم أن رأسي كانت لا تزال تدور بي.

ربما أثناء تتبّعي المحموم لك حتى أزقة السوق، لم ألحظ المسافة الكبيرة التي قطعتها. العودة إلى البيت كانت شاقّة جدًّا لدرجة أن حلقي سرعان ما جفّ. لقد خرجتُ من البيت، لا أحملُ معي سوى عملة معدنية في جيبي لذا كل ما خطر ببالي هو الدخول إلى أقرب محل والتماس كوب من الماء. لكن ربما يظنّون أنني امرأة عجوز متسوِّلة، أتت لتزعجهم. واصلتُ السير مستندة بجسدي إلى حائطٍ كلما مررت بواحدٍ. جررتُ قدميَّ مجتازة موقع البناء، ويدي تغطي فمي بإحكام كيلا أعطس. كان الغبار يتطايرُ في كل مكان من حولي. كيف لم ألحظ موقع البناء حينما سرت في الاتجاه المعاكس رغم الجلبة الهائلة والطريق المحفور؟

***

في الصيف الماضي أحدثت الأمطار الغزيرة أخاديد في الزقاق أمام بيتنا. كان الفتيان يتعثّرون بسببها، وإذا انغرزت عجلة عربة بالخطأ بداخلها، كان ثمة احتمال ألَّا تخرج مرة أخرى. في النهاية أرسل مجلس المدينة بعض العمال لإعادة صب الإسمنت في الشارع. كان ذلك في أوائل سبتمبر حيث كانت بعض الأيام لا تزال الحرارة فيها حارقة. جلبوا الإسمنت المغلي على عربات تُجَرّ باليد، تتصاعد منها الفقاقيع مثل الحساء. صبوا الإسمنت ثم سَوّوه وداسوا عليه ببكرات حتى تصلَّب.

في المساء حين جمع العمال أغراضهم أخيرًا ورحلوا، فكرت في الخروج وإلقاء نظرة. كانوا قد طوَّقوا المنطقة بحبلٍ رفيعٍ حيث الإسمنت المصبوب حديثًا، لذا توقّفت عند الحواف، وحاولت أن أدوس على الإسمنت بأكبر قدر ممكن من الحذَر. أمكنني الشعور بجسدي العجوز الهزيل يُمتصُ ببطء دفئَه مثل امتصاص جذور شجرة للمياه: أولًا كواحلي ثم ساقيَّ فمفاصل ركبتيَّ المتوجّعة. في صباح اليوم التالي اختفى الحبل، لذا تشجّعت وخطوت بقدمي على السطح الإسمنتي مباشرة. كان أدفأ كثيرًا في المركز مما كان في الحوافّ ليلة الأمس. تدفَّقَ الدفء خلالي مثل موجة. مشيتُ في الزقاق ذهابًا وإيابًا بعد الغداء والعشاء، وفي اليوم التالي أيضًا. كان أخوك الأكبر وزوجته قد أتيا من سيول ذلك اليوم. أمكنني رؤية نظراتها المتسائلة عما أصابني.

«ألا توَدّين الجلوس والارتياح يا أمي؟»، سألتني. «لا بد أن ذلك الإسمنت لا يزال شديد السخونة».

«البرد ينخر في عظامي. ألا تعلمين كم يبعث هذا الشيء الدفءَ في أوصالي. سيفيد مفاصلي كثيرًا».

هزَّ أخوك رأسه متمتمًا إلى نفسه عن كيف أنني لا بد أعاني من شيء ما. كان يقترح عليّ في السنوات القليلة الماضية الآن أن انتقل للعيش معه.

«ماذا أصاب رأسها؟»، سمعته يغمغم.

احتفظ الإسمنت بحرارته لثلاثة أيام متواصلة قبل أن يبرُد في النهاية. أعرف أن ذلك هو الشيء المنطقي، لكن مع هذا لم أستطع منع نفسي من التمنّي لو كانت حرارته قد دامت لفترة أطول. واصلتُ الخروج بعد الغداء للوقوف عليه لبرهة من الزمن منتظرَةً. فكّرت أنه في النهاية قد يكون لا يزال أدفأ ولو قليلًا من أي مكان آخر. فكّرت لو أنني وقفت هناك محتفظة

بإطلالة جيّدة على الطريق، فربما ألمحك يا دونغ هو مرة أخرى تسير بخطوات واسعة مثل آخر مرّة رأيتك فيها؟

لا أفهم أبدًا لماذا لم أنادِ عليك في ذلك اليوم؟ لماذا اكتفيت بالمشي مترنّحةً وراءك، ألهث من التعب وقد تملّكني الصمت كما لو كنت خرساء. هلا التفتَّ إليّ رجاءً إذا ناديت عليك في المرة القادمة؟ لا داعي لأن تجيبني: «نعم، يا أمي». أو أي شيء من هذا القبيل. فقط ألتفت كي أتمكّن من رؤيتك.

***

لكن في النهاية لم يكن أنت حقًّا، أليس كذلك؟

لا. من المستحيل أن يكون أنتَ.

لقد دفنتُكَ بيديَّ هاتين. نزعتُ عن جسدكَ معطفك وبنطلون سترتك الرياضية الأزرق السماوي وألبستكَ رداءك الشتوي الداكن فوق قميص أبيض. أحكمتُ ربط حزامكَ وألبستك جوربين رماديين نظيفين. حين وضعوك في تابوت من رقائق الخشب، وحملوكَ إلى شاحنة النفايات، طلبت الركوب في المقعد الأمامي كي أحرسَ جثمانك. لم أملك أدنى فكرة عن

وجهة الشاحنة. كنت منشغلة تمامًا بالنظر إلى مؤخّرة الشاحنة حيث كنتَ.

بدا مئات الأشخاص بثيابهم السوداء وهم يحملون التوابيت صاعدين ربوة رملية في الآن نفسه أشبه بالنمل. ذاكرتي مشوَّشة لكن أستطيع تذكّر أخوتك يقفون هناك، والدموع تنساب فوق شفاههم المطبقة. الكلمات التي أخبرني بها أبوك قبل موته: كيف اندهش حينما لم أبكِ مثل الآخرين بل التقطت حفنة من العشب من طبقة الأرض المعشوشبة التي أزالوها من أجل حفر القبر، وابتلعتها. ابتلعتها ثم انهرت على الأرض وتقيأتها. بعد أن شقّت طريقها خارجي، تناولتُ حفنة أخرى، وحشوتها داخل فمي. لا يمكنني تذكّر أيٍّ من هذا. فقط الأشياء التي حدثت قبل أن تحملنا الشاحنة إلى المقبرة واضحة لي بشكلٍ كافٍ بل أكثر من واضحة. كيف بدا وجهك آخر مرة رأيته فيها قبل أن يُوضع الغطاء على التابوت. كم كان شاحبًا وهزيلًا. لم أدرك أبدًا أنك كنت شاحبًا شحوب الموتى. لاحقًا شرح لي أخوك الأوسط أن ابيضاض وجهك بسبب كل الدماء التي فقدتها حين أطلقوا الرصاص عليك. ولهذا أيضًا كان التابوت يكاد يزن شيئًا. لا، لأنك كنت نحيلًا وصغير الجسم طوال حياتك. كانت عينا أخيك الأوسط محتقنتين بالدماء حينما انفجر بتلك الكلمات: سأجعلهم يدفعون ثمن هذا الشر. أفزعَتني كلماته. « عمّا تتحدّث؟»، سألته بإلحاح. « كيف يمكن أن تجعلهم يدفعون ثمن الشرّ الذي اقترفته الدولة حين قتلت

أخاك؟ لو حدث أيُّ شيء لك فلن أقوى على مواصلة الحياة في هذا العالم».
وحتى الآن بعد مضيّ ثلاثين عامًا في ذكرى موتك وموت والدك، يعتريني القلق حين أشاهد أخاك الأوسط ينتصب بظهره بعد الانحناء أثناء تقديم القرابين. الخيط الرفيع لشفتيه وكتفيه المحدودبتين والخصلات البيضاء في شعره. كان لا بد لموتك أن ينغِّص حياةَ الجنود الذين أطلقوا النار عليك لا حياة أخيك، فلماذا إذًا قد شابَ أخوك قبل الأوان أسرع بكثير من أصدقائه؟ هل لا يزال مهمومًا بأفكار الانتقام؟ كلما خطر ذلك في بالي، غاص قلبي في مكانه.

***

أخوك الأكبر -على خلاف ذلك تمامًا- يحرص دائمًا على رسم ابتسامة على وجهه، ولا يُظهر أي خلجة تبوح بأي شيء آخر. كان يأتي لزيارتي مرتين في الشهر ليترك بعضًا من المال يعينني على تدبير شؤون المنزل، وليتأكد من أنني أتناول وجبات الطعام في وقتها قبل أن يعود في اليوم نفسه كيلا تعرف زوجته أنه قد غادر سيول. رغم أن أخاك الأوسط يعيش في الجوار لكنّ أخاك الأكبر كان الحنون بالفطرة دائمًا.

أنت وأبوك وأخوك الأكبر، كأنما خُلِقتم من الطينة نفسها. الخصر الطويل والكتفان المائلان، سمة مشتركة في العائلة.

أما عيناك الممدودتان أكثر قليلًا من المألوف وأسنانك الأمامية المربّعة فهي نسخة طبق الأصل من أخيك. حتى يومنا هذا عندما يضحك كاشفًا عن سنَّيه الأماميتين العريضتين والمستويتين كأسنان أرنب، تتداخل نظرة البراءة الغضّة مع التجعيدات المحفورة بعمق حول عينيه.

حينما وُلِدتَ، كان أخوك الأكبر في الحادية عشرة. كان يتحوّل إلى فتاة مُراهِقة من حولك. يركضُ عائدًا إلى البيت بمجرد انتهاء الدوام المدرسي كي يمرجحك على ركبتيه. كان يتمتم بغناء مسجوع، وهو يراقب ابتسامتك الجميلة، ويسند رقبتك بيده برقّة بينما يمسكك بين ذراعيه ويهزُّكَ إلى الأمام والخلف حتى تُقرقِرُ في سرور. بعد تجاوزك عامك الأول، بات بإمكانه حملك على ظهره في حمّالة الكتف. كان يربط جسدك الصغير إلى ظهره، ويتمشّى حول الفناء مغنّيًا بنشاز مؤذٍ للأذن لكن لا يخلو من جمال فريد.

من كان بإمكانه أن يتخيّل أن صبيًّا حسّاسًا ورقيقًا كأخيك الأكبر سينتهي به المطاف في شجار محتدم مع أخيك الأوسط، إلى درجة أنهما الآن بعد مرور أكثر من عشرين عامًا لا يزالان يجدان مجرّد التواجد في الحجرة نفسها أمرًا مؤلمًا للغاية، بالكاد قادرَيْن بشقّ الأنفس على تبادل بضع كلمات؟ نشب الشجار بعد ثلاثة أيام من وفاة والدك حين أتى أخوك

الأكبر إلى البيت كي ينضمّ إلينا في زيارتنا إلى المقبرة. كنت منشغلة في المطبخ عندما سمعت صوت شيء يتهشّم. حينما ركضت نحو الغرفة الرئيسية، كانا يتشاجران. رجلان بالغان في السابعة والعشرين والثانية والعشرين أيديهما مضمومة استعدادًا للّكم بينما يحاول كل منهما الإمساك برقبة الآخر.

«كل ما كان عليك فعله هو الإمساك بـ دونغ هو من يده وجرِّه إلى البيت ولو بالإكراه. بماذا كنت تفكّر حقًّا حين سمحت له بالمكوث هناك طوال الوقت؟! كيف تركتَ أمنا تذهب إلى هناك لوحدها في ذلك اليوم الأخير. كان من السهل عليك إدراك أن كلماتك كانت تدخل من إحدى أذنيّ دونغ هو وتخرج من الأخرى. كان عليك أن تعرف جيدًا أنه سينتهي به الأمر ميتًا إذا بقي هناك. كنت واعيًا تمامًا بكل هذا فكيف اكتفيت بكلام أجوف وتركت كل هذا يحدث؟ كيف؟!».

صدرت عن أخيك الأوسط صرخة طويلة غير مفهومة وهو يقفز في الهواء نحو أخيك الأكبر، ويطرحه أرضًا. عوى الاثنان كالحيوانات أثناء اشتباكهما.

كان بمقدوري أن أحاول الفضّ بينهما، أن أجلسهما أمامي، وأسوّي الأمر برمَّته، لكني التفتّ وعدت إلى المطبخ. لم

أرغب في التفكير في أي شيء. فقط واصلت تقليب الفطائر وتحريك الحساء وتمرير قطع اللحم في الأسياخ.

***

لستُ على يقين من أي شيء.

حين ذهبت لرؤيتك في تلك المرة الأخيرة، ماذا كان سيحدث لو لم تعدني بالعودة مساء ذلك اليوم نفسه؟ ماذا لو لم تتحدّث بمسكنةٍ شديدة أراحت نفسي؟ ماذا كان سيحدث؟
«لقد وعدني دونغ هو بالعودة إلى البيت بعد السادسة مساء عندما يغلقون قاعة الرياضة»، أخبرت والدك. « قال إننا سنتمكن من تناول العشاء معًا».

لكن حين أتت الساعة السابعة مساء ولم تعد، خرجت أنا وأخوك الأوسط لإحضارك. تحت قانون الطوارئ يبدأ حظر التجول في السابعة، والجيش سيعاود دخول المدينة ذلك المساء لهذا لم يكن هناك ظلٌ واحدٌ يتحرك في الشوارع. استغرقنا أربعين دقيقة كاملة لبلوغ قاعة الرياضة لكن الأضواء كانت مُطفأة ولا أثر لأي شخص. على الجانب المقابل من الطريق تمركز أمام مبنى المقاطعة بعضٌ من أفراد الميليشيا المدنية وهم يحملون البنادق من أجل الحراسة.

«أتيت لإحضار ابني الأصغر»، شرحت لهم، «هو يتوقّع حضوري».

أكدوا بوجوه شاحبة ومنهكة على عدم إمكانية دخولنا فلا أحد مسموح له بالدخول.

قالوا لي: «فقط صغار السن يستطيعون أن يكونوا شديدي العناد والإصرار في مواجهة خوفهم».

«الدبابات تجتاح المدينة بينما نتحدّث الآن. المكان غير آمن. عليكما الإسراع بالعودة إلى البيت».

توسّلت: «من أجل الرب دعني أدخل. أو أخبر ابني فقط أننا هنا. أخبره أن يخرج إلينا لدقيقة واحدة فقط».

لم يستطع أخوك الاحتمال لفترة أطول. أعلن أنه سيدخل لإحضارك بنفسه لكن أحد أفراد الميليشيا هزَّ رأسه.

«إذا دخلت الآن فلن نستطيع السماح لك بالخروج. كل من ظلّ بالداخل قد قرر فعل ذلك بكامل إرادته. كلّهم مستعدون للموت لو اقتضى الأمر».

حين رفع أخوك صوته ليقول إنه قد فهم ما قاله، وأنه مستعد للدخول رغم ذلك، أوقفتُه.

قلت: «لا داعي لذلك سوف يعود دونغ هو إلى البيت بمجرّد أن تتاح له الفرصة بذلك. لقد وعدني..»..

قلتُ ذلك لأن الظلام كان كثيفًا جدًّا من حولنا. لأنني تخيّلت أن الجنود قد يبرزون من قلب العتمة في أي لحظة. لأني كنت خائفة من فقدِ ابنٍ أخر. ولهذا السبب فقدتك.

سحبتُ أخاك بعيدًا عن مبنى المقاطعة، ومشينا عائدين إلى البيت عبر الشوارع المدفونة في الصمت بينما الدموع تتدفّق على وجهينا. لم يتفوّه أيٌّ منا بكلمة واحدة طوال الطريق.

لن أفهم ما حدث أبدًا. هل كان لزامًا حقًّا على أفراد الميليشيا المدنية بوجوههم الشاحبة والحازمة في الآن نفسه أن يموتوا؟ كانوا مجرّد أطفالٍ. حقًّا مجرّد أطفال يحملون السلاح. ولماذا رفضوا السماح لي بالدخول؟ ما الفرق الذي كان سيحدثه ذلك إذا كان مصيرهم هو موت عقيم لا طائل منه؟

***

بعد أن يأتي أخواك لزيارتي ثم يرحلا، تصبح أيامي أكثر فراغًا. أقضي معظمها جالسة في الشرفة، أدفِّئ نفسي في الشمس. رغم الجلبة الشديدة التي كان يحدثها المحجر الواقع خلف جدار الفناء الجنوبي مباشرة إلا أنه جعل المكان من حولي يبدو حيويًّا ومؤنسًا.

في الماضي كنا نعيش في الجهة المقابلة للمحجر قبل أن نبتاع هذا البيت. المكان القديم كان بيتًا صغيرًا سقفه من ألواح صخرية. أحيانًا كان يبدو خانقًا فكنت أنت وأخواك تنتظرون أيام الآحاد بفارغ الصبر-يوم إجازة عمال المحجر- كي تتمكّنوا من الهرج والمرج هناك. كتل الجرانيت الضخمة جعلت أرض المحجر مكانًا مثاليًا للعبة الغميضة - لا أزال أتذكر صياحكم بملء صوتكم: «أزهار الكركديه قد تفتحت»-. كان يمكنني سماع أصواتكم من مكان وقوفي في المطبخ.

كنتم صبية مشاكسين وقتها، لكن بعد عام أو أكثر من ذلك أصبحتم هادئين مثل كل شيء في ذلك الوقت.

حين انتقل أخوك الأكبر للعيش في سيول، قرَّرنا أن الوقت قد حان للتغيير. كانت جونغ مي وأخوها جونغ داي هادئين وودودين جدًا وغير متكلّفَين، وكان من اللطيف التفكير فيهما كصديقين مستقبليين لك لأنك كنت أصغر بكثير من أخوَيك. كان ثمة شيء مُريح للنفس في مشاهدتك وجونغ داي تتوجّهان إلى المدرسة بزيِّكما المتماثلين، تسيران جنبًا إلى جنب مثل حبتَي بازلاء في غلاف واحد. في العطلات كنتما تلعبان كرة الريشة في الفناء. كثيرًا ما كانت كرة الريشة تطير متجاوزة الجدار إلى داخل موقع البناء، فتلعبان حجرة ورقة مقص لتحديد من منكما سيذهب لإحضار الكرة. لم تفشل مراقبتكما أثناء ذلك في رسم ابتسامة على وجهي.

أتساءل ماذا حدث لجونغ داي وأخته؟

حين أتى والدهما إلى غوانغجو للبحث عنهما، وبدأ يطوف في الشوارع كالمجنون، لم أكن في حالة تسمح لي بتقديم المعونة والسلوى لأيّ أحد. ترك عمله، وقضى عامًا في المبنى الملحق ببيتنا لا يفعل أي شيء سوى النوم والتنقل بين

المكاتب الحكومية في النهار. كلما سمع عن اكتشاف مقبرة سرّية أو عن طفو جثة فوق سطح بركة أو صهريج ما، كان ينطلق إلى هناك فورًا، لا يهم إذا بلغه الخبر مع بزوغ الفجر أو في قلب الليل.

«إنهما على قيد الحياة في مكان ما. أعرف ذلك. كلاهما. سيظهران في يوم من الأيام».

ما زلت أستطيع تخيّله وهو يندفع فجأة إلى داخل المطبخ بعد إحدى نوبات شربه، متمتمًا إلى نفسه مثل شخص فقد عقله. أتخيّل وجهه الضئيل وأنفه المفلطح. عيناه اللتان كانتا تلمعان بخبث طفولي تمامًا مثل عيني ابنه قبل تلك الحوادث المؤسفة.

لم يعش لمدة طويلة بعد ذلك. بالأحرى ما كان ليستطيع ذلك.

عندما أُخرِجت جثث الضحايا ونُقِلت إلى قبور جديدة، قرَّر أهالي المفقودين تشييد نُصب تذكاريٍّ صغيرٍ لتخليد ذكرى ذويهم. وقتها ذهب أخوك الأوسط ليبحثَ عن اسمي الصغيرين، لكن لم يكن اسماهما هناك. لو كان أبوهما لا يزال حيًا، لحرص بكل تأكيد على تشييد نصبين تذكاريين لهما.

أحيانًا أفكر ما الذي دفعنا إلى جعل المبنى الملحق مستقلًا عن البيت. هل من أجل العائد البخس لتأجيره؟ أفكر لو لم تطأ قدما جونغ داي هذا البيت، فما كنت لتخاطر بحياتك كي تعثر عليه. لكن حينها أتذكّر صوت ضحكتك وأنتما تلعبان كرة الريشة. إنه خطأي أنا. أنا وحدي من يُلام. أهزُّ رأسي محاولةً أن أخرج كل هذه الأفكار السيئة من رأسي. أنا من وُسِم ضميرها بالعار لحملي الضغينة تجاه هؤلاء الأطفال المساكين. أنا وحدي من يُلام.

كم كانت جونغ مِي جميلة! فكّرت. كيف لهذا الجمال أن يختفي من دون أثر؟ تلك الفتاة الصغيرة المرحة، وهي تخطو إلى داخل بيتنا، ذراعاها تحيطان بسلة الغسيل. وهي تتجول في فنائنا منتعلة حذاءها الرياضي، وتحمل فرشاة أسنانها التي تقطر منها المياه. كل تلك الذكريات تبدو كأحلام من حياة سالفة.

***

خيط الحياة متين مثل وترِ الثور. فحتى بعد أن فقدتك، كان عليّ مواصلة الحياة. كان علَيّ إرغام نفسي على الأكل والعمل

واستساغة كل يوم كحفنة من أرز بارد حتى لو علقت في حلقي بين حين وآخر.

علمت عن لقاءات عائلات الضحايا التي فقدت أحدًا من ذويها في الحوادث منذ فترة، لكنّي لم أذهب إليها أبدًا. في النهاية قررت الذهاب بسبب مكالمة هاتفية تلقيتها من امرأة عرَّفتني بنفسها على أنها مُمثِلة عن تلك العائلات. أخبرتني أن السفَّاح العسكري الذي صار رئيسًا قادمٌ في زيارة إلى غوانغجو. ذلك الجزّار قد تجرّأ على التفكير في أن يطأ أرض مدينتنا بقدميه بينما دمُكَ المُراق بالكاد قد جفَّ.
كان نومي من بعد رحيلكَ سطحيًّا ومتقطعًا في أحسن الظروف، لكن تلك الأخبار أصابتني بنوبة مختلفة تمامًا من الأرق. كان والدك منزعجًا بالقدر نفسه. ونظرا لبنيته الهشَّة وطبيعته الرقيقة فكّرت أن من الأفضل أن يمكث في البيت بينما أذهب وحدي إلى اللقاء. وهكذا ذهبت إلى بيت مُنظِّمة اللقاء التي كانت تدير متجرًا للأرز. قدمتُ نفسي إلى النساء الأخريات، وبقيتُ هناك حتى وقت متأخر من الليل، أشاركُ في تحضير اللافتات والأوتاد من أجل الوقفة. في النهاية أعلنت المضيفة أن علينا العودة إلى بيوتنا واستكمال ما بقي من عمل هناك. صافحنا بعضنا ونحن نتبادل كلمات الوداع. كنا مثل خيالات المآتة، هياكل محشوَّة بالقش. كان وداعنا أجوفَ مثل نظراتنا.

لم أكن خائفة على الإطلاق. كنت لأرحِّب بالموت في تلك اللحظة. فما الشيء الذي يمكنه إخافتي إذًا؟ حين التقينا في اليوم التالي مرة أخرى لانتظار موكب السفّاح، كنا نرتدي أردية الحداد البيضاء. بالكاد كان اليوم قد بدأ حين ظهر ابن العاهرة. سنحت الفرصة لنا لنهتف بالشعارات بصوت واحد كالصخر لكن لم يكن ذلك ما حدث. دخلنا في نوبة مسعورة من الولولة والإغماء. شددنا شعرنا ومزَّقنا أرديتنا. في اللحظة التي رفعنا فيها اللافتات، انتُزعت من أيدينا واقتيدت الكثيرات منا إلى مركز الشرطة. كنا نجلس هناك داخل القسم مصدومات وقد أصابنا الدوار حين رأينا شبّانًا يُساقون إلى الداخل. كان هؤلاء الشبان قد شكّلوا رابطة خاصّة بهم من أجل جرحى الأحداث، وخرجوا للتظاهر في بقعة أخرى على طريق الموكب. كانت وجوههم متجهِّمة لحظة دخولهم حتى وقعت عيونهم علينا هناك.

«حتى الأمّهات هنا أيضًا؟»، صاح شاب تتدفّق الدموع على وجهه. «ما الجريمة التي ارتكبناها؟»

في تلك اللحظة غطّت غشاوة بيضاء كل شيء بداخل رأسي. كانت ناصعة البياض، تكاد تصيبني بالعمى كأن العالم كله قد

طُلِي بالأبيض. رفعت طرف تنورتي الممزقة، وصعدت بمشقّة فوق المنضدة. بدا صوتي أضعف بكثير من المعتاد.

«قلت بتلعثم: «هذا صحيح. ما الجريمة التي ارتكبتها؟».

قفزت واندفعت نحو المكتب في الجهة المقابلة وصعدت فوقه قبل أن يتسنى لأي أحد أن يرمش بعينيه، وحاشية تنورتي ترفرف عند كاحلي. كانت هناك صورة للقاتل مُعلّقة على الحائط - نزعتها من مكانها وسحقت زجاجها بقدمي- تناثر شيء ما أمام وجهي، دموع أو ربما دماء.

ظلت الدماء تنبثق من قدميَّ فاضطر رجال الشرطة إلى اصطحابي إلى المستشفى. أتى والدك إلى قسم الطوارئ حين أعلموه بوجودي هناك. بينما تُخرج الممرضة شظايا الزجاج من قدميَّ وتضمّد الجروح، طلبت منه معروفًا. «رجاءً، عدْ إلى البيت، وابحث في دولاب الملابس. ستجد لافتة صنعتها ليلة الأمس لكن لم أحضِرها معي اليوم».

قرب غروب ذلك اليوم صعدتُ وأنا أعرج مستندة إلى كتف أبيك السلالم المفضية إلى سطح المستشفى. اتكأت على درابزين السطح، وفردت اللافتة وصرخت:

أيها السفاح تشين دو هوان، لقد قتلت ابني. فلنمزّق ذلك الجزار المتعطش للدماء إلى أشلاء!

تابعتُ الصراخ حتى أتى رجال الشرطة مندفعين عبر سلالم الطوارئ. أحكموا قبضتهم عليَّ، وحملوني إلى أحد العنابر في الأسفل حيث قيَّدوني إلى سرير.

واصلنا لقاءاتنا بشكلٍ دوري بعد ذلك مصمِّمات على الاستمرار في القتال. في كل مرة نفترق فيها -نحن الأمهات- كنا نتصافح ونربّت على أكتاف بعضنا البعض ونتبادل نظرات التشجيع، ونحن نرتّب للقاء جديد. قمنا بتجميع التبرّعات كي تتمكّن النساء اللاتي لا يمتلكن ثمن تذكرة السفر من استئجار حافلة للذهاب معًا إلى الاجتماعات في سيول. في إحدى المرات قام ابن عاهرة حقير برمي قنبلة دخان داخل حافلتنا، فأغمي على واحدة منا بسبب الاختناق. في مرة أخرى قامت قوات مكافحة الشغب باعتقالنا وإجبارنا على الصعود إلى إحدى الشاحنات المُسيَّجة نوافذها بالأسلاك. قادوا الشاحنة

حتى منطقة نائية قرب الطريق السريع، وأرغموا واحدة منا على النزول ثم انطلقوا بالشاحنة لفترة أخرى قبل أن يطردوا أخرى. كان هؤلاء الملاعين يعملون على تفريقنا. جرجرت قدميَّ بمحاذاة جانب الطريق لما بدا قرنًا من الزمان، غير واعية بما حولي. لم أمتلك أدنى فكرة أين أنا، حتى صادفت إحدى النساء الأخريات. شفتاها مخضَّبتان بالأزرق مثلي. فركنا أيدينا الخدرتين ببعضها البعض التماسًا للدفء.

قطعنا عهدًا صارمًا على أنفسنا بأن نتابع القتال حتى النهاية، لكن في العام التالي سقط والدك مريضًا، ولم أستطع الحفاظ على وعدي. رؤيته يواجه الموت ذلك الشتاء جعلني أشعر بالمرارة. الأمور تسير على ما يرام بالنسبة إليك. ستنجو قريبًا من هذه الحياة. أنا من ستُترك هنا وحيدةً في هذا الجحيم.

لكنني لا أمتلك خريطة للعالم - مهما كان كنه ذلك العالم- القابع وراء الموت. لا أعرف إذا كان ثمة لقاء وفراق هناك. إذا كنا لا نزال نمتلك فيه وجوهًا وأصواتًا وقلوبًا قادرة على المسرَّة والوجع. كيف يمكنني أن أعرف إذا كانت قبضة والدك المتراخية على الحياة هي شيء يستحق الشفقة أم الحسد؟!

عَبرَ الشتاء وأتى الربيع مرة أخرى. الربيع يُدخِلني في حالة مألوفة من الهذيان قبل أن يأتي الصيف جالبًا معه شعورًا بالإنهاك، ومرضًا يصعب التخلّص من براثنه. مع حلول الخريف لا يكون بوسعي فعل أي شيء سوى مواصلة التنفّس وحسب. ثم في الشتاء تتيبّس مفاصلي بالطبع. تخترقني برودة الثلج بعمق حتى تصل إلى عظامي وقلبي ولا تبرحها أبدًا. مهما كان قيظ الصيف، لا تتصبَّب قطرة عرق واحدة.

***

يا بُني، دونغ هو، لقد كنتُ في الثلاثين حين ولدتُكَ. كنتَ آخرَ من أنجبتُ. كان لحلمة ثديي الأيسر شكلًا غريبًا كما أذكر، وكان أخواك يفضلان حلمة ثديي الأيمن ذات الشكل الطبيعي. بالطبع كان ثديي الأيسر ممتلئًا بالحليب أيضًا، لكن لأنهما تمنَّعا عن الرضاعة منه، تصلّب بصورة جعلته مختلفًا تمامًا عن ثديي الأيمن الأملس. كان تنافراً قبيحاً عليّ احتماله لعدة سنوات. لكن معك كان الأمر مغايرًا. لقد تلقَّمت ثديي الأيسر بمحض إرادتك. كان فمك الضئيل يمتصَّ الحليب من الحلمة المشوّهة بعذوبة مذهلة. وهكذا صار للثديين شكلين متماثلين أملسين من جديد.

يا بُنيَّ، دونغ هو، لم أعرف طفلًا يبدو سعيدًا جدًا أثناء الرضاعة أو له براز أصفر يملأ قماش ثوبه -لزج وله رائحة

حلوة بغرابة- مثلكَ. كنت تزحف في كل مكان كجرو، ولم يكن ثمة شيء على الأرض لا تضعه في فمك. أتذكّر تلك المرة التي عانيت فيها من حمّى وانتفخ وجهك. أُصبتَ بتشنّجات، وتقيّأت كتلة من حليب حامض على صدري. بعد أن فُطِمت، كنت تمصّ إبهامك بقوة لدرجة أن أظفرك تآكل، وبات نحيلًا وشفافًا كورقة. تمايلت نحوي وأنت تخطو خطوات متعثّرة، خطوة في كل مرة بينما أصفّق أنا وأهلّل. تعال إليّ، تعال إلي. سبع خطوات مترنّحة مثيرة للضحك خطوتها قبل أن يمكنني ضمُّك بين ذراعيّ.

«لا أحبُ الصيف لكنّي أحبُ لياليه».

كانت تلك عبارة اختلقتها يا دونغ هو في السنة التي بلغتَ فيها الثامنة. أعجبني لحن تلك الكلمات. أتذكر أنني قلت لنفسي: «سيصبح شاعرًا».

أتذكّر المرات التي جلس فيها ثلاثتكم -أولادي- على الدكّة الخشبية في الفناء، تأكلون البطيخ مع أبيكم في ليالي الصيف الحارّة. لسانك يتحسّس بقايا البطيخ الحلوة اللزجة الملتصقة حول فمك.

***

قصصتُ الصورة من بطاقتك المدرسية ووضعتها في محفظتي. البيت فارغ دائمًا ليلًا كان أم نهارًا. مع هذا، أحب الانتظار حتى ساعات الصباح الأولى حين لا يكون هناك أي احتمال لمرور أي شخص، وأخرِج الصورة من بين ثنايا ورق الكتابة الأبيض الذي لففتها به، وأسوّي التجعيدات التي تظلّل وجهك. لا أحد من حولي ليسمعني مع ذلك أهمس فقط باسمك: دونغ هو.

في أحد أيام أواخر الخريف بعد انتهاء موسم الأمطار حيث السماء صافية وبرّاقة، وضعتُ محفظتي في الجيب الداخلي لمعطفي، ومشيتُ بتمهّلٍ حتى ضفّة النهر. تقدّمت ببطء ويداي على ركبتيّ بمحاذاة الممشى حيث يزدهر الكون بخليط لا نهائيٍّ من الألوان، ويحتشد ذباب الخيل فوق حلزونات الديدان الميتة.

حين كنتَ في السادسة أو السابعة وكان أخواك في المدرسة وقتها، كان البيت يظلّ هادئًا حتى في الساعة الواحدة بعد الظهر. كنت ضجرًا جدًّا ولا تعرف ماذا تفعل. لهذا، كل يوم كنتُ أنا وأنت نسير بمحاذاة ضفة النهر حتى نبلغ المتجر لرؤية والدك. كنتَ تكره الأماكن المظلّلة حيث تحجب الأشجارُ

الشمس. عندما أردتُ السير هناك للهرب من الحرِّ شددتني من رسغي بكل قوَّتك وقدتَني إلى حيث كان المكان مشرقًا رغم أن شعرك الجميل كان يلمع بقطرات العرق، ورغم أنك كنت تلهث بشدة بدا معها صوتك كأنك تتألّم.

«دعينا نتمشّى هناك يا ماما، حيث المكان مشمسٌ. يمكننا ذلك، أليس كذلك؟».

متظاهرةً أنك أقوى مني، استسلمُ لك وأتركك تسحبني معك.

«الجو مشمسٍ هناك، يا ماما. هناك الكثير من الزهور أيضًا. لماذا نمشي إذًا في الظلام. دعينا نذهب إلى هناك حيث الزهور المتفتحة».

الخاتمة

مصباح مغطى بالثلج

(الكاتبة 2013)

كنتُ في التاسعة وقت انتفاضة غوانغجو.

في ذلك العام كنا قد انتقلنا منذ فترة وجيزة من غوانغجو إلى سويوري في أطراف سيول. وقتها كنت انعزل بنفسي وانكبُّ على أي كتاب يقع بين يديّ. أقضي فترة بعد الظهيرة كلها ألعب الأوموك(28) مع أخوتي، أو أنجز على مضضٍ المهمات الصغيرة المختلفة، مثل تقشير الثوم ونزع رأس سمك الأنشونة، إلى آخر تلك الأعمال المنزلية التي كرهتها كثيرًا والتي كانت أمي تطلبها منّي. في تلك الفترة، سمعتُ بالصدفة شذرات من محادثة بين أبي وعمتي.

«هل كان أحد تلاميذك؟»، سألت عمتي والدي في يوم أحدٍ في أوائل الخريف بينما يتناولان العشاء.

«لم أكن المعلّمَ المسؤول عنه، لكن كنتُ أدرِّس له بعض الحصص الأخرى. أتذكّر أنه كان يُبلي دائمًا بلاء حسنًا في مادة الكتابة الإبداعية. عندما بعنا بيت الهانوك(29) كي ننتقل إلى بيت آخر، قدّمتُ نفسي للمشتري الجديد على أنني معلّم بالمدرسة الإعدادية. أبدى الرجل سروره بمقابلتي، وذكر أن ابنه الأصغر في السنة الأولى هناك، لكن كان عليه أن يذكر الاسم عدة مرات قبل أن أتذكّره. كنت أعرفه فقط من نظري

إلى وجهه أثناء مناداتي على تلاميذ الفصل لتسجيل الحضور».

باستثناء هذا، لا أتذكّر بالضبط ما قيل بعد ذلك. أتذكرُ فقط تعابيرَ وجهيهما، ومعاناتهما كي يتمكّنا من إتمام القصة بينما يضطران لتجنب الحديث في أجزائها الأكثر فظاعة، وفترات الصمت الطويلة والمُربكة التي كانت تفرض نفسها عليهما من حين إلى آخر. مهما تغيّرت دفة الحديث من موضوع إلى آخر أقل جدية، بدا أن الحوار يدور بهما ليفضي إلى مركز الحديث الأول غير المعلن بالرغم عن المتحدّثين. لسبب ما، شعرت بتوترٍ غريبٍ، ورحت أصيخ السمع لألتقط الكلمات. كنت أعرفُ بالفعل أن أحد الطلاب الذين درّس لهم والدي قد عاشٍ في بيت الهانوك من بعدنا. لم يكن ذلك سرًّا كبيرًا. فلماذا إذًا يتحدّثان بصوت خافت؟ لماذا حين ذُكِر اسم الصبي، فرض صمتٌ طويلٌ نفسَه عليهما؟

***

كان بيت هانوك تقليديًّا قديمَ الطراز. حجراته مُرتَّبة حول فناء مركزيٍّ، وله أبواب منزلقة، وسقف قرميد. في وسط الفناء بستان زهور تتخلّله نباتات الكاميليا القصيرة. كل سنة حين تشتد حرارة الطقس، تبسط الورود المتسلّقة سجادتها من الزهور المتفتّحة على الجدار. بتلاتها بلونٍ أحمرَ قانٍ تكاد تبدو

معه سوداء اللون. حين تذبل الورود، تشقّ زهور الخطمي البيضاء طريقها صاعدة جدار المبنى الملحق حتى تصل إلى ارتفاع شخص بالغ. القضبان الحديدية لبوابة البيت الرئيسة مطلية بلون أصفر فاتح. حين تفتح البوابة لتخرج، يمكنك أن تلمح قمة مصنع البطاريات. أتذكّر الصباح الذي انتقلنا فيه من البيت: أبي وعمي وهما يلفّان دولاب الملابس المصنوع من خشب البولونيا بلحافٍ، بأيدٍ ماهرة ومدرَّبة.

سيول، يناير 1980 - لم أكن لأصدق أن ثمة مكانًا قارس البرودة إلى هذه الدرجة حتى انتقلنا إلى العاصمة. قبل أن ننتقل إلى سويوري، أقمنا ثلاثة شهور في شقّة. جدرانها المصنوعة من رقائق الخشب كانت مثل عدمها في الاحتفاظ بالحرارة. بالكاد كان الجو أدفأ في الداخل عنه في الخارج. كانت أنفاسنا تخرج من صدورنا سحُبًا بيضاء. حتى إذا ارتديت معطفا وتلفَّعت بلحافٍ فسوف تصطكُ أسنانك بصوتٍ مسموعٍ.

طوال ذلك الشتاء كان ذهني يشرد بأفكاره عائدًا إلى بيت الهانوك القديم. ما كان السبب في هذا هو وجود عيبٍ في بيتنا الجديد بل لأنني لم أشعر ببساطة بأي ارتباط به، ربما لأني كنت أعلم أننا لن نعيش فيه سوى لفترة قصيرة نسبيًا. في المقابل كان بيت الهانوك المكان الذي قضيت فيه التسع سنوات

الأولى من حياتي. اشتراه جدّي لأمي، وهي ابنته الوحيدة. إذا أردت الانتقال من الشرفة إلى المطبخ، كان عليك المرور عبر حجرتي الصغيرة. في الصيف كنت أستلقي هناك، أؤدّي واجباتي المدرسية وبطني تلامس الأرضية. بعد ظهيرة الأيام الشتوية كنت أفتح شقًّا صغيرًا من الباب المنزلق لأختلس نظرة على الفناء حيث تغسِل حزمة نقية من ضوء الشمس البلاط المرصوف.

***

في فجر يوم في أوائل الصيف أتى رجلان إلى بيتنا في سويوري. كان الوقت يتراوح بين الثالثة والرابعة صباحًا حين أيقظتني أمي. «انهضي وأضيئي الأنوار»، سطع النور قبل أن أتمكّن من الرمش حتى. جلستُ في مكاني ودعكت عينيَّ. كان رجلان يقفان في الحجرة وكتفاهما العريضان يبرزان في مقابل الظلّ المستطيل المعتم للباب المفتوح. أخبرتني أمي. كانت لا تزال ترتدي بيجامة نومها. «أتى هذان السيّدان من مكتب العقارات ليلقوا نظرة على البيت».

طار النوم من عينيَّ بسرعة وأصبحت في كامل يقظتي. تشبّثتُ بأمي، وأنا أشاهد بعينين متّسعتين الرجلين يقلبان في دولاب ملابسي ويفتشان تحت المكتب ويصعدان إلى العلية حاملَين كشافات ضوء. لم أفهم ما يحدث. لماذا يحتاج رجال

أرسلهم مكتب العقارات للبحث داخل دولاب الملابس؟ ولماذا أتوا في منتصف الليل؟

بعد برهة نزل أحد الرجلين من العلية واقتاد أمي إلى المطبخ. حين تتبّعتهما باستحياء، التفتت أمي وصاحت في وجهي « فلتبقوا جميعكم هنا!». لم تشِ عيناها بأي شيء. عندما التفتّ لأنظر ورائي رأيت أخويّ في رداءَي نومهما يدلفان إلى الحجرة. كانت النظرة على وجهَيهما خاوية وغير مفهومة. وصل إلى مسامعي صوت أبي قادمًا من الحجرة الرئيسية منخفضًا لكن رنانًا. ما كان يوجد باب يفصل المطبخ عن حجرتي. مجرد ستارة شفافة. مع هذا لم أستطع سماع كلمة واحدة مما كانت تقوله أمي إلى الرجل. كان صوتها شديد الخفوت.

***

عندما اجتمعت عائلتنا الكبيرة في ذلك الخريف للاحتفال بعيد الشكر (التشوسوك)، حرص البالغون على الإبقاء على أصواتهم منخفضة أثناء تبادلهم الحديث كي لا يسمع أخوتي وأنا وأبناء أعمامنا الأصغر منا شيئًا لا يُفترَض بنا سماعه. كما لو كنا نحن الأطفال جواسيس. كان عمي يعمل في صناعة الأسلحة والأنظمة الدفاعية. اختلى بأبي في الحجرة الرئيسية، وراحا يتبادلان حديثًا هامسًا حتى ساعات الصباح الأولى.

«رجاءً، يا هيونغ، خذْ حذرك. أنا متأكد من أنهم يراقبون خط هاتفك. في كل مرة أتّصل بك فيها هذه الأيام يمكنني سماع صوت هسهسة. ذلك هو صوت التنصّت على المحادثات الهاتفية. تتذكّر صديقي يونغ جون، أليس كذلك؟ لقد قرّر الفرار بجلده قبل فوات الأوان. اعتقلته الشرطة العسكرية العام ما قبل الماضي، ونزعوا كل ظفر من أظافر أصابعه العشرة. فهو لو تعرّض لتجربة مماثلة لن يقوى على احتمال ذلك»..

كانت هناك أصوات خافتة قادمة أيضًا من المطبخ. الزوجات الأصغر سنًّا انضممن إلى أمّي للمساعدة في تحضير الطعام.

«الرجل الذي اشترى بيت الهانوك القديم كان يؤجِّر المبنى الملحق به لطفلين شقيقَيْن. ولد وبنت. الولد كان في نفس سن ابن مالك البيت. سمعت أن ثمة ثلاثة قتلى ومفقودَين من المدرسة الإعدادية فقط، وأنَّ الطفلين اللذين عاشا هناك من ضمنهم».

اكتفت أمي بطأطأة رأسها بصمت. احتاجت لبعض الوقت قبل أن تبدأ بالكلام. وحين فعلت، كان صوتها خفيضًا جدًّا لدرجة أنني بالكاد فهمت ما قالته.

«كانت هناك امرأة شابة... كانت تنتظر عودة زوجها في الخارج أمام بيتهما. ما كان موعد ولادتها ببعيد. أطلقوا عليها رصاصة اخترقت منتصف جبهتها. ماتت في لحظتها».

في مخيلة الطفلة سهلة التطويع، رأيتُ امرأة في عشريناتها، تقفُ أمام البوابة الرئيسية لبيت الهانوك القديم ويداها على بطنها المستديرة، وثقب رصاصة مفتوح في وسط جبهتها الشاحبة، وعيناها جاحظتان في ذهولٍ.

***

بعد مرور صيفَيْن على ذلك اليوم، أحضر أبي إلى البيت كتاب قصص شعبية مصورة.

كان في غوانغجو لتأدية واجب عزاء حيث اشترى الكتاب من محطة القطار -كانت هذه الكتيّبات شائعة نسبيًا في ذلك الوقت، لكنها كانت تُطبع سرًا وتُباع بصورة غير رسمية-. حينما فرغ البالغون من تناقل الكتاب في ما بينهم، ران صمت ثقيل كالرصاص على المكان. وضع أبي الكتاب في خزانة

الكتب في أعلى رف كيلا تصل إليه أيدي الأطفال بالخطأ، بل حرص على وضعه بالمقلوب بحيث لا يبرُز ظهر الكتاب إلى الخارج.

مع هذا، في المساء حين كان البالغون يجلسون جميعًا في المطبخ، وبإدراكي أنني في أمان على الأقل حتى انتهاء نشرة أخبار التاسعة، تسللتُ إلى الحجرة الرئيسة بحثًا عن الكتاب. بحثت في العناوين على ظهر كل كتاب حتى وصلت أخيرًا إلى الرف الأخير. لا أزال أتذكّر حين وقع نظري على الوجه المشوَّه لامرأة شابة ملامحها ممزَّقة بطعنات حربة. في هدوء ومن دون ضجيج، انكسر شيءٌ ما رقيقٌ في مكانٍ عميقٍ بداخلي. شيءٌ لم أعرف قبل تلك اللحظة أنه كان موجودًا هناك.

***

كانت أرضية صالة الجمنازيوم قد حُفِرت.

وقفت أنظر إلى أسفل نحو الأرض المكشوفة. نوافذ ضخمة تتوسّط كلّ جدارٍ من الجدران الأربعة. لا يزال علم التايجوكجي معلَّقًا في إطاره على الحائط. مشيتُ تجاه الحائط المقابل، شاعرةً بصلابة الأرض العارية نصف المتجمّدة أسفل

قدميَّ. طُبِعت على لافتة من ورق مقوّى عريض مُلصقةٍ فوق أحد الجدران عبارةٌ واحدةٌ بخطٍ متّصلٍ: رجاءً، اخلع حذاءك قبل التمرين.

عندما التفتّ إلى الوراء نحو الباب الرئيسي، لمحت السلالم المؤدّية إلى الطابق الأول. بينما أخطو صاعدة السلالم، ترك حذائي آثارًا عميقة في طبقة التراب السميكة. تمتلئ زوايا صالة العرض في الطابق الأول بصفوف من مقاعد إسمنتية تمنحك إطلالة كاملة على قاعة الرياضة في الأسفل. عندما جلستُ وزفرتُ، ذابت السحب البيضاء الكثيفة لأنفاسي في الهواء. تسلّلت برودة الإسمنت إلى قماش بنطلوني الجينز. حام أمامي للحظة على الأرض الحمراء القانية منظر الجثامين الملفوفة في أكفان مؤقّتة أُعدَّت بسرعة، وتوابيت من ألواح الخشب مغطاة بالتايجوكي، وأطفال ينحبون، ونساء بوجوه تخلو من أي تعبير من هول الصدمة.

فكرتُ أنني قد بدأت البحث متأخّرة جدًا. كان عليّ القدوم إلى هنا قبل أن يهدموا الأرضية، وقبل أن تحجب واجهةَ مبنى المقاطعة بالكامل سقّالةُ بناء ضخمة، وتُثبَّت على جدرانه الخارجية لافتات تعلوها عبارة «قيد الإنشاء»، وقبل أن تُقتَلع أشجار الجنكة التي فُرِض عليها أن تكون شاهدًا أخرس على

الحوادث، وقبل أن تذبُل شجرة الباغودا ذات المائة وخمسين عامًا، وتموت.

لكنني هنا الآن.

سأغلق سحّاب معطفي ذا القلنسوة، وأمكثُ هنا حتى أفولِ الشمس. حتى ترسخ ملامح وجه الصبيّ أمام عينيَّ. حتى أسمع صوته في رأسي. حتى يحومِ ظله المتقهقر فوق ألواح أرضية الرياضة غير المرئية مرتجفًا كلهب شمعة متوهّج.

***

ما زال أخي الصغير يعيش في غوانغجو.

قبل يومين وصلت إلى شقته وأفرغت أشيائي. رتّبت كي نتناول الطعام معًا عندما يعود من العمل، ثم بعدها أذهب لإلقاء نظرة على بيت الهانوك القديم بينما لا يزال ضوءٌ في السماء. لمِ أعش في غوانغجو منذ كنت طفلة، لهذا ما عدت متأكدة حقًّا بخصوص مكان أي شيء. استقلّيت سيارة أجرة لتأخذني أولًا إلى المدرسة الابتدائية التي ارتدتها حتى السنة الثالثة الابتدائية. أعطيت ظهري لمدخلها الرئيسي، ومشيت

على ممر المشاة، ثم انحرفت يسارًا سابحة في ذكرياتي بحثًا عن شعورٍ بالألفة. ما زال متجر الأدوات المدرسية الذي أتذكّره في مكانه -وإذا لم يكن المتجر نفسه بالتحديد فعلى الأقل متجرًا يدير تجارة مشابهة-. مشيت لمسافة أبعد قليلا قبل أن أدرك أنني على الطريق الصحيح. عليَّ أن أنعطف يمينًا عند نقطة ما. اخترت اليمين الثاني بعد متجر الأدوات المدرسية، وقد قرّرت الوثوق في الذاكرة المكانية المحفورة في عضلاتي. كان جدار مصنع البطاريات الذي كان يبدو كأنه يمتد إلى ما لا نهاية قد اختفى. حتى صف مباني الهانوك التي كانت تواجهه اختفت. في الماضي، كان هناك عند التقاء ذلك الشارع بالطريق الرئيسي محجرٌ بطول وعرض بيت، وله جدار مشترك مع بيت الهانوك القديم الخاصّ بنا. لكن الآن - فكّرتُ- من المستحيل أن يكون المحجر، مجرّد قطعة أرض فارغة، قائمًا في مكانه من دون تعمير قريبًا جدًّا من مركز هذه المدينة التي يقطنها الآن نحو مليون ساكنٍ.

بعد تجاوُزي صف بيوت ذات طابق واحد وبنايات سكنية متعدّدة الطوابق وأكاديمية لتعليم البيانو ومتجر يبيع أختامًا منقوشة، وصلتُ أخيرًا إلى نهاية الطريق. يوجد الآن في مكان المحجر مبنى خرساني من ثلاثة طوابق مُنفِّرٌ للبصر. أما بيت الهانوك خاصتنا فقد هُدِم وبُنِي مكانه مبنى عصري من طابقين، متجرٌ لبيع أثاث وأدوات منزلية.

ماذا كنتُ أتوقّع؟! ظللت أهيم أمام واجهة المتجر لوقت طويل كأنما انتظر شخصًا اتّفقت معه على اللقاء هناك.

***

بالأمس، في اليوم التالي لزيارتي موقع بيتنا القديم، انطلقتُ باكرًا من منزل أخي. ذهبت أولًا إلى معهد أبحاث 18 مايو في جامعة جيونام والمؤسّسة الثقافية التابعة له. ذهبت أيضًا إلى مقرّ الشرطة العسكرية الذي تمركز فيه جهاز المخابرات العامة منذ السبعينات، وكانت أعمال التعذيب تُقترف فيه، لكن مدخله الرئيسي كان مغلقًا وكان من المستحيل عليّ التسلل إلى الداخل.

بعد الظهر، ذهبت إلى المدرسة الإعدادية. في البداية، فكّرت بالبحث في الكتب السنوية عن صورة الصبي. لكن سرعان ما تذكّرت أنه بالطبع لم يتخرَّج من المدرسة. لجأت إلى معلم الرسم المتقاعد الذي قضى كل حياته المهنية في تلك المدرسة وكان صديقًا قديمًا لأبي. من خلاله حصلت على إذنٍ للاطلاع على سجلات المدرسة حيث يحتفظون بصورة لكًل طالب التحق بالمدرسة. هناك، رأيت وجهه لأول مرة. كان شيء حالمٌ ورقيقٌ في عينيه، بأجفانهما الرفيعة كنصف قمر. آثار الطفولة لا تزال عالقة في الخط الناعم لفكّه. كان وجهًا عاديًّا

جدًّا يمكن أن تخطئه مع وجه شخص آخر، وجه ستنسى ملامحه في اللحظة التي ستُشيح عينيك بعيدًا عنه. حين غادرت غرفة الإدارة، واجتزت الباحة المخصَّصة للتدريبات الرياضية، كانت هناك خيوط بيضاء قد بدأت للتو في الظهور في السماء الرصاصية اللون. حينما بلغت بوابة المدرسة، كان الثلج يتهاطل بكثافة. أزلت ندف الثلج العالقة برموشي، وحاولت إيقاف سيارة أجرة. حين توقّفت واحدة، طلبت من سائقها أن يأخذني مرة أخرى إلى جامعة جيونام. خُيِّل إليَّ أنني شاهدت وجهًا شبيهًا بوجه الصبي في قاعة العرض في معهد 18 مايو.

تحوي قاعة العرض بالمعهد عدة شاشات صغيرة معلّقة في الجدران. تعرض كلُ شاشة مقطعَ فيديو يُعاد تشغيله من دون توقّف. بسبب عجزي عن تذكُّر في أي فيديو بالتحديد لمحت هذا الوجه، طفت بالمكان، أشاهد كل فيديو من البداية.

في أحد الفيديوات الذي يعرض إحدى المسيرات الأولى، حيث كانت جثتا الشابين اللذين أُطلق عليهما الرصاص تُدفع فوق عربة يد، لمحتُ الصبيّ الذي كان حقًّا لا يختلف كثيرًا عن أي طالب في المدرسة الإعدادية. كان الصبي يقف على مسافة من مقدِّمة صف المتظاهرين يحدِّق بنظرة مصعوقة، كأنه قد ضُرِب على وجهه للتوّ. حدث كل هذا في أواخر

الربيع، مع هذا كان يحتضن جسده بذراعيه كما لو كان يبحث عن شيءٍ من الدفء. تبدّل المشهد في غضون ثوانٍ لذا وقفت في مكاني منتظرةً عودة الفيديو إلى بدايته. شاهدت الفيديو بأكمله مرتين وثلاثًا وأربعًا. كان وجه الصبيّ عاديًّا ويصعب تمييزه عن أي وجه آخر، تمامًا كالذي في سجلات المدرسة. ما كنت متأكّدة من أي شيء. ربما وقتها كان الصبية ذوو الشعر القصير في زيهم المدرسي يبدون متشابهين حقًّا؟ ربما كانوا جميعًا يمتلكون مثل تلك العيون الرقيقة رفيعة الجفون، والأطراف النحيلة المتطاولة المستعدّة لطفرة النمو التي ستجعلهم رجالًا.

***

نيَّتي المبدئية كانت قراءة كل وثيقة يمكن ليدي أن تصل إليها. من بداية ديسمبر، هجرت كل الأعمال الأخرى، حتى إنني تحاشيت لقاء أصدقائي ما أمكنني ذلك. كنت أنقِّب بهَوَسٍ شديدٍ في رزم الوثائق. لكن بعد شهرين، وكان شهر يناير يشارف على الانتهاء، شعرتُ بعدم استطاعتي المتابعة. كان ذلك بسبب الأحلام التي طاردتني.

في أحدها، كنتُ مُطاردة من عصبة من الجنود. تقطّعت أنفاسي بينما يُقلِّصون المسافة التي تفصلني عنهم. دفعني أحدهم في ظهري، وأسقطني أرضًا على وجهي. في اللحظة التي أتمكّن فيها من الدوران والنظر إلى مهاجمي، يعاجلني بطعنة من حربته في صدري، تخترق أحشائي حتى ضفيرتي

الشمسية(30) مصحوبةً بصوت فرقعة عنيفة. استيقظُ مفزوعة في الثانية صباحًا، وأجلس في مرقدي منتصبة الظهر، وأضع يدي على عظمة القصّ، وأقضي الدقائق الخمس التالية أصارع كي أتنفّس. حين مرَّرت يدي فوق وجهي، تلألأ كفي بالدموع. لم أكن مدركة أنني كنت أبكي.

بعد عدة أيام من ذلك، أتى شخص للقائي. أخبرني: «عشرات المعتقلين في أحداث 18 مايو محتجَزون في زنازين سرّية تحت الأرض. غدًا في الثالثة بعد ظهر ومن دون الإعلان عن ذلك، سيُعدَمون جميعًا». داخل الحلم، كانت الساعة الثامنة مساء - فقط تسع عشرة ساعة متبقية على الإعدام الجماعي المُخطَّط له-. كيف يمكنني منع حدوث ذلك؟ اختفى الشخص الذي أخبرني بكل هذا في مكان ما، وتركني وحيدةً أقفُ في منتصف الشارع، ويدي تقبض على هاتفي المحمول، وقد تملّكني الذهول. أيجب عليَّ الاتصال بمسؤول ما له سلطة معيّنة، وأخبره بما يُوشِك أن يحدث؟ لكن حتى لو أبلغت عن الأمر فهل سينجحون في إيقاف حدوثه؟ ولماذا كنتُ أنا الشخص - من بين جميع الناس- الذي تصل إليه هذه المعلومة، شخص لا يمتلك أي سلطة أو نفوذ؟ أين عليَّ الذهاب؟ كيف أستطيع...... بينما تتجمّع هذه الكلمات بداخل فمي، تنفتح عيناي فجأة على اتساعهما. حلم آخر. مجرّد حلم. بينما أرخي قبضتَي كفيّ المضمومتين، أتمتم إلى نفسي في الظلام: مجرّد حلم. مجرّد حلم.

***

في حلم ثالث، يهديني شخص ما جهاز راديو يدوي. يخبرني أنه آلة للسفر بالزمن، ويشرح لي أن عليَّ إدخال سنة وشهر ويوم معيّنة في الشاشة الرقمية لأسافر بالزمن إليه. كتبت 18-5-1980. في النهاية إذا أردت وصف ما حدث في كتاب فما الأفضل من معايشة التجربة بنفسي؟ لكن في اللحظة التالية وجدت نفسي في تقاطع طرق قرب محطة جوانجهوامون. الشوارع الواسعة مهجورة. بالطبع، فالآلة تُغيّر الزمن فقط وأنا في سيول وليس في غوانغجو. لكني عدت إلى مايو 1980 لذا لا بدَّ أننا في الربيع، مع هذا كانت الشوارع باردة ومقفرة كأيام معينة في نوفمبر. كانت ساكنة بشكلٍ مُرعِبٍ.

***

أرغمني على الخروج من البيت لأول مرة منذ مدة طويلة، زفافٌ كان لزامًا عليَّ حضوره. كان ذلك في يناير 2013، وشوارع سيول تمامًا كما كانت في حلمي منذ أيام قليلة. كانت قاعة الزفاف مزدانة بثريّات برّاقة. كان ثمة شيء مُنفِّر بشكل صادم بشأن الأشخاص في الحفل، ثيابهم الصارخة الألوان، وطريقة ضحكهم كما لو أن لا عيب في ذلك. كيف يمكن لهذا المشهد أن يحدث بينما الكثيرون جدًّا من البشر قد ماتوا؟ وجدت نفسي أتساءل.

قابلتُ بالصدفة ناقدًا وبّخني بمزاحٍ على عدم إرسالي نسخة من مجموعتي القصصية إليه. لم أستوعب أي شيء. خاصّة مع مناظر كل الذين ماتوا العالقة في ذاكرتي.

عاجزة عن اختلاق عذرٍ مقبولٍ كيلا أنضمّ إلى الآخرين من أجل مأدبة الغداء بعد الزفاف، ببساطة انتقيت لحظة وانسللت مغادرة.

***

كانت السماء صافية جدًّا. بدت موجة هطول الثلج الأخيرة كأنها حدثت للتوّ. تسلّلت أعمدة مائلة من ضوء شمس بعد الظهيرة عبر نوافذ قاعة الرياضة.
نهضت من مكاني شاعرة بالبرودة بسبب جلوسي الطويل فوق المقعد الإسمنتيّ. هبطتُ السلالم وفتحت الباب وخطوت خارجة. حدَّقت في السقالة الضخمة التي ملأت مجال بصري، وفي زاوية الجدار الأبيض الذي تتركه مكشوفًا.

أنتظرُ. لا أحد سوف يأتي لكنّي ما زلت أنتظر. لا أحد يعلم أنّني هنا لكن لا فارق، ها أنا هنا، أنتظر.

أتذكّر الشتاء وأنا في العشرين من عمري حين ذهبت بمفردي إلى المقبرة في قمة التل في مانجوول-دانغ لأوّل مرّة. مشيت بين القبور، أبحث عنه. في ذلك الوقت، ما كنت أعرف اسم عائلته. المعلومة الوحيدة التي امتلكتها هي أنه يدعى دونغ هو، اسم انحفر في ذاكرتي لأنه اسم عمي نفسه، ولأنه مات أيضّا في الخامسة عشرة.

أثناء عودتي، فوَّتُّ آخر حافلة ذاهبة إلى وسط المدينة، لذا كان عليّ السير في الشوارع الآخذة في الإظلام والريح تلفح ظهري. بعد المشي لفترة من الوقت، أدركتُ أنني قد وضعت يدي اليمنى لا إراديًا على الجانب الأيسر من صدري. كما لو أن قلبي قد انشقَّ مفتوحًا. كما لو أن قلبي شيء يمكنني حمله معي بأمان تام طالما أمسكته بإحكام.

***

ثمة جنود كانوا قساة بشكل استثنائي.

حين بدأت البحث في الوثائق، ثَبُتَ لي أن أكثر شيء يصعُب استساغته هو أنَّ فعل إراقة الدماء قد اقتُرف بشكل متكرِّر،

ومن دون أي محاولة لمحاكمة الجناة أمام العدالة. أفعال عنفٍ ارتُكبت في وضح النهار من دون ذرّة تردّد أو ندم. قادة الجيش لم يشجعوا فقط، بل أمروا تابعيهم من الضباط باستخدام أشكال الوحشية تلك.

في خريف 1979، حين قُمِعت الانتفاضة الديمقراطية في المدن الجنوبية في بوسان وماسان، قال قائد حرس الرئيس بارك تشونغ هي «تشا جي-تشول» لرئيسه: لقد قتلت حكومة كامبوديا مليونين آخرين من مواطنيها. لن يُوقِفُنا شيء عن فعل الشيء نفسه إذا اقتضت الضرورة». في مايو 1980 حين اندلعت التظاهرات في غوانغجو، استخدم الجيش قاذفات اللهب ضد المواطنين العُزَّل. وزُوِّد الجنود بطلقات مصنوعة من الرصاص رغم أنها مُحرَّمة من محكمة العدل الدولية لأسباب إنسانية. في ذلك الوقت، كان تشون دو هوان الذي تمتّع بثقة بارك تشونغ هي المطلقة إلى درجة أنه كان يُعرف بالابن المتبنّى للرئيس السابق، يبحث أمر إرسال قوّات خاصة، وإخضاع المدينة للقصف الجوي. في صبيحة الحادي عشر من مايو، قبل فترة وجيزة من فتح الجيش نيرانه على الجماهير المحتشدة، شُوهِد شون دو هوان يصل على متن طائرة مروحيَّة، وينزل منها فوق أرض غوانغجو. رأيتُه في الأخبار. قال مقدِّم النشرة: ها هو الجنرال الشاب المحاط بهالة من الثقة بالنفس، يترجّل برشاقة من المروحيَّة، ويحيي الضابط الذي تقدم للقائه بمصافحة قوية.

***

قرأتُ لقاءً صحافيًا مع أشخاص تعرّضوا للتعذيب. وصفوا تأثير ما بعد التعذيب بأنه «مشابه للآثار التي يمر بها ضحايا التسمّم الإشعاعي». فالمادة المشعة تُعشش لعقود داخل العضلات والعظام مُحدِثة تشوَّهات جينية. تصبح الخلايا سرطانيةً. حياةٌ تهاجمُ نفسَها. حتى لو مات الضحية، حتى لو أُحرِق جسده ولم يتبق منه سوى بقايا عظام متفحِّمة، فأنه لا يمكن بأي صورة استئصال تلك المادة.

في يناير 2009 حين خلفت غارة جوية غير قانونية قامت بها قوات مكافحة الشغب ضد نشطاء ومُستأجِرين يحتجّون على طردهم بالإكراه من وسط سيول، ستة قتلى، أتذكر ملازمتي للتلفاز وأنا أشاهد الأبراج السكنية تحترق في قلب الليل، وأفاجئ نفسي بالكلمات التي اندفعت من فمي: لكن هذه غوانغجو أخرى.

بكلمات أخرى، باتت «غوانغجو» مرادفًا لكل ما يتعرّض لعزلة قسرية، وللسَّحق، وللوحشية. لكل ما يُشَوَّه بشكل غير قابل للإصلاح. «الانتشار الإشعاعي» ما زال متواصلًا. غوانغجو وُلِدت من جديد كي تُذبح المزيد والمزيد من الأرواح

في دائرة لا نهائية. لقد سُحِقت غوانغجو عن بكره أبيها ثم نهضت من جديد في إعادة إحياء دامية.

***

وما زال هناك وجه تلك المرأة الشابة.

تلك المرأة الشابة التي تركت صورتها الفوتوغرافية في كتيّب القصص المصورة انطباعًا مروِّعًا على عينيّ ذات الأحد عشر عامًا، ميتة بجرح حربة يمتد من وجنتها حتى حلقها، وبعين مشوَّهة مفتوحة وأخرى مغلقة.

حين رقدت الجثث البائسة في حجرة الانتظار في موقف الحافلات وافترشت الأرض أمام محطة القطار، وحين انقضَّ الجنود على المارة في الشوارع، وانهالوا عليهم ضربًا، وجرّدوهم من ثيابهم ما عدا لباسهم الداخلي، وأجبروهم على الصعود إلى داخل شاحنة، وحين طُورِد حتى الشبان الذين آثروا البقاء في بيوتهم في صمت واعتُقِلوا، وحين أُغلِقت شوارع المدينة وقُطِعت خطوط الهواتف، وحين أُطلِق الرصاص الحيّ على بشرٍ يتظاهرون، سلاحهم الوحيد هو أجسادهم العارية فقط، وحين صار الطريق الرئيسي للمدينة مكسوًا بجثامين مائة قتيل في غضون عشرين دقيقة، وحين

انتشرت إشاعة أن كل سكان المدينة سيُذبحون، فبثَّت الرعب في نفوس العامة، وحين تجمّع مدنيون عاديون في مجموعات من أزواج أو ثلاثة أفراد للدفاع عن الجسر والمدرسة الابتدائية المحلية، متسلّحين ببنادق عتيقة وجدوها في معسكر تدريب ضباط الاحتياط، وحين تشكّلت حكومة مدنية ذاتيّة الحكم في مبنى المقاطعة بعد أن لاذ مسؤولو الحكومة المركزية بالفرار كمَدٍّ مُنحسر.

أثناء كل هذا، كنتُ في ملكوت آخر، استقل الحافلة في سويوري. عندما عدت إلى البيت وفتحت البوابة الأمامية، انحنيت والتقطت الطبعة المسائية للجريدة. بينما أعبرُ الفناء الطويل الضيِّق، قرأت المقال الرئيسي. غوانغجو في حالة فوضى لليوم الخامس على التوالي. مبانٍ يكسوها السواد. شاحنات مليئة برجال يلفّون مناديل بيضاء حول رؤوسهم.

خيَّم جو كئيب مشحون بالتوتر داخل البيت. « إنها لا تستجيب. الهواتف ما زالت لا تستجيب». واصلت أمي محاولتها المستميتة لمهاتفة عائلتها التي تعيش قرب سوق داين في غوانغجو.

في النهاية لم يمت أيٌّ من أقاربي. لم يُصب أحد منهم أو يُعتقل. مع هذا، طوال خريف 1980، ما توقّفت أفكاري عن العودة إلى تلك الحجرة الصغيرة في إحدى نهايتَي المطبخ في بيت الهانوك، حيث اعتدتُ على الاستلقاء على بطني أثناء تأدية واجباتي المدرسية. تلك الحجرة بالأرضية الورقية الباردة - هل كان الصبي معتادًا على بسطِ كراسات واجباته المدرسية على الأرضية الباردة ثم الاستلقاء على بطنِه تمامًا كما كنت أفعلُ؟- صبيّ المدرسة الإعدادية الذي سمعت الكبار يتهامسون بقصته.

كيف واصلت الفصولُ تعاقبَها عليَّ بينما الزمن قد توقّف للأبد بالنسبة إليه في شهر مايو ذاك؟

***

بعد التسكّع قرب موقع متجر الأثاث المنزلي الذي يشغل الآن مكان بيت عائلتي القديم، خطوت في النهاية إلى داخله. رفعت مالكة المتجر، امرأة في الخمسينيات ترتدي كنزة أرجوانية اللون، عينيها عن جريدتها ونظرت إليّ:

«هل يمكنني مساعدتك، عزيزتي؟».

لأني تركت هذه المدينة وأنا لا أزال صغيرة ارتبطت لهجتها المحلية في ذهني بعائلتي بشكلٍ وثيقٍ. لكن الآن مع عودتي أثارت لهجة المرأة في داخلي شعورًا غريبًا بانفعال مربك، أن أجد غرباء عني يذكّرونني بأفراد عائلتي.

«كان هناك بيت هانوك في هذا المكان... متى شُيّد هذا المبنى؟».

تمامًا كما فاجأتني لهجة المرأة، بدت متوتّرة هي أيضًا من لهجتي. وهكذا سرعان ما تبخّرت أجواء الترحاب والمودّة التي سادت المكان للحظات.

«كنت تأملين في زيارة سكان البيت السابقين؟»، أجابت، وقد تبدّلت لهجتها إلى لهجة أهل سيول، رسمية ويشوبها الشكّ.
قلت لها: «نعم»، مقتضبة. أي إجابة أخرى ستكون معقّدة.

«لقد هُدِم البيت العام ما قبل الماضي». بات صوت المرأة جافًّا يخلو من أي عاطفة. «عاشت امرأة عجوز هنا. لكن بعد

أن وافتها المنيّة قرّر ابنها أنه مع استحالة تأجير مثل هذا البيت العتيق من الأفضل هدمه. هذا المبنى الحالي وضع مؤقت فقط. لقد وقّعنا عقدًا بحق الانتفاع لعامين بعدها سنغادر المكان».

سألتها إذا كانت قد التقت ابن المرأة العجوز وجهًا لوجه.

«نعم، فقد وقّعنا العقود معًا. لقد سمعت أنه محاضرٌ في إحدى مدارس الحشد الكبرى. رغم هذا يبدو أن راتبه ليس كبيرًا إلى هذه الدرجة إذا كان غير قادر سوى على إنشاء هذا المبنى المؤقت، أليس كذلك؟».

بعد مغادرتي المتجر مشيت بطول الطريق الرئيسي لبعض الوقت قبل أن أستدعي سيارة أجرة. أقلّني السائق إلى معهد الدراسة الذي ذكرته المرأة. بحثت في كتيّب المعهد حتى وجدت صور العاملين فيه. ما كان صعبًا تحديد هوية الأخ الأكبر للصبي: أستاذ علوم في منتصف العمر يرتدي نظارات سميكة العدسات. في الصورة كان يرتدي ربطة عنق بنّية وقميصًا أبيض وتتخلّل شعره خصلات رمادية.

***

«يمكنني اقتطاع ثلاثين دقيقة فقط»، قال لي حين حادثته عبر الهاتف في وقت لاحق من ذلك اليوم. «إذا كان بوسعك القدوم إلى المعهد الذي أدرِّس فيه هذا المساء في الخامسة والنصف. لكن هذا كل الوقت الذي يمكنني منحك إياه. أتمنّى أن تتفهّمي الأمر. أحيانًا ينهي الطلبة عشاءهم بسرعة ويحضرون باكرًا. في تلك الحالة حتى النصف ساعة قد لا تكون ممكنة».

***

في تلك الليلة مشيت داخل النفق أمام مبنى المقاطعة والسقالة المثبتة إليه لأخرج في الجانب المقابل من الشارع. انبعثت موسيقى صاخبة في الشوارع الليلية، وومضت لافتات مضاءة بالنيون بينما أسير عكس تيار الزحام أشق طريقي إلى المعهد. معهد كبير خاصّة حين يقارن بمدارس الحشد الأخرى المخصَّصة لاختبارات الالتحاق بالجامعة. توجّهت إلى مكتب الاستقبال في الطابق الأرضي. عبرت نظراتي فوق الكتيبات المعروضة هناك، والنشرات الملونة التي تروِّج للمحاضرات العامّة وجدول مواعيد الدورات الخاصة.

***

تقبّلي أسفي. ظننت أنني سأنهي الحصة السابقة مبكرًا لكن في الحقيقة استغرقت أطول من المعتاد.

رجاء اجلسِي. هل أحضر لك شيئًا لتشربيه؟

نعم، أعرف أن مالك البيت السابق كان أحد معلمي دونغ هو.

لم أكن أعرف أنكِ تعرفين قصتنا.

لأكن صادقًا معك، كان لديَّ رأيان بخصوص الأمر كلّه. في البداية كنت قلقًا من أنني لا أملك شيئًا كي أقوله لك، وأن لقاءك هكذا سيكون مُربكًا. لكن حينها سألت نفسي ماذا كانت ستفعل أمي لو كانت لا تزال حيّة؟ حسنًا لأجيب عن هذا السؤال: كانت ستوافق على مقابلتك من دون تردّد. كانت ستطلب منك الجلوس وتروي على مسامعك قصة دونغ هو بكل تفاصيلها حتى النهاية. كنت ستعجزين عن إيقافها لو حاولتِ ذلك. لقد عاشت ثلاثين عامًا وتلك الكلمات تحيا بداخلها. لكنني لست مثلها. لا يمكنني استحضار الماضي مثلما كانت تفعل هي.

تريدين إذني؟ نعم، أمنحك موافقتي، لكن فقط رجاء أن تقومي بذلك على النحو الصحيح. رجاءً اكتبي كتابك بشكل لا يستطيع معه أيّ أحد تدنيس ذكرى أخي مرة أخرى أبدًا.

***

في حجرة الضيوف الصغيرة بجوار الباب الأمامي، حيث فرد أخي حصيرة فائضة ومرتّبة من أجلي، قضيت الليلة أتقلب في مضجعي. في كل مرة أتمكّن فيها من النوم أجد نفسي مرة أخرى في الشوارع الليلية أمام معهد الدراسة. فتيان المدرسة الثانوية ممشوقو القوام، الصورة التي لم يستطع دونغ هو ذو الخامسة عشرة عامًا بلوغها أبدًا، تصطدم أكتافهم العريضة بكتفي. رجاءً اكتبي كتابك بشكلٍ لا يستطيع معه أي أحد تدنيس ذكرى أخي مرة أخرى أبدًا. أسير ويدي اليمنى فوق الجانب الأيسر من صدري كما لو كنت أحمي قلبي. برزت في عتمة الشارع وجوه داكنة. رأيت وجه المقتول، ووجه القاتل الذي غرز حربته في الحلم داخل صدري المتحطّم، ونظراته الخاوية.

***

في كل مرة كنا نلعب «مصارعة أصابع القدم» كنت أفوز دائمًا.

***

كان حسّاسًا جدًا للدغدغة.

***

كل ما عليَّ فعله هو مداعبة باطن قدمه بأصبع قدمي الكبير حتى يبدأ في التلوّي.

***

للوهلة الأولى كان يصعب عليَّ تمييز إذا كان سبب تشنّجه حساسيته المفرطة للدغدغة أم لأنه يتألم فعلًا.

***

ثم يلتفت نحوي بوجه متورِّد من الخجل ويبدأ في الضحك.

***

تمامًا كما كان بعض الجنود قساة بشكل استثنائي كان هناك آخرون غير عدائيين بشكلٍ خاصٍّ.

بعض ضباط المظلات حملوا المصابين على ظهورهم طوال الطريق حتى المستشفى، وأنزلوهم برفقٍ على سلالمها قبل أن

يسرعوا عائدين إلى مواقعهم. بعض الجنود حين أُمِروا بإطلاق النار على المتظاهرين وجَّهوا فوهات بنادقهم إلى أعلى في الهواء كي لا يصيبوا أحدًا. حين شكّل الجنود حائطًا أمام الجثث المصفوفة خارج مبنى المقاطعة، كي يحجبوها عن مجال تصوير كاميرات المراسلين الأجانب، منشدين بصوتٍ جهوري أغنية خاصّة بالجيش، أبقى عدد منهم أفواههم مغلقة بإحكام.

حتى ميليشيا المدنيين المسلّحة، الذين بقوا داخل مبنى المقاطعة أظهروا سلوكًا مشابهًا. أبدى معظمهم استعداده لحمل السلاح لكن حينما أتت اللحظة عجزوا عن حمل أنفسهم على إطلاق الرصاص. عندما سُئلوا: لماذا بقوا في أماكنهم رغم علمهم أن الهزيمة حتميّة، أعطى الشهود الناجون الجواب نفسه: لست متأكدًا. كان شيئًا شعرنا بأن علينا فعله.

كنتُ مخطئة حين فكّرت فيهم كضحايا. لقد ظلّوا في أماكنهم بالتحديد كي يتجنّبوا مثل هذا المصير. حينما أفكرُ في تلك الأيام العشرة من حياة هذه المدينة، أفكرُ في اللحظة التي يُغتال فيها رجل. اللحظة التي تسبق مقتلَه مباشرة، مع هذا يجد بداخله القوة كي يُبقِي عينيه مفتوحتين. فكرتُ كيف يصارع لإبقاء عينيه المتدليتين مفتوحتين بأصابعه، في اللحظة التي يلفُظ فيها أجزاء من أسنانه المهشّمة مع حفنة من دمائه، كي

يستطيع النظر مباشرة في وجه مهاجمه. اللحظة التي يبدو فيها أنه يتذكّر بوعيٍ حادٍّ أن له وجهًا وصوتًا، اللحظة التي يبدو فيها أنه يسترجع كرامته التي تبدو ذكرى من حياة سالفة. فلتُفتحْ تلك اللحظة بالقوة، وستخرج منها مشاهد مذبحة وتعذيب وقمع عنيف. لقد نُحّيَت تلك اللحظة جانبًا بالإكراه، وسُحقَت حتى باتت لبًا، ثم جُرِفَت بعيدًا في تيار الوحشية الكاسح. لكن لو أمكننا الآن الإبقاء على عيوننا مفتوحة، لو أمكننا الحفاظ على نظراتنا ثابتة حتى ترى النهاية المُرَّة...

***

دونغ هو، أريدكَ أن تأخذني من يدي، وتقودني بعيدًا عن كل هذا. بعيدًا إلى مكان يسطعُ فيه الضوء. إلى حيث تتفتحُ الزهورُ.

***

الصبي بعنقه النحيفة وثيابه الصيفية الخفيفة يسير بطول الممر المغطى بالثلج الممتد بين القبور، وأنا خلفه، أتبعه. كان الثلج قد ذاب بالفعل في قلب المدينة لكن هنا لا يزال صامدًا. خطا الصبي فوق منحدرٍ متجمّدٍ. بلل الثلج أسفل بنطاله الرياضي. مندهشًا من البرودة التي شعر بها، التفت ونظر إليَّ. ابتسم، وامتدت الابتسامة إلى عينيه.

***

باستثناء ذلك الحلم، لم يكن هناك لقاءٌ فعلي وسط القبور.

كتبت ملاحظة لأخي النائم، وتركتها على منضدة المطبخ، وتسللتُ خارج الشقة في ساعات الصباح الأولى. سرتُ بتمهّل حاملة حقيبة ظهري المحشوَّة بكل الوثائق التي جمعتها خلال إقامتي القصيرة في غوانغجو، ولحقت بالحافلة التي غادرت المدينة إلى المقبرة. لم اشترِ زهورًا، ولم أجهِّز فاكهة أو خمرًا كقرابين. أحضرت معي ثلاث شمعات وقداحة فقط، كنتُ قد أخذتها حين عثرتُ بالصدفة على صندوق شمع صغير في الدرج تحت حوض مطبخ أخي. هذا كل شيء.

أخبرني أخوة أستاذ العلوم أن أمهم لم تتعافَ حتى موتها بعد أن استخرجوا الجثث من مانجوول-دانغ العامٍ1997، وأعادوا دفنها في مقبرة 18 مايو الوطنية المنشأة حديثًا.

مثل عائلات الضحايا الأخرى، انتظرنا حتى اليوم الذي باركت فيه العرّافة ذلك قبل أن ننبش القبر القديم لاستخراج الجثة. حين فتحنا الأكفان، كان المنظر فظيعًا. الجثة ملفوفة في ملاية بلاستيكية، ويغطيها علمُ تايجوكي مُلطخٌ بالدم. لم يتغيّر أي شيء. كانت أشلاء دونغ هو في حالة جيدة نسبيًا لأننا كنا أول من يعتني بجثته ويُلبسها ثيابًا نظيفة، ولم نتركها لشخص

لا يعرفه. لذا تلك المرة أيضًا لم نرغب في ترك المهمّة ليقوم بها شخص آخر. أزلنا الكفن القطنيّ، ولمَّعنا كل عظمة من عظامه بأنفسنا. كنتُ قلقًا من أن أمَّنا لن تتحمّل رؤية الجمجمة لذا سارعت إلى التقاطها بنفسي ومسح أسنانها واحدة تلو الأخرى. مع هذا لا شك أن التجربة برمّتها قد هزَّتها من الأعماق. كان عليَّ حقًّا أن أصرَّ على بقائها في المنزل.

***

بحثت بين القبور المغطاة بالثلج حتى وجدت قبره أخيرًا. شاهد قبر مانجوول-دانغ الذي رأيته منذ زمن بعيد، كان يحمل اسمه وتاريخ ميلاده وموته فقط، من دون أي صورة مرفقة. لكن الآن وضعوا صورة مُكبّرة بالأبيض والأسود، مأخوذة من سجلات مدرسته على شاهد القبر الجديد. القبور الملاصقة له لأشخاص ينتمون إلى المرحلة الثانوية. أمعنت النظر في تلك الوجوه الشابة والثياب الشتوية الداكنة في الصور التي التقطت غالبًا في حفل التخرج من المدرسة الإعدادية. ليلة الأمس أصرَّ أخوه أكثر من مرة على أن دونغ هو كان محظوظًا.

أليس من حسن الحظ أن الرصاصة التي أصابته قد أردته ميتًا في لحظتها؟ ألا تعتقدين ذلك؟! حمّى غريبة اشتعلت في عينيه وهو يترجاني كي أوافقه الرأي. أحد طلاب المدرسة

الثانوية الذين أطلق عليهم الرصاص بجانب أخي في مبنى المقاطعة، وجثته مدفونة الآن بجوار جثة أخي على سبيل المثال. حين استخرجوا رفاته ليعيدوا دفنه، اكتشفوا وجود ثقب في منتصف جبهته مباشرة بينما مؤخرة جمجمته قد تلاشت تمامًا. من المؤكد أنه لم يمت مباشرة لذا أطلق عليه الجنود رصاصة أخرى بينما لا يزال حيًّا يتنفّس ويتألّم كي يتأكدوا أنهم قد قضوا عليه تمامًا.

أخبرني كيف بكى والد ذلك الصبي الأشيب الشعر في صمت، ويده فوق فمه حين رأى ذلك.

فتحتُ حقيبتي، وأخرجتُ الشموع الثلاث. وضعت واحدة أمام قبر دونغ هو وقبر الصبيَّين على جانبيه، وانحنيتُ لأشعلها. لم أصلِّ. لم أغمض عينيّ، أو أصمت دقيقة حداد. احترق الشمع بثبات. شعلاته البرتقالية تتموَّج في سكون، وهي تُسحب إلى المركز الآخذ في الذوبان.

حينها فقط أدركتُ كم أنَّ كاحليَّ باردان للغاية. من دون أن أعي ذلك، كنت قد جثوت فوق طبقة من الجليد تغطّي قبر دونغ هو. بلَّل الثلج الذائب جواربي، وتسلّل عبرها إلى جلدي.

حدّقت بصمت إلى ظلّ اللهب المتموّج، وهو يرفرف مثل جناح طائر شفاف.

شكر وامتنان

من بين الوثائق التي استعنت بها أثناء كتابة هذا الكتاب أنا ممتنة بشكل خاص إلى المصادر التاريخية لانتفاضة غوانغجو 18 مايو الديمقراطية (معهد تاريخ كوريا الحديث 1990) ونساء غوانغجو (مؤسّسة نساء جيونام - غوانغجو للدراسات الإنسانية 2012)، نحن بشر صالحون (فيلم من إخراج لِي هِي ران)، مَرثيَّةُ مايو (فيلم من إخراج كيم تاي-إيل)، حالات انتحار 18 مايو - تشريح نفسي (مسرحية من إنتاج آن شو-سيك).

كما أنني ممتنة بعمق لكل من شارك معي ذكرياته الخاصة، وشجّعني على كتابة هذا العمل.

(1) ورود الشارون: نوع من زهور الخطميّ وهي تعتبر الزهرة الرسمية في كوريا الجنوبية.

(2) أو الميل الصيني: وحدة قياس صينية للمسافة انتقلت بعد ذلك إلى اليابان وكوريا. وتختلف قيمتها بحسب البلد والحقبة الزمنية. الميل الصيني الذي يعرف بـ«ري 리» بالكورية المستخدم حاليًا في كوريا الجنوبية يعادل نحو 392,7 مترًا. وفي مقطع النشيد الوطني الكوري الجنوبي المذكور أعلاه (ثلاثة آلاف ري) هي مساحة الأراضي الكورية (نحو مليون ونصف مليون متر مربع)

(3) الهانغا أو الرموز الصينية، ليست نظامًا أبجديًّا بل تعتمد على ما يعرف بالرسم اللفظي حيث رسم كل رمز فيها يتطلّب معرفة اتجاه وعدد ضربات الفرشاة اللازمة لذلك.

(4) أريرانغ: أغنية فولكلورية كورية. تعتبر من أشهر الأغاني الكورية. وهي أغنية حزينة مؤثّرة عن الهجر والحب المفقود. اكتسبت أهميتها من كونها رمزًا للكفاح الكوري من أجل الاستقلال من الاحتلال الياباني.

(5) التايجوكجي: هو علم جمهورية كوريا الجنوبية ويعود أول ظهور له إلى العام 1883م في حقبة مملكة جوسون، واعتمدته كوريا الجنوبية علمًا رسميًا لها العام 1948م بعد

تقسيم الكوريتين. يرمز تصميمه إلى مبادئ اليانغ والين في الفلسفة الشرقية. تنقسم الدائرة التي تحتل منتصف العلم إلى جزأين متساويين: يمثل الجزء الأحمر العلوي القوة الكونية الإيجابية لليانغ، بينما يمثل الجزء الأزرق السفلي قوى كونية متجاوبة للين، اليانغ يعني الذكر والين تعني الأنثى. وتحاط الدائرة بأربع مجموعات من الخطوط التي ترمز كل منها في الزوايا الأربع على التوالي إلى العناصر الكونية الأربعة، وهي الهواء والتراب والنار والماء.

(6) البادوك: الاسم الكوري للعبة الغو. وهي لعبة استراتيجية صينية الأصل تُلعب على لوح الغو، وهو لوح مقسم إلى تسعة عشر سطرًا أفقيًا يقطعه تسعة عشر سطرًا رأسيًا.

(7) الكيمباب (أرز الأعشاب البحرية): طبق كوري شهير يصنع من الأرز الأبيض المسلوق الذي قد تضاف إليه مكونات أخرى بحسب الرغبة ثم يلف بالكيم الكوري (أعشاب بحرية).

(8) أحد طرق علاج الطب الصيني التقليدي الذي يتكوّن من حرق أوراق نبات الشيح (الموكسا) المجفّفة على نقاط معينة

من الجسم. يلعب الكي بالموكسا دورًا مهمًا في طرق العلاج التقليدية الطبية في الصين واليابان وفيتنام ومنغوليا.

(9) أو السمكة المنتفخة: هي جنس من الأسماك يتميز بقدرته على نفخ معدته متخذة شكل الكرة عن طريق بلع كمية كبيرة من المياه أو الهواء بسرعة عندما يقترب الخطر منها لتتفادى الأسماك المفترسة.

(10) مصطلح يشير إلى المناهج الدراسية التي تمنح المعارف العامة وتطوّر الفكر العقلاني والقدرات الفكرية للطالب. وتضم الفنون المتحرِّرة المعاصرة، دراسة الأدب واللغة والفلسفة والرياضيات والعلوم على عكس المناهج المتخصِّصة.

(11) منطقة حزام أمني بين الكوريتين الشمالية والجنوبية يُمنع وجود السلاح فيها وفقًا لاتفاق مشترك بين البلدين عُقد تحت رعاية الأمم المتحدة العام 1953م مع وقف إطلاق النار وانتهاء الحرب الكورية.

(12) من أكثر الوجبات الكورية شعبية. وهي عبارة عن طعام تقليدي مُخلَّل يحفظ في مكان دافئ. يتكون بشكل أساسي من الملفوف والملح ومسحوق الفلفل الأحمر.

(13) أريرانغ: هو اسم أغنية كورية فولكلورية شهيرة، حيث أري باللغة الكورية: تعني جميل، ورانغ: تعني عزيزي، كُتبت كلمات الأغنية بعد أن حصلت كوريا على استقلالها من الاستعمار الياباني في ١٩١٠.

(14)13 مؤسسة عالمية مسيحية تنتشر في أكثر من 125 دولة. تأسّست العام1844م.

(15) الجبهة الوطنية لتحرير جنوب فيتنام، وهي حركة مقاومة مسلحة فيتنامية نشطت في الفترة ما بين 1954 و1976م.

(16) انتفاضة جيجو (أبريل 1948-مايو 1949): ثورة سكان جزيرة جيجو على تقسيم شبه الجزيرة الكورية والتي واجهتها الحكومة الكورية الجنوبية بأشد أنواع القمع. يقدَّر عدد القتلى خلالها بثلاثين ألف قتيل.

(17) الإشارة إلى احتلال جيش كوانتونغ الياباني لإقليم منشوريا التابع للصين العام 1931م. دام هذا الاحتلال حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

(18) مذبحة نانجينغ 1937: إحدى أفظع جرائم الجيش الياباني في الحرب العالمية الثانية، حيث قام جيش الاحتلال الياباني في مدينة نانجينغ الصينية بقتل ونهب واغتصاب أسرى الجيش الصيني، وكذلك سكان المدينة المدنيين. يقدَّر عدد القتلى بنحو مائتين إلى مائتين وخمسين ألف قتيل.

(19) وحدة كورية لقياس المساحة تعادل حوالى 3,3 أمتارٍ مربَّعة.

(20) مصنع للطاقة النووية في كوريا الجنوبية يقع في قرية كوري على أطراف مدينة بوسان.

(21) الدستور الذي أسّس لقيام الجمهورية الرابعة لكوريا الجنوبية بعد نجاح الجنرال بارك تشونغ هي بانقلابه العسكري ليصبح رئيس البلاد. وقد أعطى هذا الدستور للرئيس بارك سلطات واسعة وسمح له بالترشح للرئاسة لست مدد رئاسية.

(22) الهانغا: هي الاسم الكوري للحروف الصينية، وهي مكوَّنة مما يزيد على خمسة آلاف رمز، ونظام الكتابة فيها ليس أبجديًا بل رسمٌ لفظيٌّ.

(23) جيون تاي إيل (1948-1970): عامل وناشط في مجال حقوق العمال في كوريا الجنوبية. انتحر بحرق نفسه حتى الموت في الثانية والعشرين من عمره احتجاجًا على ظروف العمل السيئة في المصانع الكورية الجنوبية. جلبت وفاته الانتباه إلى ظروف العمل القاسية وساعد ذلك في تشكيل الحركة النقابية العمالية في كوريا الجنوبية.

(24) الأبجدية المستعملة في الكتابة الكورية. اخترعها الملك العظيم سيه جونغ في القرن الخامس عشر في عصر مملكة جوسون. وهي لغة تعتمد على نظام دقيق وعدد أقل كثيرًا من الحروف مقارنة بالهانغا « الرموز الصينية» التي كان يستخدمها الكوريون في الكتابة قبل الهانغل.

(25) حركة القرية الجديدة (حركة سايمايِل): مبادرة سياسية أطلقها رئيس كوريا الجنوبية بارك تشونغ هي لتحديث

المناطق الريفية في العام 1970 خاصة مع الثورة الصناعية التي همَّشت الريف. فقدت الحركة زخمها مع اغتيال الرئيس بارك العام 1980م

(26) هي رياضة شبيهة بكرة اليد. يحاول فيها كل فريق رمي الكرة لإصابة أفراد الفريق الآخر، وكل لاعب يُصاب يخرج من اللعبة. الهدف من اللعبة هو إقصاء جميع أفراد الفريق الآخر إما بإصابته بالكرة أو التقاط الكرة حين تُرمى باتجاهه أو إرغام الخصم على الخروج خارج حدود الملعب.
(27) صغير الظبي.

(28) لعبة استراتيجية مشهورة في كوريا وهي تُلعب على لوح الغو.

(29) البيت التقليدي الكوري. ويعود أصله إلى القرن الرابع عشر أثناء فترة حكم مملكة جوسون.

(30) شبكة من الأعصاب في تجويف المعدة تمتد أمام الشريان الأورطي.


تليجرام
مكتبة
غواص في بحر الكتب
محمد خطاب